تاريخ البيمارستانات في الإسلام

أحمد عيسى



تاريخ البيمارستانات في الإسلام

تاريخ البيمارستانات في الإسلام

تأليف

الدكتور أحمد عيسى

هنـــداوي

تاريخ البيمارستانات في الإسلام

الدكتور أحمد عيسى

رقم إيداع ٢٠١٢ / ١٥١٧٢
تدمك: ٠ ٩٠ ١٧١ ٥١٧١ ٩٧٧ ٩٧٨

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٦ / ٨ / ٢٠١٢

إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه
٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٢٧٠٦٣٥٢ ٢٠٢ + **فاكس:** ٣٥٣٦٥٨٥٣ ٢٠٢ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

المحتويات

مقدمة في نشأة البيمارستانات ونظامها وأطبائها وأرازقها

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وعلى أنبيائه أجمعين.

هذه كلمة في تاريخ المستشفيات، وهي التي كان يُعبر عنها بكلمة بيمارستان في العهد الإسلامي إلى العصر الحاضر، أي إلى إنشاء مستشفى أبي زعبل بضاحية القاهرة، وهو أول مستشفى أنشئ على النظام الحديث في مصر سنة ١٨٢٥م.

وهذه البيمارستانات هي إحدى المنشآت والعمائر كالمساجد والتكايا والقباب والمدارس إلخ ... التي كان يشيدها الخلفاء والسلاطين والملوك والأمراء وأهل الخير على العموم صدقة وحسبة وخدمة للإنسانية وتخليدًا لذكراهم. ولم تكن مهمة هذه البيمارستانات قاصرة على مداواة المرضى، بل كانت في نفس الوقت معاهد علمية ومدارس لتعليم الطب، يتخرج منها المتطببون والجراحون «الجرائحيون» والكحالون كما يتخرجون اليوم من مدارس الطب.

(١) تفسير كلمة بيمارستان

البيمارستان (بفتح الراء وسكون السين) كلمة فارسية مركبة من كلمتين (بيمار) بمعنى مريض أو عليل أو مصاب و(ستان) بمعنى مكان أو دار فهي إذن دار المرضى، ثم اختصرت في الاستعمال فصارت مارستان كما ذكرها الجوهري في صحاحه.

وكانت البيمارستانات من أول عهدها إلى زمن طويل مستشفيات عامة، تعالج فيه جميع الأمراض والعلل من باطنية وجراحية ورمدية وعقلية، إلى أن أصابتها الكوارث ودار بها الزمن وحل بها البوار وهجرها المرضى، فأقفرت إلا من المجانين حيث لا مكان لهم سواها؛ فصارت كلمة مارستان إذا سمعت لا تنصرف إلا إلى مأوى المجانين.

وقبل الشروع في ذكر البيمارستانات رأينا أن نذكر كلمة في حال الطب عند العرب في مبدأ نشأتهم في الإسلام، ثم نلحقها بالبيمارستانات وترتيبها ونظام المداواة فيها واختيار الأطباء ومعاملتهم وأرزاقهم والرقابة عليهم، ثم نذكر الحبوس والهبات والأعيان الموقوفة على البيمارستانات ووظائف الأطباء ورتبهم في الدولة.

(٢) حالة الطب عند العرب في مبدأ نشأتهم

قال القاضي صاعد بن أحمد الأندلسي في كتابه طبقات الأمم: «إن العرب في صدر الإسلام لم تُعن بشيء من العلوم إلا بلغتها ومعرفة أحكام شريعتها، حاشا علوم الطب، فإنها كانت موجودة عند أفراد منهم غير منكورة عند جماهيرهم لحاجة الناس طرًّا إليها.»

وقد كان في عهد رسول الله ﷺ أناس يعلمون الطب ويعملون به: ذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى في (صفوة الصفوة) عن هشام بن عروة قال: كان عروة يقول لعائشة رضي الله عنها: يا أماه لا أعجب من فقهك، أقول زوجة رسول الله ﷺ وابنة أبي بكر، ولا أعجب من علمك بالشعر وأيام الناس، أقول ابنة أبي بكر وكان من أعلم الناس، ولكني أعجب من علمك بالطب! فضربت على منكبه وقالت: أي عروة! إن رسول الله ﷺ كان في آخر عمره فكانت تقدم عليه وفود العرب من كل وجه فتنعت له الأنعات، فكنت أعالجها من ثم.» وفي تاريخ الإسلام للذهبي[١] قال عروة بن الزبير: ما رأيت أعلم بالطب من عائشة، فقلت يا خالة: من أين تعلمت الطب؟ قالت: كنت أسمع الناس ينعت بعضهم لبعض

[١] ص ١٣٨ مخطوط بدار الكتب الملكية.

فأحفظه. وروى أبو داود رحمه الله تعالى عن سعيد قال: «مرضت مرضًا فأتاني رسول الله ﷺ يعودني فوضع يده بين ثديي حتى وجدت بردها على فؤادي فقال: إنك مفؤود، ائت الحارث بن كلدة أخا ثقيف فإنه يتطبب.»[٢].

وفي الموطأ عن زيد بن أسلم: أن رجلًا في زمان رسول الله ﷺ أصابه جرح فاحتقن الجرح بالدم وأن الرجل دعا رجلين من بني أنمار، فنظر إليهما فزعما أن رسول الله ﷺ قال: «أيكما أطب؟» فقال: «أو في الطب خير يا رسول الله؟ فزعم زيد أن رسول الله قال: «أنزل الدواء الذي أنزل الأدواء.»

وروى أبو داود رحمه الله تعالى عن جابر رضي الله عنه قال: «بعث النبي ﷺ إلى أبي طبيبًا فقطع منه عرقًا.»

وكان في العرب كثير من المتطببين يخلط بعضهم بين الرقى والتطبيب، وبعضهم الآخر كان قد تعلم الطب في فارس أو في إحدى البلاد المجاورة لجزيرة العرب ثم رجع إلى موطنه يعاني صفة التطبيب، ومن هؤلاء المتطببين:

الحارث بن كلدة الثقفي: تعلم الطب في (جنديسابور) بلدة من مقاطعة خوزستان أحد أقاليم فارس.

وابنه النضر بن الحارث بن كلدة: تعلم الطب حيث تعلم أبوه.

وعبد الملك بن أبجر الكناني : كان في أول أمره مقيمًا بالإسكندرية لأنه كان المتولي التدريس بها بعد الإسكندرانيين.

وابن أبي رمثة التميمي: فقد كان جراحًا مشهورًا.

زينب طبيبة بني أود: فقد كانت خبيرة بالعلاج ومداواة العين والجراحات، مشهورة بين العرب بذلك.

الشمردل بن قباب الكعبي النجراني[٣]**:** كان في وفد نجران بني الحارث بن كعب فنزل الشمردل بين يدي النبي ﷺ فقال: «يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، إني كنت كاهن قومي في الجاهلية وإني كنت أتطبب، فما يحل لي فإني تأتيني الشابة؟» قال: «فصد

---

[٢] الجزء الثاني من تخريج الدلالات السمعية.

[٣] الإصابة لابن حجر العسقلاني.

العرق ومجسة الطعنة إن اضطررت، ولا تجعل من دوائك شَبْرُمًا، وعليك بالسنا، ولا تداوِ أحدًا حتى تعرف داءه.» فقبل ركبتيه وقال: «والذي بعثك بالحق أنت أعلم بالطب مني.»

وضماد بن ثعلبة الأزدي: من أزد شنوءة، قال ابن عباس:[٤] «قدم رجل من أزد شنوءة يُقال له ضماد مكة معتمرًا فسمع كفار قريش يقولون: محمد مجنون. فقال: لو أتيت هذا الرجل فداويته فجاءه فقال: «يا محمد، إني أداوي من الريح فإن شئت داويتك لعل الله ينفعك.» فتشهد رسول الله ﷺ وتكلم بكلمات فأعجب ذلك ضمادًا فقال: «أعدها علي.» فأعادها عليه فقال: «لم أسمع مثل هذا الكلام قط! لقد سمعت كلام الكهنة والسحرة والشعراء فما سمعت مثل هذا قط، لقد بلغ قاموس البحر. يعني قعره. فأسلم وشهد شهادة الحق وبايعه على نفسه وعلى قومه.»

أم عطية الأنصارية[٥]: نسبة التي أمرها النبي ﷺ أن تغسل بنته زينب، لها أحاديث روى عنها محمد بن سيرين وأخته حفصة وأم شراحيل وعلي بن الأحمر وعبد الملك بن عمير وهشام بن حسان عن حفصة بنت سيرين عن أم عطية قالت: غزوت مع النبي ﷺ سبع غزوات فكنت أصنع لهم طعامهم وأخلفهم في رحالهم وأداوي الجرحى وأقوم على المرضى.

(٣) أول من اتخذ البيمارستانات في الإسلام

روى مسلم رحمه الله تعالى عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: أصيب سعد بن معاذ يوم الخندق رماه رجل من قريش يقال له ابن العرقة، رمي في الأكحل،[٦] فضرب رسول الله ﷺ خيمة في المسجد يعوده من قريب.[٧] وقال ابن إسحاق في السيرة: كان رسول الله ﷺ قد جعل سعد بن معاذ في خيمة لامرأة من أسلم يقال لها رفيدة في مسجده، كانت تداوي الجرحى وتحتسب بنفسها على خدمة من كانت به ضيعة من المسلمين، وقد كان

[٤] الطبقات الكبرى لابن سعد جزء قسم ١ ص ١٧٧.

[٥] تاريخ الإسلام للذهبي ص ٤٢٨ مخطوط.

[٦] الأكحل هو Veine mediane basôligne.

[٧] الجزء الثاني من تخريج الدلالات السمعية.

رسول الله قد قال لقوم حين أصابه السهم بالخندق: «اجعلوه في خيمة رفيدة حتى أعوده من قريب.»[٨] فيُفهم من ذلك أن النبي ﷺ أول من أمر بالمستشفى الحربي المتنقل. وقال تقي الدين المقريزي: أول من بنى البيمارستان في الإسلام ودار المرضى، الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي في سنة ٨٨هـ/٧٠٦م، وجعل في البيمارستان الأطباء وأجرى لهم الأرزاق وأمر بحبس المجذمين لئلا يخرجوا، وأجرى عليهم وعلى العميان الأرزاق. وقال محمد بن جرير الطبري في تاريخ الرسل والملوك:[٩] «كان الوليد بن عبد الملك عند أهل الشام أفضل خلائفهم، بنى المساجد مسجد دمشق ومسجد المدينة، ووضع المنار، وأعطى الناس، وأعطى المجذمين وقال: «لا تسألوا الناس.» وأعطى كل مقعد خادمًا وكل ضرير قائدًا.

(٤) أنواع البيمارستانات

كان للبيمارستانات نوعان: ثابت ومحمول.

فالثابت ما كان بناءً ثابتًا في جهة من الجهات لا ينتقل منها، وهذا النوع من البيمارستانات كان كثير الوجود في كثير من البلدان الإسلامية، لا سيما في العواصم الكبرى كالقاهرة وبغداد ودمشق … إلخ، ولا يزال أثر بعضها باقيًا على مر الدهور إلى الآن، كالبيمارستان المنصوري (قلاوون الآن) بالقاهرة، والبيمارستان المؤيدي بالقرب من القلعة بالقاهرة أيضًا، والبيمارستان النوري الكبير بدمشق، والبيمارستان القيمري بها أيضًا، وبيمارستان أرغون بحلب … مما سيأتي ذكره.

البيمارستان المحمول

هو الذي ينقل من مكان إلى مكان بحسب ظروف الأمراض والأوبئة وانتشارها وكذا الحروب، وهو المعبر عنه في العصر الحاضر بكلمات Ambulance بالفرنسية وFeldlazareth بالألمانية وAmbulance بالإنجليزية وAmbulanza بالإيطالية.

[٨] سيرة ابن هشام ج ١ ص ٦٨٨ طبع جوتنحي.

[٩] حوادث سنة ٩٦ ص ١٢٧.

كان هذا النوع من البيمارستانات معروفًا لدى خلفاء الإسلام وملوكهم وسلاطينهم وأطبائهم، بل الراجح أن يكونوا هم أول من أنشأه، وهو عبارة عن مستشفى مجهز بجميع ما يلزم للمرضى والمداواة من أدوات وأدوية وأطعمة وأشربة وملابس وأطباء وصيادلة، وكل ما يعين على ترفيه الحال على المرضى والعجزة والمزمنين والمسجونين، ينقل من بلد إلى أخرى من البلدان الخالية من بيمارستانات ثابتة، أو التي يظهر فيها وباء أو مرض معد.

قال ثابت بن سنان بن ثابت بن قرة:[10] «إن الوزير علي بن عيسى بن الجراح[11] في أيام تقلده الدواوين من قبل المقتدر بالله وتدبير المملكة في أيام وزارة حامد بن أبي العباس وَقَّعَ إلى والده سنان بن ثابت في سنة كثرت فيها الأمراض جدًّا، وكان سنان يتقلد البيمارستانات ببغداد وغيرها توقيعًا نسخته: «فكرت مد الله في عمرك في أمر من في الحبوس، وأنهم لا يخلون مع كثرة عددهم وجفاء أماكنهم أن تنالهم الأمراض، وهم معوقون عن التصرف في منافعهم ولقاء من يشاورونه من الأطباء في أمراضهم، فينبغي أكرمك الله أن تفرد لهم أطباء يدخلون إليهم في كل يوم، ويحملون معهم الأدوية والأشربة وما يحتاجون إليه من المزورات،[12] وتتقدم إليهم بأن يدخلوا سائر الحبوس، ويعالجوا من فيها من المرضى، ويريحوا عللهم فيما يصفونه لهم إن شاء الله تعالى.» ففعل سنان ذلك

ثم وقع إليه توقيعًا آخر: «فكرت فيمن بالسواد من أهله، وأنه لا يخلو من أن يكون فيه مرضى ولا يشرف متطبب عليهم لخلو السواد من الأطباء، فتقدم مد الله في عمرك بإيفاد متطببين وخزانة من الأدوية والأشربة يطوفون السواد، ويقيمون في كل صقع منه مدة ما تدعو الحاجة إلى مقامهم، ويعالجون من فيه ثم ينتقلون إلى غيره.» ففعل سنان ذلك وانتهى أصحابه إلى سورا[13] بلدة من بلاد العراق والغالب على أهلها اليهود. فكتب سنان إلى الوزير علي بن عيسى يعرفه ورود كتب أصحابه عليه من السواد:[14] بأن أكثر

[10] ابن القفطي ص ١٩٣ طبعة ليدن وابن أبي أصيبعة ج ١ ص ٢٢١.

[11] ولد سنة ٢٤٥هـ وتوفي سنة ٣٣٥هـ.

[12] المزورات هي التي تُسمى الآن (شربة الخضر) أي خضر بدون لحم ولا دسم.

[13] قال ياقوت: سورا على وزن بشرى موضع بالعراق من أرض بابل وهي مدينة السريانيين.

[14] السواد رستاق العراق وضياعها التي افتتحها المسلمون على عهد عمر بن الخطاب سمي بذلك لسواده بالزروع والنخيل والأشجار.

من بسورا وشهر ملك يهود، وأنهم استأذنوا في المقام عليهم وعلاجهم أو الانصراف عنهم إلى غيرهم، وأنه لا يعلم بما يجيبهم به إذ كان لا يعرف رأيه في أهل الذمة، وأعلمه أن الرسم في بيمارستان الحضرة قد جرى للملي والذمي.

فوقع الوزير توقيعًا نسخته:

«فهمت ما كتبت به أكرمك الله، وليس بيننا خلاف في أن معالجة أهل الذمة والبهائم صواب، ولكن الذي يجب تقديمه والعمل به معالجة الناس قبل البهائم، والمسلمين قبل أهل الذمة، فإذا فضل عن المسلمين ما لا يحتاجون إليه صرف في الطبقة التي بعدهم، فاعمل أكرمك الله على ذلك واكتب إلى أصحابك به، ووصِّ بالتنقل في القرى، والمواضع التي فيها الأوباء الكثيرة والأمراض الفاشية، وإن لم يجدوا بذرقة[١٥] توقفوا عن المسير حتى يصح لهم الطريق ويصلح السبيل، فإنهم إن فعلوا هذا وفقوا إن شاء الله تعالى.»

ونذكر مثلًا من البيمارستانات المتنقلة التي كان يستعملها السلاطين في تنقلاتهم وحروبهم ما ذكره ابن خلكان[١٦] وابن القفطي[١٧] قالا: «إن أبا الحكم المغربي عبد الله[١٨] بن المظفر بن عبد الله المرسي نزيل دمشق، كان طبيب البيمارستان الذي كان يحمله أربعون حملًا، المستصحب في معسكر السلطان محمود السلجوقي حيث خيم. وكان القاضي السديد أبو الوفا يحيى بن سعيد بن يحيى بن المظفر المعروف بابن المرخم الذي صار قاضي القضاة ببغداد في أيام الإمام المقتفى فاصدًا وطبيبًا في هذا المارستان المحمول المذكور، وكان أبو الحكم يشاركه.

وكانت العادة في دولة المماليك[١٩] أن يخرج السلطان ومعه الأمراء والأعيان إلى القصور التي بنوها خارج المدن ويقيم لها أيامًا، فيمر بالناس في إقامتهم هناك، أوقات لا يمكن وصف ما فيها من المسرات، ولا حصر ما ينفقه فيها من المآكل والهبات والأموال. ويصحب

---

[١٥] بذرقة أي خفر وأمن.

[١٦] وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٤٤ طبعة بولاق وص ٣٨٤ طبعة باريس.

[١٧] تاريخ الحكماء ص ٤٠٥ طبعة ليدن.

[١٨] وفي شذرات الذهب لابن العماد عبيد الله بن المظفر الباهلي الأندلسي توفي سنة ٥٤٩هـ.

[١٩] خطط المقريزي ج ٢ ص ٢٠٠ طبعة بولاق.

السلطان في السفر غالب ما تدعو الحاجة إليه حتى يكاد يكون معه مارستان لكثرة من معه من الأطباء وأرباب الكحل والجراح والأشربة والعقاقير وما يجري مجرى ذلك. وكل من عاده طبيب ووصف له ما يناسبه يصرف له من الشرابخاناه أو الدواء خاناه المحمولين في الصحبة. وكان من عادة السلطان الملك الظاهر برقوق[٢٠] التردد على بلدة سرياقوس بركب عظيم وحفل كبير، والبيات فيها مستمرًّا إلى سنة ٧٩٩هـ مصحوبًا بكل ما سبق.

(٥) المكفوفون والنساء يتعاطون التطبيب

النساء اللاتي عانين صناعة الطب

كان تعلم الطب ومعاناة التطبيب مكفولين لأي كان ذكرًا أو أنثى مبصرًا أو مكفوفًا.

كانت زينب[٢١] طبيبة بني أود من الماهرات في صناعة الكحالة عالمة بصناعة الطب والمداواة، ولها خبرة جيدة بمداواة آلام العين والجراحات مشهورة بين العرب بذلك. ذكر أبو الفرج الأصفهاني في كتاب الأغاني: «قال رجل من الأعراب: أتيت امرأة من بني أود لتكحلني من رمد كان أصابني، فكحلتني ثم قالت: اضطجع قليلًا حتى يدور الدواء في عينيك. فاضطجعت ثم تمثلت قول الشاعر:

أمخترمي ريب المنون ولم أزر   طبيب بني أود على النأي زينبا

فضحكت ثم قالت: أتدري فيمن قيل هذا الشعر؟ قلت: لا. قالت: فيّ والله قيل، وأنا زينب التي عناها، وأنا طبيبة بني أود، أفتدري من الشاعر؟ قلت: لا. قالت: عمك أبو سماك الأزدي.»

ورفيدة الأسلمية اتخذت خيمة في مسجد النبي ﷺ وكانت تداوي الجرحى. وكانت أخت الحفيد أبي بكر بن زهر وبنتها عالمتين بصناعة الطب والمداواة، ولها خبرة جيدة فيما يتعلق بمداواة النساء، وكانتا تدخلان لنساء المنصور أبي يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ولا يقبل للمنصور وأهله ولدًا إلا أخت الحفيد أو بنتها لما توفيت أمها.

---

[٢٠] الخطط التوفيقية لعلي مبارك باشا ج ١٢ ص ٢٤.

[٢١] طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ج ١ ص ١٢٣.

وكانت أم الحسن[٢٢] بنت القاضي أحمد بن عبد الله بن عبد المنعم أبي جعفر الطنجالي من أهل لوشة (بلدة بالأندلس) تجود القرآن وتشارك في فنون من الطلب وأفراد مسائل الطب وتنظم الشعر.

(٦) الأطباء المكفوفون

كان أبو الحسن علي بن إبراهيم بن بكس طبيبًا مكفوفًا، وكان فاضلًا عاملًا بصناعة الطب متقنًا لها غاية الإتقان، وكان يدرس الطب في البيمارستان العضدي ويفيد الطالبين، وكان إذا أراد معرفة سحنات الوجوه وحال بول المرضى حول على من يكون معه في تلاميذه في وصفه ذلك.[٢٣]

وأبو الحسن بن مكين البغدادي الضرير[٢٤] قاد الحكمة بزمامها وكان مكفوفًا يقود تلميذه إلى ديار المرضى، وكان أبو الخير يهجنه في كتاب (امتحان الأطباء) وقال: من قاد أعمى شهرًا (يعني ذلك الطبيب) تطبب وعالج وأهلك الناس.

وأبو عبد الله محمد بن سليمان بن الحناط[٢٥] المكفوف الشاعر الضرير القرطبي، كان أوسع الناس علمًا بعلوم الجاهلية في الإسلام، بصيرًا بالآثار العلوية حاذقًا بالطب والفلسفة، ماهرًا في اللغة العربية والآداب الإسلامية، ولد أعشى ضعيف البصر متوقد الخاطر، فقرأ كثيرًا في حال عشاه ثم طفئ نور عينه بالكلية فازداد براعة، ونظر في الطب بعد ذلك فأنجح علاجًا. وكان ابنه يصف له مياه الناس المستفتين عنده، فيهتدي منها إلى ما يهتدي إليه البصير، ولا يخطئ الصواب في فتواه لسرعة الاستنباط، وتطبب عنده الأعيان والملوك فاعترفوا له بمنافع جسيمة.

---

[٢٢] طبقات الأطباء ج ٢ ص ٧٠.

[٢٣] الإحاطة في أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب ج ١ ص ٢٦٥.

[٢٤] تاريخ الحكماء لابن القفطي ص ٢٣٦ طبعة ليدن.

[٢٥] الذخيرة لابن بسام ج ١ ص ٢٣٠ مخطوط.

(٧) التقسيم الفني لنظام البيمارستان

لم تكن البيمارستانات تسير اتفاقًا بغير نظام ولا ترتيب، بل كانت على نظام تام وترتيب محمود تسير أعمالها على وتيرة منتظمة.

كانت البيمارستانات منقسمة إلى قسمين منفصلين بعضهما عن بعض، قسم للذكور وقسم للإناث،[٢٦] وكل قسم مُجهز بما يحتاجه من آلة وعدة وخدم وفراشين من الرجال والنساء وقوام ومشرفين.

وفي كل قسم من هذين القسمين عدة قاعات لمختلف الأمراض: فقاعة للأمراض الباطنة، وقاعة للجراحة، وقاعة للكحالة، وقاعة للتجبير.[٢٧] وكانت قاعة الأمراض الباطنة منقسمة إلى أقسام أخرى: قسم للمحمومين[٢٨] وهم المصابون بالحمى، وقسم للممرورين وهو لمن بهم المرض المسمى (مانيا) وهو الجنون السبعي،[٢٩] وقسم للمبرودين أي المتخومين، ولمن به إسهال قاعة ... إلخ.

وكانت قاعة البيمارستان فسيحة حسناء البناء وكان الماء فيها جاريًا.[٣٠]

وللبيمارستان صيدلية تسمى شرابخاناه ولها رئيس يسمى شيخ صيدليي البيمارستان.[٣١]

وللبيمارستان رئيس يسمى ساعور[٣٢] البيمارستان. ولكل قسم من أقسامه رئيس، فكان فيه رئيس للأمراض الباطنة، ورئيس للجراحة والمجبرين، ورئيس للكحالين.

وللبيمارستان الفراشون من الرجال والنساء والمشرفون والقوام للخدمة أيضًا،[٣٣] ولهم المعاليم الوافية والجامكية الوافرة.

---

[٢٦] طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ج ١ ص ٣١٠.

[٢٧] ابن أبي أصيبعة ج ٢ ص ٢٤٢.

[٢٨] ابن أبي أصيبعة ج ٢ ص ٢٤٣ وج ١ ص ٢٥٤.

[٢٩] ابن أبي أصيبعة ج ٢ ص ٢٦٠.

[٣٠] ابن أبي أصيبعة ج ٢ ص ٢٦٠.

[٣١] ابن أبي أصيبعة ج ١ ص ٣٠٩.

[٣٢] الساعور مقدم النصارى في معرفة علم الطب وهو بالسريانية ساعورا ومعناه متفقد المرضى.

[٣٣] ابن أبي أصيبعة ج ٢ ص ١٥٥.

(٨) خزانة الشراب

هي الصيدلية في البيمارستان قال أبو العباس القلقشندي:[٣٤] هذه الخزانة هي المُعبر عنها في زماننا (أي زمن القلقشندي المتوفى سنة ٨٢١هـ/ ١٤١٨م) بالشرابخاناه وهي الحواصل المعبر عنها بالبيوت، ذلك أنهم يضيفون كل واحد منها إلى لفظ خاناه كالشراب خاناه والطشت خاناه والطبل خاناه ونحوها، وخاناه لفظ فارسي معناه البيت فتأويلها بيت الشراب إلخ. إلا أنهم يؤخرون المضاف عن المضاف إليه على عادة الفرس في ذلك. وكان فيها من أنواع الأشربة والمعاجين النفيسة والمربيات الفاخرة وأصناف الأدوية والعطريات الفائقة التي لا توجد إلا فيها. وفيها من الآلات النفيسة والآنية الصيني من الزبادي والبراني والأزيار ما لا يقدر عليه غير الملوك. وقد كان لكل مارستان خزانة للشراب كاملة كما في وقفية المارستان المنصوري (قلاوون) وغيره، ولكل شراب خاناه «مهتار» يعرف بمهتار الشرابخاناه (ومهتر بالفارسية بمعنى رئيس) متسلم لحواصلها له مكانة عالية وتحت يده غلمان عنده برسم الخدمة يطلق على كل واحد منهم شراب دار.[٣٥]

وفي الشرابخاناه الخاصة بالسلطان وظيفة الشّادّ بها تكون لأمير من أكابر أمراء المئين الخاصكية المؤتمنين ولها مهتار يعرف بمهتار الشرابخاناه متسلم لحواصلها.[٣٦]

ووظيفة الشاد موضوعها التحدث في أمر الشرابخاناه السلطانية وما عمل إليها من السكر والمشروب والفواكه وغير ذلك، وتارة يكون مقدمًا[٣٧] وتارة يكون طبلخاناه.[٣٨]

[٣٤] صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٧٦.

[٣٥] صبح الأعشى ج ٤ ص ١٠.

[٣٦] صبح الأعشى ج ٤ ص ١٩١.

[٣٧] المقدم منصب من الدرجة الأولى من مناصب الدولة في حكم المماليك، ويقال لأربابها مقدمو الألوف، ولكل واحد منهم التقدمة على ألف فارس ممن دونه من الأمراء، وهذه الطبقة هي أعلى مراتب الأمراء على تقارب درجاتهم، ومنهم يكون أكابر الوظائف والنواب، وكانت عدتهم أربعة وعشرين مقدمًا بالديار المصرية، ثم نقصت عدة المقدمين عما كانت عليه بعد ذلك وصارت دائرة بين الثمانية عشر والعشرين مقدمًا، منهم نائب الإسكندرية ونائبا الوجهين القبلي والبحري.

[٣٨] الطبلخاناه منصب من الطبقة الثانية من مناصب الدولة في حكم المماليك، ويكون للواحد منهم أربعون فارسًا. وهذه الطبقة لا ضابط لعدة أمرائها بل تتفاوت بالزيادة والنقص، ومن أمراء الطبلخاناه تكون الرتبة الثانية من أرباب الوظائف والكشاف بالأعمال وأكابر الولاة (صبح الأعشى ج ٤ ص ١٥).

(٩) نظر البيمارستان ورتب أطبائه

كان للبيمارستان ناظر ينظر أو يشرف على إدارته، وكان النظر عليه معدودًا من الوظائف الديوانية العظيمة، قال أبو العباس أحمد القلقشندي:[٣٩] «من الوظائف الديوانية نظر البيمارستان وقد صار النظر عليه معدوقًا بالنائب (نائب السلطان) يفوض التحدث فيه إلى من يختاره من أرباب الأقلام.»

وقال عند الكلام عن نائب السلطنة: «ومعه (أي نائب السلطان) يكون نظر البيمارستانات الكبير النوري الذي بدمشق كما يكون نظر البيمارستان المنصوري (قلاوون) بالقاهرة مع أتابك[٤٠] العساكر.» وقال عن الوظائف الكبيرة بالقاهرة: «إن منها صحابة ديوان البيمارستان وموضوعها التحدث في كل ما يتحدث به ناظر البيمارستان.»[٤١] وقال عن وظيفة نظر البيمارستان والمراد البيمارستان النوري: «هي من أجل الوظائف وأعلاها وعادة النظر فيه من أصحاب السيوف لأكبر الأمراء بالديار المصرية.[٤٢] وذكر ابن إياس:[٤٣] «إن نظر البيمارستان كان من أهم وظائف الدولة يتولاه الأتابكي ويذهب إليه في حفلة حافلة.» وقال في حوادث سنة ٩٠١هـ ومستهلها يوم الأحد: «في هذا اليوم خلع على الأتابكي تمراز وقرره في نظر البيمارستان المنصوري فتوجه هناك في موكب حافل.» وذلك كان في سلطنة الملك الأشرف أبي النصر قايتباي المحمودي في عصر الخليفة المتوكل على الله العباسي.

[٣٩] صبح الأعشى ج ٤ ص ١٨٤.

[٤٠] أصله أطابك ومعناه الأمير، ويعبر عنه أيضًا بالنائب الكافل وكافل المماليك الإسلامية، وهو يحكم في كل ما يحكم فيه السلطان ويعلم في التقاليد والتواقيع والمناشير وغير ذلك مما يعلم عليه السلطان. وهذه رتبة لا يخفى ما فيها من التمييز. وجميع نواب المالك تكاتبه فيما تكاتب فيه السلطان، ويستخدم الجند ويعين أرباب الوظائف الجليلة كالوزارة وكتابة السر، فهو سلطان مختصر بل هو السلطان الثاني (صبح الأعشى ج ٤ ص ١٤).

[٤١] صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٤.

[٤٢] صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٨.

[٤٣] بدائع الزهور في وقائع الدهور لابن أبي إياس المتوفى ٩٣٠هـ/١٥٢٤م ج ٢ ص ١٩٢.

وقال خليل بن أيبك[٤٤] الظاهري: «إن للبيمارستان شادًّا وظيفته من وظائف الدولة تقضي لمن يستقر فيها إمرة عشرين حاجبًا.» وقال أبو العباس القلقشندي:[٤٥] «من الوظائف بدمشق وظائف أرباب الصناعات منها: رياسة الطب ورياسة الكحالة ورياسة الجرائحية، وكلها على نحو ما هو موجود في الديار المصرية، وولاية كل منها بتوقيع كريم من النائب.»[٤٦]

وألقاب أرباب الوظائف من أهل الصناعات هي:

(١) **رئيس الأطباء** وهو الذي يحكم على طائفة الأطباء ويأذن لهم في التطبيب ونحو ذلك.

(٢) **رئيس الكحالين** وحكمه في الكلام على طائفة الكحالة حكم رئيس الأطباء في طائفة الأطباء.

(٣) **رئيس الجراحة** وحكمه في الكلام على طائفة الجراحة والمجبرين كالرئيس المتقدم.[٤٧]

وكانت أعظم الوظائف الصناعية في الدولة الفاطمية بمصر وظائف الأطباء، فكانت ألقاب أرباب الصناعات الرئيسية كرياسة الطب من الدرجة الأولى درجة المجلس أو إمرة المجلس، وموضوعها التحدث على الأطباء والكحالين ومن شاكلهم، ولا يكون إلا واحدًا وفي المرتبة الأولى مرتبة المجلس العالي.

وكان من الوظائف الصناعية العظيمة وظيفة الطبيب الخاص، وهو الطبيب الخاص بالخليفة، يجلس على باب دار الخلافة كل يوم، ويجلس على الدكك التي بالقاعة المعروفة بقاعة الذهب بالقصر، دونه أربعة أطباء أو ثلاثة، فيخرج الأستاذون (الخدم والطواشية) فيستدعون منهم من يجدونه للدخول على المرضى بالقصر لجهات الأقارب والخواص، فيكتب لهم رقاعًا على خزانة الشراب، فيأخذون ما فيها وتبقى الرقاع عند مباشريها شاهدًا لهم، ولكل منهم الجاري والراتب على قدره.[٤٨]

[٤٤] زبدة كشف الممالك ص ١١٠.
[٤٥] صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٤.
[٤٦] صبح الأعشى ج ٤ ص ١٩٤.
[٤٧] صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٦٧.
[٤٨] صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٩٦.

(١٠) التوقيع بنظر البيمارستان

التواقيع بنظر البيمارستان هي المراسيم بتعيينهم في وظائفهم وسنأتي هنا ببعض صور من تلك التواقيع. وهم أي النظار من الدرجة الأولى: درجة المجلس.

نسخة توقيع لمن كان في المرتبة الأولى مرتبة المجلس العالي

> المجلس العالي القضائي العالي الفاضلي الكاملي الأوحدي فلان ... جمال الإسلام والمسلمين سيد الرؤساء في العالمين أوحد الفضلاء والمقربين خاصة الملوك والسلاطين.[٤٩]

وهذه صورة أخرى لما يكتب به من المراسيم لناظر البيمارستان لصاحب سيف كتب: توقيع شريف أن يفوض إلى المقر الكريم أو الجناب الكريم أو العالي (على قدر رتبته) الأميري الكبيري الفلاني فلان الناصري (مثلًا) أعز الله أنصاره أو نصرته أو ضاعف الله نعمته (بحسب ما يليق به) نظر البيمارستان المعمور المنصوري على أجمل العوائد وأكمل القواعد، بما لذلك من المعلوم الشاهد به الديوان المعمور على ما شرح فيه.[٥٠]

وهذه نسخة توقيع بنظر البيمارستان العتيق (الناصري) الذي رتبه السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب في بعض قاعات قصر الفاطميين وهي:

> رسم بالأمر الشريف لا زالت أيامه تفيد علاء، وتستخدم أكفاء، وتضفي ملابس النعماء، على كل علي فتكسوه بهجة وبهاء أن يستقر فلان في نظر البيمارستان الصلاحي بالقاهرة المحروسة، بالمعلوم الشاهد به الديوان المعمور إلى آخر وقت لكفاءته التي اشتهر ذكرها، وأمانته التي صدق خبرها خبرها، ونزاهته التي أضحى بها على النفس فغدا بكل ثناء مليًّا، ورياسته التي أحلت قدره أسمى رتبة، فلا غرو أن يكون عليًّا، فليباشر البيمارستان المذكور مباشرة يظهر بها انتفاعه، وتتميز بها أوضاعه، ويضحي عامر الأرجاء والنواحي، ويقول لسان حاله عند حسن نظره وجميل تصرفه: الآن كما بدا صلاحي، وليجعل

[٤٩] صبح الأعشى ج ٦ ص ١٦٨.

[٥٠] صبح الأعشى ج ١١ ص ١١٧.

همته مصروفة إلى ضبط مقبوضه ومصروفه، ويظهر نهضته المعروفة بتشمير ريعه، حتى يتضاعف مداد معروفه، ويلاحظ أحوال من فيه، ملاحظة تذهب عنهم الباس، ويراعي مصالح حاله في تنميته وتزكيته حتى لا يزال منه شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس، وليتناول المعلوم الشاهد به الديوان المعمور من استقبال تاريخه بعد الخط الشريف أعلاه.[٥١]

(١١) أرزاق الأطباء

في البيمارستان والخدمة الخاصة.

كان للأطباء على وجه العموم من لدن الخلفاء والملوك والأمراء، الإحسان الكبير والأفضال الغزيرة، والجامكية الوافرة والصلات المتواترة، وكانت تطلق للأطباء مع الجامكية الجراية وعلوفة للدابة التي يركبونها.

أما المرتبات الشهرية فكانت كما يأتي: أطباء الخاص (أي المنقطعون للخليفة أو السلطان) وكانا اثنين لكل منهما في الشهر خمسون دينارًا،[٥٢] ولمن دونهما من الأطباء وهم نحو ثلاثة أو أربعة، المقيمين بالقصر لكل واحد منهم عشرة دنانير،[٥٣] ولكل طبيب بالمارستان ما يقوم بكفايته.[٥٤]

فكان للأطباء بالمارستان على العموم جامكية خمسة عشر دينارًا، وكان لبعضهم رزقان أي ثلاثون دينارًا في كل شهر لعملين مختلفين كرضي الدين الرحبي، فقد أطلق له صلاح الدين يوسف بن أيوب في كل شهر ثلاثين دينارًا.[٥٥] ويكون ملازمًا للقلعة والبيمارستان، وبعد وفاة صلاح الدين أطلق الملك المعظم عيسى بن الملك العادل خمسة عشر دينارًا ويكون مترددًا إلى البيمارستان.

---

[٥١] صبح الأعشى ج ١١ ص ٢٦٨.

[٥٢] الدينار خمسة عشر فرنكًا فرنسيًّا ذهبًا «الخطط التوفيقية لعلي مبارك باشا ج ٤ ص ٤٦.»

[٥٣] صبح الأعشى ج ٣ ص ٥٢٥.

[٥٤] طبقات الأطباء ١٦٠ ص ٢٤٤.

[٥٥] تاريخ الحكماء لابن القفطي ص ١٤٨.

وكان لبعضهم كجبرائيل الكحال ألف درهم في كل شهر.[٥٦]

وكان لماسويه جامكية من الفضل في كل شهر ستمائة درهم وعلوفة دابته، ثم تزيد إلى ألفي درهم، ومعونة في السنة عشرة آلاف درهم وعلوفة ونزل. وممن كان يأخذ جبريل بن عبد الله بن بختيشوع، فكان يأخذ برسم الخاص ثلاثمائة درهم شجاعية.[٥٧] وبرسم البيمارستان ثلاثمائة درهم شجاعية سوى الجراية. وكان لعز الدين بن السويدي جامكية في أربع جهات:[٥٨] في البيمارستان النوري، وفي بيمارستان باب البريد في دمشق، وللتردد على قلعة دمشق، ولتدريسه في مدرسة الدخوارية.

وكان من أطباء الأمير سيف الدولة بن حمدان من يأخذ رزقين لتعاطيه علمين، ومن يأخذ ثلاثة أرزاق لتعاطيه ثلاثة علوم، وكان في جملتهم عيسى النفيس الطبيب فكان يأخذ ثلاثة أرزاق: رزقًا للنقل من السرياني إلى العربي، ورزقين آخرين بسبب علمين آخرين.[٥٩]

ولم يكن حسن موقع الأطباء لدى الخلفاء والملوك وإطلاق الجامكية الوافرة لهم بمانع من أن يشتغل بعضهم في البيمارستان احتسابًا، فقد كان كمال الدين الحمصي يتردد على البيمارستان الكبير النوري يعالج المرضى فيه احتسابًا.[٦٠]

وقد بلغ بعض الأطباء من حسن الحال ورغد العيش إلى درجة عظيمة، فقد بلغ بختيشوع في زمان الخليفة المتوكل في الجلالة والرفق وعظم المنزلة وحسن الحال وكثرة المال وكمال المروءة ومباراة الخليفة في اللباس والزي والطيب والفرش والضيافات والتفسح في النفقات مبلغًا يفوق حد الوصف.[٦١]

---

[٥٦] ابن القفطي ص ١٥٢— الدرهم يساوي قرشين مصريين أو نصف الفرنك الفرنسي الذهب تقريبًا.

[٥٧] لعلها منسوبة إلى الأمير علم الدين سنجر الشجاعي لأنه صار وزيرًا كبيرًا.

[٥٨] ابن أبي أصيبعة ج ٢ ص ٢١٦.

[٥٩] ابن القفطي ص ٢٥٠.

[٦٠] ابن أبي أصيبعة ج ٢ ص ٢٠١.

[٦١] ابن القفطي ص ١٠٢.

(١٢) كراء عملية جراحية

من المستملح أن يعرف أهل زماننا الحاضر مقدار ما كان يتناوله الطبيب في ذلك العصر السالف أجرًا لعملية أجريت لمريض، قال سليمان بن حسان: حدثني أحمد بن يونس الحراني قال:

> حضرت بين يدي أحمد بن وصيف الصابئ وقد حضر سبعة أنفس لقدح أعينهم (وهي العملية التي تعمل للماء أي الكتر كتا) وفي جملتهم رجل من أهل خراسان، أقعده بين يديه ونظر إلى عينيه فرأى ماء تهيأ للقدح، فساومه على ذلك واتفق معه على ثمانين درهمًا (أي ما قيمته جنيهان الآن) وحلف أنه لا يملك غيرهما، فلما حلف الرجل اطمأن وضمه إلى نفسه فوقعت يده على عضده فوجد فيها نطاقًا صغيرًا فيه دنانير. فقال به ابن وصيف: ما هذا؟ فتلوى فقال له ابن وصيف: قد حلفت بالله وأنت حانث، وترجوه رجوع بصرك إليك! والله لا أعالجك إذ خادعت ربك. فطلب إليه، فأبى أن يقدحه وصرف إليه الثمانين درهمًا ولم يقدح عينه.[٦٢]

(١٣) نظام المعالجة في البيمارستان

الدرس بجانب سرير المريض

كان في البيمارستان طريقان للعلاج: علاج خارجي أي أن المريض يتناول الدواء من البيمارستان ثم ينصرف ليتعاطاه في منزله، وعلاج داخلي يقيم المريض في أثنائه في البيمارستان في القسم الخاص والقاعة الخاصة بمرضه حتى يشفى.

ففي الطريقة الأولى كان الطبيب يجلس على دكة ويكتب لمن يَرِد عليه من المرضى للعلاج أوراقًا يعتمدون عليها، ويأخذون بها من البيمارستان الأشربة والأدوية التي يصفها الطبيب.[٦٣]

[٦٢] ابن أبي أصيبعة ج ٢ ص ٢٣٠.

[٦٣] ابن أبي أصيبعة ج ٢ ص ٢٤٣.

وأما العلاج الداخلي أي في داخل البيمارستان، فكان المرضى يوزعون على القاعات بحسب أمراضهم، وكان لكل قسم من أقسام البيمارستان طبيب أو اثنان أو ثلاثة أطباء،[٦٤] بحسب الساعة وكثرة المرضى، وكان إذا دعا الحال يدعى طبيب من قسم آخر غير القسم الذي فيه المريض للاستشارة.[٦٥]

وكان الأطباء يشتغلون في البيمارستان بالنوبة، فجبريل بن بختيشوع كانت نوبته في الأسبوع يومين وليلتين.[٦٦]

(١٤) الدروس الطبية (الإكلينيكية)

قال موفق الدين أبو العباس بن أبي أصيبعة:[٦٧] كنت بعد ما يفرغ الحكيم مهذب الدين والحكيم عمران من معالجة المرضى المقيمين بالبيمارستان وأنا معهم أجلس مع الشيخ رضي الدين الرحبي فأعاين كيفية استدلاله على الأمراض، وجملة ما يصفه للمرضى وما يكتب لهم، وأبحث معه في كثير من الأمراض ومداواتها ثم قال: وكان معه (أي مع مهذب الدين) في البيمارستان لمعالجة المرضى الحكيم عمران، وهو من أعيان الأطباء وأكابرهم في المداواة والتصرف في أنواع العلاج، فتضاعف الفوائد المقتبسة من اجتماعهما، ومما كان يجري بينهما من الكلام في الأمراض ومداواتها وما كانا يصفان للمرضى.

وذكر موفق الدين أبو العباس ابن أبي أصيبعة[٦٨] نقلًا عن شيخه مهذب الدين عبد الرحيم بن علي: أنه كان في البيمارستان الكبير النوري وهو يعالج المرضى المقيمين به، فكان من جملتهم رجل به استسقاء زقي قد استحكم به وقصد إلى بزله، وكان في ذلك الوقت في البيمارستان ابن حمدان الجرائحي وله يد طولى في العلاج، فجزموا على بزل المستسقى، قال: فحضرنا وبزل الموضع على ما يجب. وذكر أن أبا المجد بن أبي الحكم[٦٩] كان يدور على المرضى بالبيمارستان الكبير النوري، ويتفقد أحوالهم، ويعتبر

---

[٦٤] ابن أبي أصيبعة ج ٢ ص ٢٤٣.

[٦٥] ابن أبي أصيبعة ج ٢ ص ١٧٩.

[٦٦] ابن القفطي ص ١٤٨.

[٦٧] ابن أبي أصيبعة ج ٢ ص ٢٤٣.

[٦٨] ابن أبي أصيبعة ج ١ ص ١٧٩.

[٦٩] ابن أبي أصيبعة ج ٢ ص ١٥٥.

أمورهم، وبين يديه المشارفون والقوام لخدمة المرضى، فكان جميع ما يكتبه لكل مريض من المداواة والتدبير لا يؤخر عنه ولا يتوانى في ذلك. قال: «وبعد فراغه من ذلك يأتي فيجلس في الإيوان الكبير الذي للبيمارستان وجميعه مفروش، ويحضر كتب الاشتغال. وكان السلطان نور الدين محمود بن زنكي قد وقف على هذا البيمارستان جملة كبيرة من الكتب الطبية، وكانت في الخرستانين (الخزانتين) اللذين في صدر الإيوان، فكان جماعة من الأطباء والمشتغلين يأتون إليه ويقعدون بين يديه، ثم يجري مباحث طبية ويقرئ التلاميذ، ولا يزال معهم في اشتغال ومباحثة ونظر في الكتب الطبية مقدار ثلاث ساعات، ثم يركب إلى داره.

وكان بعض متقدمي الأطباء قد جعل له مجلسًا عامًّا لتدريس صناعة الطب للمشتغلين عليه.

وقد وقف مهذب الدين عبد الرحيم بن علي سنة ٦٢٢، الدار التي له بدمشق، وجعلها مدرسة يدرس فيها صناعة الطب، ووقف لها ضياعًا وعدة أماكن يستغل منها ما ينصرف في مصالحها، وفي جامكية المدرسة وجامكية المشتغلين بها.

ولم يكن الأطباء يغفلون النظر في أبوال المرضى، فقد كانوا يسمون ذلك القارورة، ويسمون الاستنتاج من نظر البول التفسرة، فما كان يعالج مريض دون النظر إلى قارورته، ولهم في نظرها آراء وعلامات يتعرفون منها حالة البول من صحة وسقم. ونحن نقص الحكاية الآتية للدلالة على مهارة الأطباء وقوة استدلالهم وحسن استنتاجهم من النظر في بول المريض:

أراد الرشيد أن يمتحن بختيشوع الطبيب، أمام جماعة من الأطباء فقال الرشيد لبعض الخدم: «أحضره ماء دابة حتى نجربه.» فمضى الخادم وأحضر قارورة الماء، فلما رآه قال: «يا أمير المؤمنين ليس هذا بول إنسان.» قال له أبو قريش وقد كان حاضرًا: «كذبت هذا ماء حظية الخليفة.» فقال له بختيشوع: «لك أقول أيها الشيخ الكريم، لم يبل هذا إنسان ألبتة، وإن كان الأمر على ما قلت فلعلها صارت بهيمة.» فقال له الخليفة: «من أين علمت أنه ليس ببول إنسان؟» قال بختيشوع: «لأنه ليس له قوام بول الناس، ولا لونه، ولا ريحه.» ثم التفت الخليفة إلى بختيشوع فقال له: «ما ترى أن نطعم صاحب هذا الماء.» فقال: «شعيرًا جيدًا.» فضحك الرشيد ضحكًا شديدًا، وأمر فخلع عليه خلعة

حسنة جليلة، ووهب له مالًا وافرًا، وقال: «بختيشوع يكون رئيس الأطباء كلهم، وله يسمعون ويطيعون.» [٧٠]

وكان للطبيب الحرية التامة في العمل والتجريب واستنباط الأساليب المناسبة للعلاج. وكانت التجارب تدون في كتب خاصة يقرؤها الجمهور من الأطباء، فقد كان لأبي البيان المدور المتوفى سنة ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م بالقاهرة كتاب في مجرياته في الطب، وكان للساهر يوسف القس كناش وهو ما استخرجه وجربه في أيام حياته.[٧١] ولأفرايم بن الزقان تعاليق ومجربات، ولابن العين رزبي مجربات في الطب، ولابن أبي الفضائل الناقد مجربات في الطب، ولأبي المعالي تمام بن هبة الله بن تمام تعاليق ومجربات في الطب، ولمحمد بن زكريا الرازي كتاب عنوانه (قصص وحكايات المرضى) ومنه نسخة في خزانة كتب بودليان في أكسفورد، وطبع منه الدكتور العالم المستشرق مكس مايرهوف جزءًا.

وكان لبعض الأطباء أنواع من العلاج هي من مبتكرات قرائحهم كعلاج أوحد الزمان أبي البركات هبة الله بن علي بن ملكا أحد الموسومين بالوهم،[٧٢] وفوق الهمة العظيمة والتدبير الحسن والعناية التامة براحة المرضى، فقد كان لهم من حسن الخلق وطول الأناة والتسامح مع المرضى الشيء الكثير: كان أبو الحسن سعيد بن هبة الله[٧٣] يتولى مداواة المرضى بالبيمارستان العضدي، فإنه كان يومًا بالبيمارستان، وقد أتى إلى قاعة الممرورين يتفقد أحوالهم ومعالجتهم، وإذا بامرأة قد أتت إليه واستفتته فيما تعالج به ولدًا لها فقال: «أن تلازميه بتناول الأشياء المبردة المرطبة.» فهزأ به بعض من كان مقيمًا في تلك القاعة من الممرورين وقال: «هذه صفة يصلح أن تقولها لأحد تلامذتك ممن يكون قد اشتغل بالطب وعرف أشياء من قوانينه، وأما هذه المرأة فأي شيء تدري ما هو من الأشياء المبردة المرطبة، وإنما سبيله أن تصف لها شيئًا معينًا تعتمد عليه.» فلم يتحرج الطبيب من هذا القول. وقد أوصلهم سمو الخلق وبسطة العلم إلى أعلى الدرجات. فإن القاضي ابن المرخم يحيى بن سعد صار أقضى القضاة في أيام المقفى ببغداد، وقد كان طبيبًا في المارستان المحمول وفصادًا فيه.[٧٤] والإمام العالم علامة زمانه

[٧٠] ابن أبي أصيبعة ج ١ ص ١٢٦.

[٧١] ابن أبي أصيبعة ج ١ ص ٢٠٣.

[٧٢] ابن أبي أصيبعة ج ١ ص ١٢٧ و٢٧٩.

[٧٣] ابن أبي أصيبعة ج ٢ ص ٢٥٤.

[٧٤] ابن القفطي ص ٤٠٥.

أفضل الدين أبو عبد الله محمد بن نامادار الخونجي قد تميز في العلوم الحكمية وأتقن العلوم الشرعية، وفي آخر أيامه تولى القضاء بمصر وصار قاضي القضاة بها وبأعمالها توفي سنة ٦٤٦هـ.[٧٥] وصار سعيد بن البطريق بطريركًا بالإسكندرية.[٧٦]

(١٥) تدريس الطب بالبيمارستان

وفي مدارس خاصة

ذكرنا أن طلبة الطب كانوا يتلقون علومهم على أساتذتهم في البيمارستانات إذ كانت تهيأ لهم الإيوانات الخاصة المعدة والمجهزة بالآلات والكتب أحسن تجهيز، فيقعدون بين يدي معلمهم بعد أن يتفقدوا المرضى وينتهوا من علاجهم، كما كان يفعل أبو المجد بن أبي الحكم في البيمارستان النوري الكبير. وإن بعضًا من مشايخ الطب وكبار رؤسائهم كان يجعل له مجلسًا عامًّا لتدريس صناعة الطب للمشتغلين عليه في منزله أو في المدارس الخاصة.

وذكر ابن أبي أصيبعة[٧٧] أن الفيلسوف الإمام العالم أبا الفرج بن الطيب كان يقرئ صناعة الطب في البيمارستان العضدي ويعالج المرضى فيه، وأن إبراهيم بن بكس[٧٨] كان يدرس صناعة الطب في البيمارستان العضدي لما بناه عضد الدولة، وكان له منه ما يقوم بكفايته، وأن زاهد العلماء[٧٩] ألف كتابه في الفصول والمسائل والجوابات التي أجاب عنها في مجلس العلم المقرر في البيمارستان الفاروقي.

وكان في بيمارستان أحمد بن طولون خزانة كتب كانت في أحد مجالس البيمارستان، وكان فيها ما يزيد على مائة ألف مجلد في سائر العلوم.[٨٠] وفي سنة ٦٢٢هـ/١٢٢٥م أوقف مهذب الدين عبد الرحيم بن علي بن حامد المعروف بالدخوار شيخ الأطباء

---

[٧٥] ابن أبي أصيبعة ج ٢ ص ١٢٠.
[٧٦] ابن أبي أصيبعة ج ٢ ص ٨٦.
[٧٧] طبقات الأطباء ج ١ ص ٢٣٩.
[٧٨] ابن أبي أصيبعة ج ١ ص ٢٤٤.
[٧٩] ابن أبي أصيبعة ج ١ ص ٢٥٣.
[٨٠] النجوم الزاهرة ص ٤٧٢.

ورئيسهم داره بدمشق (المدرسة الدخوارية) شرقي سوق المناخليين عند الصاغة العتيقة قبلي الجامع الأموي، ووقف لها ضياعًا وعدة أماكن يستغل منها ويتصرف في مصالحها، وفي جامكية المدرسين وجامكية المشتغلين بها، فكان إذا فرغ من البيمارستان وافتقد المرضى من أعيان الدولة وأكابرها وغيرهم، يأتي إلى داره ثم يشرع في القراءة والدرس والمطالعة، ولا بد له مع ذلك من نسخ، فإذا فرغ منه أيضًا أذن للجماعة فيدخلون عليه ويأتي قوم بعد قوم من الأطباء والمشتغلين، وكان يقرئ كل واحد منهم درسه ويبحث معه فيه، ويفهمه إياه قدر طاقته. ويبحث في ذلك مع المتميزين منهم إن كان الموضع يحتاج إلى فضل بحث أو فيه إشكال يحتاج إلى تحرير. وكان إلى جانبه ما يحتاج إليه من الكتب الطبية ومن كتب اللغة: كتاب الصحاح للجوهري والمجمل لابن فارس وكتاب النبات لأبي حنيفة الدينوري، فكان إذا جاءت في الدرس كلمة لغة يحتاج إلى كشفها وتحقيقها نظرها في تلك الكتب.

ثم مرض مهذب الدين عبد الرحيم بن علي وتوفي في يوم الاثنين الخامس عشر من شهر صفر سنة ٦٢٨هـ (٢٤ ديسمبر سنة ١٢٣٠م) ووصى[٨١] أن يكون المدرس فيها الحكيم شرف الدين علي بن الرحبي.

(١٦) افتتاح المدرسة الدخوارية[٨٢]

لما كان في يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الآخر سنة ٦٢٨هـ (١٨ فبراير سنة ١٢٣٠م) حضر الحكيم سعد الدين إبراهيم بن الحكيم موفق الدين عبد العزيز والقاضي شمس الدين الخواتيمي والقاضي جمال الدين الخرستاني والقاضي عز الدين السنجاري وجماعة من الفقهاء والحكماء، وشرع الحكيم شرف الدين أبو الحسن علي بن يوسف بن حيدرة الرحبي في التدريس بها في صناعة الطب، واستمر على ذلك وبقي سنين عدة، ثم صار المدرس فيما بعد الحكيم بدر الدين المظفر بن قاضي بعلبك، وذلك أنه لما ملك دمشق الملك الجواد مظفر الدين يونس بن شمس الدين ممدود ابن الملك العادل، كتب للحكيم بدر الدين ابن قاضي بعلبك، منشورًا برياسته على سائر الحكماء في صناعة

---

[٨١] ابن أبي أصيبعة ج ٢ ص ٢٤٤.

[٨٢] كتاب تنبيه الطالب وإرشاد الدارس عما كان في دمشق من المدارس (مخطوط).

الطب، وأن يكون مدرسًا للطب في مدرسة الحكيم مهذب الدين عبد الرحيم بن علي المعروف بالدخوار. وتولى ذلك في يوم الأربعاء رابع صفر سنة ٦٧٧هـ ثم درس بعده عماد الدين الدنيسري ومحمد بن عبد الرحيم بن مسلمة كمال الدين الطبيب المتوفى سنة ٦٩٧هـ/١٢٩٧م، والجمال المحقق أحمد بن عبد الله بن الحسين الأشقر، وقد ولي مشيخة الدخوارية، وتوفي سنة ٦٩٤هـ/١٢٩٤م، وأمين الدين سليمان بن داود الدمشقي توفي سنة ٧٣٢هـ، ثم شهاب الدين الكحال توفي سنة ٧٣٢هـ.

(١٧) إجازة الطب

كان الأطباء في أول عهد الدول الإسلامية تكتفي لمعاناة التطبيب بقراءة الطب على أي طبيب من النابهين في عصره، حتى إذا آنس من نفسه القدرة على مزاولة الصنعة باشرها بدون قيد أو شرط.

وإن أول من نظم صناعة التطبيب وقيدها بنظام خاص حرصًا على مصلحة الجمهور، هو الخليفة العباسي المقتدر بالله جعفر بن المعتضد الذي تولى الخلافة سنة ٢٩٥هـ، ففرض على من يريد معاناة التطبيب تأدية امتحان للحصول على إجازة تخوله هذا الحق بين الناس.

والسبب الذي دعا الخليفة المقتدر إلى هذا التقييد، هو ما نرويه عن لسان سنان بن ثابت رئيس الأطباء في عصره وطبيب الخليفة ومن النابهين بين الأطباء:

قال سنان بن ثابت:[٨٣] لما كان في عام ٣١٩هـ/٩٣١م، اتصل بالمقتدر أن غلطًا جرى على رجل من العامة من بعض المتطببين فمات الرجل، فأمر الخليفة أبا إبراهيم بن محمد بن أبي بطيحة المحتسب بمنع سائر المتطببين من التصرف، إلا من امتحنه سنان بن ثابت بن قرة، وكتب له رقعة بخطه بما يطلق له التصرف فيه من الصناعة. فصاروا إلى سنان وامتحنهم وأطلق لكل واحد منهم ما يصلح أن ينصرف فيه. وبلغ عددهم في جانبي بغداد ثمانمائة رجل ونيف وستين رجلًا، سوى من استغنى عن امتحانه باشتهاره بالتقدم في صناعته، وسوى من كان في خدمة السلطان. وصار النظام بعد ذلك: متى أتم الطالب دروسه يتقدم إلى رئيس الأطباء في القطر المصري، ووظيفته هي

[٨٣] ابن أبي أصيبعة ج ١ ص ٢٢٢.

أكبر وظائف الأطباء، ويطلب إليه إجازته لمعاناة صنعة التطبيب. وكان الطالب يتقدم إليه برسالة في الفن الذي يريد الحصول على الإجازة في معاناته وهذه الرسالة أشبه بما يسمى اليوم أطروحة (تيز these). وتكون هذه الرسالة له أو لأحد مشاهير الأطباء المتقدمين أو المعاصرين يكون قد أجاد دراستها، فيمتحنه فيها ويسأله في كل ما يتعلق بما فيها من الفن، فإذا أحسن الإجابة أجازه الممتحن بما يطلق له التصرف فيه من الصناعة.

ومن محاسن الصدف أني عثرت في دشت قديم في خزانة كتب أستاذنا وصديقنا العلامة أحمد زكي باشا، على صورتين لإجازتين في الطب من القرن السادس عشر الميلادي، منحت إحداهما لفصاد ومنحت الأخرى لجراح، أنقلهما هنا لكي يعلم الباحث ما كان عليه الحال في تلك العصور.

الإجازة الأولى

وهي من القرن الحادي عشر الهجري

وهذه صورة ما كتبه الشيخ الأجل عمدة الأطباء ومنهاج الألباء الشيخ شهاب الدين ابن الصابغ،[٨٤] الحنفي رئيس الأطباء بالديار المصرية إجازة للشاب المحصل محمد عزام، أحد تلامذة الشيخ الأجل والكهف الأحول الشيخ زين الدين عبد المعطي رئيس الجراحين على حفظه لرسالة الفصد كما سنبينه:

[٨٤] هو أحمد بن سراج الدين الملقب شهاب الدين المعروف بابن الصابغ الحنفي المصري الشيخ الطبيب الفاضل، أخذ العلوم من الشيخ الإمام علي بن غانم المقدسي والإمام الفهامة محمد بن محيي الدين ناصر الدين التحريري، وولده الرئيس الشهير سري الدين، وبه انتفع في الطب وتولى قديمًا تدريس الحنفية بالمدرسة البرقوقية، ومات عن مشيخة الطب بدار الشفا المنصوري (قلاوون) ورياسة الأطباء، قال الشيخ مدين: وكانت ولادته كما أخبرنا به في سنة ٩٤٥ هـ/١٥٣٨م وتوفي في ربيع الأول سنة ١٠٣٦هـ/١٦٢٦م ودفن خارج باب النصر، ولم يعقب إلا بنتًا وتولت مكانه مشيخة الطب (عن خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر ج ١).

الحمد لله ومنه أستمد العناية

الحمد لله الذي وفق من عباده من اختاره لخدمة الفقراء والصالحين، وهدى من شاء للطريق القويم والنهج المستقيم، على ممر الأوقات والأزمان إلى يوم الدين.

وبعد فقد حضر عندي الشاب المحصل شمس الدين محمد بن عزام بن ... بن ... (هنا كلمات مفقودة) على المؤذن الجرواني[٨٥] (المتشرف بخدمة الجراح والمتقيد بخدمة الشيخ الصالح بقية السلف الصالحين العارفين وشيخ طائفة الجراحين بالبيمارستان المنصوري هو الشيخ عبد المعطي المشهور بابن رسلان، نفعنا الله ببركاته ورحم أسلافه العارفين الصالحين، وعرض على جميع الرسالة اللطيفة المشتملة على معرفة الفصد وأوقاته وكيفيته وشروطه، وما يترتب عليه من المنافع المنسوبة، والرسالة المذكورة للشيخ الإمام العلامة التمام شمس الدين محمد بن ساعد الأنصاري،[٨٦] شكر الله سعيه ورحمه وأسكنه بحابيح جناته بمنه وكرمه، عرضًا جيدًا دل على حسن حفظه للرسالة المذكورة، وقد أجزته أن يرويها عني بحق روايتها وغيرها من الكتب الطبية (هذا آخر ما عثرت عليه وباقي الإجازة مفقود ضاع مع ما ضاع من نفائس الكتب العربية).

الإجازة الثانية

وهي كذلك من القرن الحادي عشر الهجري، وصادرة من رئيس الجراحين بدار الشفا المنصوري (قلاوون).

صورة ما كتبه الفقير على ذلك:

بسم الله الرحمن الرحيم

من ممد الكون أستمد العون. الحمد لله الذي جعل لهذه الأمة بالطب المحمدي شفا، وداوى علل أفهامهم بصحيح حديثه بعد ما كانوا في سقم الباطل على

[٨٥] في لب اللباب للسيوطي الجرواءاني بالضم ومد الألف نسبة إلى جرواءان محلة بأصبهان.

[٨٦] واسم الرسالة «نهاية القصد في صناعة الفصد» منها نسخة مخطوطة بدار الكتب الملكية بالقاهرة.

شفا. أحمده حمدًا يتقوى به الضعيف، وأشكره شكرًا وافيًا يكون لنا نعم العلاج عند الحكيم اللطيف. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الذي جعل الفصد والحجامة للأبدان من أنفع العلاج، إذ بهما ... (كلمة مفقودة) قف الحرارة الردية والمزاج. ونشهد أن محمدًا عبده ورسوله الذي قطع عرق الإشراك، وعلى آله وأصحابه السادة النساك، الذين جمعوا بالعلم والفصاحة بين الحكمة وفصل الخطاب، وعالجوا زمان الجهل بحسن تدبيرهم فعوفي وحفظ لهم الصحة وطاب.

وبعد فقد وقفت على هذه الرسالة العظيمة، والمقالة الكريمة، الموسومة «ببرء الآلام في صناعة الفصد والحجام» نظم لوذعي زمانه، وألمعي عصره وأوانه: الشمس شمس الدين محمد القيم شهرة، الجراح صنعة ومهرة، التي أصلها للشيخ الفاضل حاوي الفضائل الشيخ شمس الدين محمد الشربيني الجراح. لا زالت شآبيب الرحمة والرضوان على قبره غادية رائحة، وشذا العبهري والريحان من مرقده فائحة، الموسومة «بغاية المقاصد فيما يجب على المفصود والفاصد» إذ هي في هذا الفن أسمى المقاصد. وقد قرأها عليه قراءة إتقان وإمعان، وحل لمشكلات الألفاظ والمعان، فلم ير بدًّا من أن يبسطها ليتيسر حفظ تلك الفوائد، ولتسهل ضبط تلك القواعد، فجاءت بجملة أبهى من نور الأنحار، وأضوأ من نور الأسمار، كالتبر المنسبك أو القطر المنسكب. قد أجاد ناظمها في تحقيقها، وبذل الجهد في تحريرها وتدقيقها. وأتقن ألفاظ مبانيها. وغاص بحار معانيها، واستخرج الدر الثمين من أصلها، وجمع بين فصلها ووصلها، وصارت تجلى كالعروس لمعانيها. ولقد صارت في هذه الصناعة العمدة والكفاية، واعترف لها الكامل أنها المنهاج والهداية. ونسيت بها التذكرة، ولم يبق لهذا العلم تذكرة حميدة. وأحجم عندها كل مهذب بالمكنون، وصرح تاريخ الأطباء أنها نص ما في القانون. فلما ظهرت نتيجة الانتخاب في المسألة والجواب وتغذى ناظم سلكها بالخاص من اللباب، وصارت الخناصر عليها تعقد، وإن كان لساعد الأنصاري[٨٧] رسالة، فشتان رسالته

[٨٧] هو شمس الدين أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن ساعد الأنصاري المعروف بابن الأكفاني المتوفى سنة ٧٤٩هـ والرسالة تسمى نهاية القصد في صناعة الفصد.

ورسالة محمد. وكانت عين المقصود، ورقمت فيما يجب على الفاصد والمفصود، استحق راقم وشيها وناسج بردها أن يتوج بتاج الإجازة، فاستخرت الله تعالى وأجزت له أن يتعاطى من صناعة الجراح، ما أتقن معرفته ليحصل له النجاح والفلاح. وهو أن يعالج الجراحات التي تبرأ بالبط، ويقلع من السنان ما ظهر له من غير شرط. وأن يفصد من الأوردة ويبتر الشرايين وأن يقلع من الأسنان الفاسدة المسوسين (كذا) وأن يلم ما بعد من تفرق الاتصال، بقطان وغير ذلك وطهارة الأطفال. هذا مع مراجعته وخدمته لرؤساء هذا الفن المتبحرين، والمهرة الأساتذة، مع تقوى الله والنصح في الصناعة، ولا يخشى مع ذلك من كساد البضاعة. ونسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا وإياه لصالح الأعمال، في كل حال ومآل. اللهم إني أسألك من فضلك العظيم مغفرة لذنوبنا وعافية لأبداننا، لا إله غيرك، ولا مرجو إلا خيرك رب العالمين.

رقمه بقلمه أحقر عباد الفتاح الفقير للحق علي بن محمد بن محمد بن علي الجراح خادم الفقراء الضعفاء بدار الشفا بمصر المحروسة ومصليًا ومسلمًا ومحمدًا ومحوقلًا ومستغفرًا، بتاريخ صفر الخير من شهور سنة إحدى عشرة وألف (١٦٠٢م) من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام والحمد لله وحده.

(١٨) امتحان الصيادلة

وكذلك حدث في أيام الخليفة المعتصم بن الرشيد (من ٢١٨–٢٢٧هـ) أنه بينما كان الأفشين حيدر بن كاوس أحد قواد جند المعتصم في معسكره وهو في محاربة بابك سنة ٢٢١هـ، وكان معه زكريا الطيفوري الطبيب، أمره بإحضار جميع من في عسكره من التجار وحوانيتهم وصناعة كل رجل منهم. فرفع ذلك إليه، فلما بلغت القراءة بالقارئ إلى موضع الصيادلة قال الأفشين لزكريا الطيفوري: «يا زكريا ضبط هؤلاء الصيادلة عندي أولى مما تقدم فيه، فامتحنهم حتى نعرف منهم الناصح من غيره.» فقال زكريا: «إن يوسف لقوة الكيميائي قال يومًا للمأمون: إنما آفة الكيميا الصيادلة، فإن الصيدلاني لا يطلب الإنسان منه شيئًا من الأشياء كان عنده أم لم يكن، إلا أخبره بأنه عنده ودفع إليه شيئًا من الأشياء التي عنده، وقال: هذا الذي طلبت. فإن رأى أمير المؤمنين أن يضع

اسمًا لا يعرف ويوجه جماعة إلى الصيادلة في طلبه لتبتاعه فليفعل.» فقال المأمون: «قد وضعت الاسم وهو شقطيثًا وهي ضيعة تقرب من مدينة السلام،» ووجه المأمون جماعة من الرسل يسألهم عن شقطيثا، فكلهم ذكر أنه عنده وأخذ الثمن من الرسل ودفع إليهم شيئًا من حانوته، فصاروا إلى المأمون بأشياء مختلفة؛ فمنهم من أتى ببعض البذور، ومنهم من أتى بقطعة من حجر، ومنهم من أتى بوبر؛ فاستحسن المأمون نصح يوسف لقوة.

فدعا الأفشين بدفتر الأسروشنية[٨٨] فأخرج منها نحوًا من عشرين اسمًا، ووجه إلى الصيادلة من يطلب منهم أدوية مسماة بتلك الأسماء، فبعضهم أنكرها، وبعضهم ادعى معرفتها وأخذ الدراهم من الرسل، ودفع إليهم شيئًا من حانوته. فأمر الأفشين بإحضار جميع الصيادلة فلما حضروا كتب لمن أنكر معرفته تلك الأسماء منشورات أذن لهم فيها بالمقام في عسكره، ونفى الباقين عن العسكر، ولم يأذن لواحد منهم في المقام، ونادى المنادي بتفهيم وبإباحة دم من وجد منهم في معسكر. وكتب إلى المعتصم يسأله البعثة إليه بصيادلة لهم أديان ومذهب جميل ومتطببين كذلك، فاستحسن المعتصم ذلك ووجه إليه بما سأل.[٨٩]

(١٩) الحسبة

ذكرنا الحسبة لأنها في ذلك الزمن بمثابة التفتيش والرقابة في هذه الأيام على الأطباء والصيادلة.

الحسبة[٩٠] وظيفة جليلة رفيعة الشأن وموضوعها التحدث في الأمر والنهي والتحدث على المعايش والصنائع، والأخذ على يد الخارج عن طريق الصلاح في معيشته وصناعته. قال الماوردي في الأحكام السلطانية: وهو مشتق من قولك: حسبك، بمعنى اكفف، لأنه يكفي الناس مؤونة من يبخسهم حقوقهم. قال النحاس: وحقيقة المحتسب في اللغة المجتهد في كفاية المسلمين ومنفعتهم، إذ حقيقة «افتعل» عند الخليل وسيبويه بمعنى «اجتهد».

[٨٨] الأسروشنية أو الشين تقدم على السين بلدة بما وراء النهر بين سيحون وسمرقند.

[٨٩] ابن أبي أصيبعة ج ١ ص ١٥٧.

[٩٠] صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٥٢.

(٢٠) المحتسب[٩١]

هو من أرباب الوظائف الدينية الست المشهورة. وكان عندهم من وجوه العدول وأعيانهم. وكان من شأنه أنه إذا خُلِعَ عليه قرئ سجله بمصر والقاهرة على المنبر. ويده مطلقة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على قاعدة الحسبة، ولا يحال بينه وبين مصلحة أرادها ويتقدم إلى الولاة بالشد منه، ويقيم النواب عنه بالقاهرة ومصر وجميع الأعمال كنواب الحكم. ويجلس بجامعي القاهرة ومصر يومًا بيوم، قال: ورأيت في بعض سجلاتهم إضافة لحسبة بمصر والقاهرة إلى صاحبي الشرطة بهما أحيانًا.[٩٢]

(٢١) في الحسبة

على الأطباء والكحالين والجراحين والمجبرين

جاء في كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة[٩٣] خاصًّا بالأطباء وصناعتهم قال: وينبغي للمحتسب أن يأخذ عليهم عهد أبقراط[٩٤] الذي أخذه على سائر الأطباء، ويحلفهم «أن لا يعطوا أحدًا دواءً مرًّا، ولا يركبوا له سمًّا، ولا يصنعوا السمائم عند أحد من العامة، ولا يذكروا للنساء الدواء الذي يسقط الأجنة، ولا للرجال الدواء الذي يقطع النسل، وليغضوا من أبصارهم عن المحارم عند دخولهم على المرضى، ولا يفشوا الأسرار ولا يهتكوا الأستار.»، وينبغي للطبيب أن يكون عنده جميع آلات الطب على الكمال مما يحتاج إليه في صناعة الطب، غير آلة الكحالين والجراحين مما يأتي ذكره في موضعه، وللمحتسب أن يمتحن الأطباء بما ذكره حنين في كتابه المعروف بـ«محنة الطبيب»: فأما (محنة الأطباء) لجالينوس فلا يكاد واحد يقوم بما شرط عليهم.

---

[٩١] صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٧٠.

[٩٢] صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٨٧.

[٩٣] نهاية الرتبة في طلب الحسبة تأليف الشيخ الإمام العالم عبد الرحمن بن نصر الدين عبد الله الشعراوي مخطوط.

[٩٤] سيأتي ذكر عهد أبقراط بعد.

وأما الكحالون فيمتحنهم المحتسب بكتاب حنين بن إسحاق، أعني «العشر المقالات في العين»،[٩٥] فمن وجده فيما امتحنه به عارفًا بتشريح العين وعدد طبقاتها السبع، وعدد رطوباتها الثلاث، وعدد أمراضها الثلاثة، وما يتفرع من ذلك من الأمراض، وكان خبيرًا بتركيب الأكحال وأمزجة العقاقير أذن له المحتسب بالتصدي لمداواة أعين الناس، وألا ينبغي أن يفرط في شيء من آلات صنعته مثل سنانير السبل والظفرة ومحك الجرب ومباضع الفصد ودرج المكاحل وغير ذلك.

وأما كحالو الطرقات فلا يوثق بأكثرهم، إذ لا دين لهم يصدهم عن التهجم على أعين الناس بالقطع والكحل بغير علم وخبرة بالأمراض والعلل الحادثة، فلا ينبغي لأحد أن يركن إليهم في معالجة عينه ولا يثق بأكحالهم وشيافاتهم، فإن منهم من يضع أشيافًا أصلها من النشا والصمغ ويصبغها ألوانًا مختلفة فيصبغ الأحمر بالأسريقون، والأخضر بالكركم، والنيل والأسود بالقاقيا، والأصفر بالزعفران، ومنهم من يجعل أشياف ماميتا[٩٦] أو يجعل أصله من البان المصري ويعجنه بالصمغ المحلول، ومنهم من يعمل كحلًا من نوى الإهليلج المحرق والفلفل وجميع غشوش أكحالهم لا يمكن حصر معرفتها، فيحلفهم المحتسب على ذلك إذ لا يمكن منعهم من الجلوس لمعالجة ذلك.

وأما المجبرون فلا يحل لأحد أن يتصدى للجبر إلا بعد أن يحكم معرفة المقالة السادسة من كناش فولوس Pandecte de Paul d'fgine في الجبر (وهو ترجمة حنين بن إسحاق) وأن يعلم عدد عظام الآدمي وهو مئتا عظم وثمانية وأربعون عظمًا، وصورة كل عظم فيها وشكله وقدره حتى إذا انكسر منها شيء أو انخلع رده إلى موضعه على هيئته التي كان عليها، فيمتحنهم المحتسب في جميع ذلك.

وأما الجراحون فيجب عليهم معرفة كتاب جالينوس المعروف بقطا جانوس[٩٧] في الجراحات والمراهم، وأن يعرفوا التشريح وأعضاء الإنسان، وما فيه من العضل والعروق والشرايين والأعصاب، ليتجنب ذلك في وقت فتح المواد وقطع البواسير، ويكون معه دست

[٩٥] هذا الكتاب قد علق عليه الأستاذ الدكتور مايرهوف العالم المستشرق الرمدي بالقاهرة وطبع لحساب الحكومة المصرية.

[٩٦] Collyrx du suc glaucium.

[٩٧] هذا الكتاب اسمه باللاتينية De medicamentorum compositione secundum locos et genera, libri X VII.

المباضع فيه مباضع مدورات الرأس والموربات وفأس الجبهة ومنشار القطع ومجرفة الأذن وورد السلع ومرهمدان المراهم، ودواء الكندر القاطع للدم الذي قدمنا صنعته. وقد يبهرجون على الناس بعظام تكون معهم فيدسونها في الجرح ثم يخرجونها منه بمحضر من الناس، ويزعمون أن أدويتهم القاطعة أخرجتها. ومنهم من يضع مراهم من الكلس المغسول بالزيت ثم يصبغ لونه أحمر بالمغرة أو أخضر بالكركم والنيل أو أسود بالفحم المسحوق. فيعتبر عليهم العريف جميع ذلك.

(٢٢) عهد أبقراط

ذكرنا في كلامنا في الحسبة على الأطباء أن المحتسب يأخذ عليهم عهد أبقراط، قال ابن أبي أصيبعة: إن أبقراط قد وضع عهدًا استخلف فيه المتعلم لصناعة الطب على أن يكون لازمًا للطهارة والفضيلة، وهذه نسخة العهد[٩٨] قال أبقراط:

> إني أقسم بالله رب الحياة والموت وواهب الصحة وخالق الشفا وكل علاج، وأقسم باسقليبيوس وأقسم بأولياء الله من الرجال والنساء جميعًا، وأشهدهم جميعًا على أني أفي بهذه اليمين وهذا الشرط، وأرى أن المعلم لي هذه الصناعة بمنزلة آبائي وأواسيه في معاشي، وإذا احتاج إلى مال واسيته وواصلته من مالي، وأما الجنس المتناسل منه فأرى أنه مساوٍ لإخوتي، وأعلمهم هذه الصناعة إن احتاجوا إلى تعلمها بغير أجرة ولا شرط، وأشرك أولادي وأولاد المعلم لي والتلاميذ الذين كتب عليهم الشرط، وأحلفوا بالناموس الطبي في الوصايا والعلوم وسائرها في الصناعة، وأما غير هؤلاء فلا أفعل به ذلك. وأقصد في جميع التدبير بقدر طاقتي منفعة المرضى. وأما الأشياء التي تضر بهم وتدني منهم بالجور عليهم فأمنع منها بحسب رأيي. ولا أعطي إذا طلب مني دواء قتالًا، ولا أشير أيضًا بمثل هذه المشورة. وكذلك أيضًا لا أرى أن أدني من النسوة فرزجة تسقط الجنين، وأحفظ نفسي في تدبيري وصناعتي على الزكاة والطهارة، ولا أشق أيضًا عمن في مثانته حجارة، لكن أترك ذلك إلى من كانت حرفته هذا العمل. وكل المنازل التي أدخلها إنما أدخل إليها لمنفعة المرضى،

[٩٨] ابن أبي أصيبعة ج ١ ص ٢٥.

وأنا بحالة خارجة عن كل جور وظلم وفساد إرادي مقصود إليه في سائر الأشياء، وفي الجماع للنساء والرجال الأحرار منهم والعبيد. وأما الأشياء التي أعاينها في أوقات علاج المرضى أو أسمعها، أو في غير أوقات علاجهم في تصرف الناس من الأشياء التي لا ينطق بها خارجًا فأمسك عنها وأرى أن مثالها لا ينطق به.

فمن أكمل هذه اليمين ولم يفسد منها شيئًا كان له أن يكمل تدبيره وصناعته على أفضل الأحوال وأجملها، وأن يحمده جميع الناس فيما يأتي من الزمان دائمًا، ومن تجاوز ذلك كان بضده. ا.هـ.

(٢٣) الحسبة على الصيادلة

ذكرنا الحسبة على الأطباء، ونذكر كذلك الحسبة على الصيادلة لعلاقة ذلك بالطب، قال الإمام عبد الرحمن بن نصر الدين عبد الله الشيرازي:[٩٩] «تدليس هذا الباب كثير لا يمكن حصر معرفته على التمام، فرحم الله من نظر فيه، وعرف استخراج غشوشه فكتبها في حواشيه، تقربًا إلى الله تعالى، فهي أضر على الخلق من غيرها، لأن العقاقير والأشربة مختلفة الطبائع والأمزجة، والتداوي على قدر أمزجتها، فمنها ما يصلح لمرض ومزاج، فإذا أضيف إليها غيرها أخرجها عن مزاجها فأضرت بالمريض ولا محالة. فالواجب عليهم أن يراقبوا الله عز وجل في ذلك، فينبغي للمحتسب أن يخوفهم ويعظهم وينذرهم بالعقوبة والتعزير ويعتبر عليهم عقاقيرهم في كل أسبوع.» ثم ذكر المؤلف غشوشهم مما لا يتسع المقام هنا لذكرها، فنجتزئ عنها بما ذكرنا.

[٩٩] من كتاب «نهاية الرتبة في طلب الحسبة» الباب السابع (مخطوط).

بيمارستانات البلاد الإسلامية على التفصيل

الفصل الأول

بيمارستانات جنديسابور

كان هذا البيمارستان من أكبر البيمارستانات في العصر السابق على الإسلام بثلاثة قرون. وإنما ابتدأنا ذكره لأنه كان نعم المعين للعرب على إنشاء البيمارستانات بعد ذلك، وتخريج الأطباء اللازمين لها، وظل حافظًا لكيانه وشهرته عهدًا طويلًا إلى ما بعد قيام الدولة العباسية، حيث ابتدأ المسلمون ينشئون البيمارستانات في بلادهم وأمصارهم التي افتتحوها.

وجنديسابور[1] مدينة بخوزستان ويقال لها الخوز، وقد اشتهرت هذه المدينة بمدرستها الطبية وببيمارستانها اللذين أنشأهما كسرى الأول وجلب إليها المعلمين من اليونان. وتلقى التعاليم اليونانية باللغة الآرامية، ولذلك كان للسريان نصيب كبير فيهما، وكانوا أول من ساعد الخلفاء على نشر الطب في بلادهم بما تخرج منهما من الأطباء والمترجمين الذين برزوا في الفضائل. قال ابن القفطي: إن أهل جنديسابور من الأطباء فيهم حذق بهذه الصناعة، وعلم من زمن الأكاسرة. وذلك سبب وصولهم إلى هذه المنزلة.

[1] جنديسابور مدينة بخوزستان ويقال لها الخوز وهو إقليم واسع بين البصرة وفارس بناها سابور الأول الساساني بن أزدشير، وأسكنها سبي الروم الذين وقعوا في أسره إثر حربه مع الإمبراطور الروماني أورليان Ourelian ثم افتتحها المسلمون صلحًا في سنة ١٧ من الهجرة (١٦٣٨م) في أيام عمر بن الخطاب، فتحها أبو موسى الأشعري عقب احتلاله تستر. ومن جنديسابور إلى تستر ثمانية فراسخ وإلى السوس ستة فراسخ وتسمى بالسريانية بيت لاباط، ثم حرفت إلى بيل آباد ثم أخذت في الانحطاط والتدهور حتى عفا أثرها، قال ياقوت (المتوفى سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٨م) في معجمه: اجتزت بها مرارًا ولم يبق منها عين ولا أثر إلا ما يدل على شيء من آثار بائدة، وكانت مدينة خصبة كثيرة الخير وبها نخيل وزروع كثيرة.

ثم قال: ولم يزل أمرهم يقوى في العلم ويتزايدون فيه ويرقبون العلاج على مقتضى أمزجة بلادهم حتى برزوا في الفضائل، وجماعة منهم يفضلون علاجهم وطريقهم على اليونان والهند، لأنهم أخذوا فضائل كل فرقة فزادوا عليها بما استخرجوه من قبل نفوسهم، ورتبوا لهم دساتير وقوانين وكتبًا جمعوا فيها كل حسنة مما يستدل منها على فضلهم وغزارة علمهم، ولم يزالوا كذلك حتى ولي المنصور الخلافة وبنى مدينة السلام، فعرض له مرض فاستدعى منهم جورجيس بن بختيشوع ... إلخ. وكان الطلاب يؤمون معاهدها وبيمارستانها من كل حدب وصوب من البلاد المجاورة.

وكان العرب قبل الإسلام يستمدون أطباءهم من خريجي جنديسابور. واستطب النبي ﷺ والخلفاء الراشدون من بعده أطباء تخرجوا من جنديسابور كالحارث بن كلدة. واستطب خلفاء بني أمية ابن أثال الطبيب النصراني الجنديسابوري، أصفاه لنفسه معاوية بن أبي سفيان أول خلفاء بني أمية، وأبا الحكم وحكمًا الدمشقي وتياذوق وغيرهم ومن الأطباء الذين عرفوا بالعمل في هذا البيمارستان:

(١) **جورجيس بن يختيشوع:** كان رئيس الأطباء بالبيمارستان في صدر الدولة العباسية، استطبه الخليفة أبو جعفر المنصور لضعف أصابه سنة ١٤٨هـ فبرى الخليفة، فأكرم مثواه وجازاه أحسن الجزاء، وفي سنة ١٥٢ مرض جورجيس وعاد إلى جنديسابور.

(٢) **يختيشوع بن جورجيس:** كان يلحق بأبيه في معرفة صناعة الطب، وكان مقيمًا بالبيمارستان بجنديسابور، وعالج المنصور والمهدي، والرشيد في سنة ١٧١، فجعله الرشيد رئيسًا على كافة الأطباء.

(٣) **إبراهيم تلميذ جورجيس:** كان تلميذًا لجورجيس بن بختيشوع وصحبه عند معالجته للخليفة المنصور.

(٤) **سرجيس:** تلميذ جورجيس كان مديرًا للبيمارستان في غيبة أستاذه.

(٥) **عيسى بن شهلانا:** تلميذ جورجيس بن بختيشوع صحبه في ذهابه إلى بغداد لمعالجة المنصور.

(٦) **جبريل بن بختيشوع:** ابن جورجيس كان طبيبًا حاذقًا نبيلًا خدم الخليفة الرشيد ثلاثًا وعشرين سنة، ثم خدم من بعده الأمين والمأمون، مات سنة ٢١٣هـ/٨٢٨م.

(٧) **بختيشوع بن جبريل:** ابن بختيشوع كان نبيل القدر وبلغ من عظم المنزلة والحال وكثرة المال ما لم يبلغه أحد من معاصريه من الأطباء، خدم الخلفاء الواثق بالله،

ثم المستعين بالله ابني المعتصم، ثم المهتدي بالله والمتوكل على الله، فصلحت حاله، وعلت منزلته، وكثر ماله، واتسعت نفقاته إلى درجة تفوق الوصف. مات يوم الأحد لثمانٍ بقين من صفر سنة ٢٥٦هـ/ ٨٧٠م.

(٨) **سابور بن سهل:** كان ملازمًا لبيمارستان جنديسابور عالمًا بقوى الأدوية، خدم المتوكل وتوفي يوم الاثنين لتسع بقين من ذي الحجة سنة ٢٥٥هـ.

(٩) **ماسويه:** أبو يوحنا أقام ببيمارستان جنديسابور أربعين سنة، فعرف الأدواء وصار أعلم أهل زمانه بالأدوية، واتصل بالفضل بن يحيى فأوصله بعد ذلك بالخليفة هارون الرشيد ولزم خدمته.

(١٠) **دهشاك:** كان رئيسًا للبيمارستان بجنديسابور فأمره الرشيد باتخاذ بيمارستان وقلده رياسته ثم أعفاه منه.

(١١) **ميخائيل ابن أخي دهشتك:** كان مقيمًا بالبيمارستان بجنديسابور مع دهشتك.

(١٢) **عيسى بن طاهر بخت:** من أطباء البيمارستان بجنديسابور وهو تلميذ جورجيس ابن بختيشوع.

الفصل الثاني

بيمارستانات مصر

(١) بيمارستان زقاق القناديل

قيل إنه كان في الدولة الأموية مارستان[١] في زقاق القناديل دار أبي زيد. وزقاق القناديل — ويقال له زقاق القنديل — من أزقة الفسطاط. قال القضاعي[٢] إنما وسم زقاق القناديل أو القنديل لأنه كان برسم قنديل كان على باب عمرو بن العاص، وفي هذا الزقاق ولد الإمام الحافظ ابن سيد الناس صاحب السيرة[٣] المتوفى سنة ٧٣٤هـ.

(٢) بيمارستان المعافر

هذا المارستان[٤] كان في خطة المعافر[٥] التي موضعها ما بين العامر من مدينة مصر (الفسطاط) وبين مصلى خولان[٦] التي بالقرافية، بناه الفتح بن خاقان[٧] في أيام الخليفة المتوكل على الله وقد باد أثره.

---

[١] الانتصار لواسطة عقد الأمصار لابن دقماق المتوفى سنة ٨٠٩هـ ج ٤ ص ٩٩.

[٢] الانتصار ج ٤ ص ١٣.

[٣] اسمها عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير.

[٤] خطط المقريزي ج ٢ ص ٤٠٦.

[٥] هم بنو المعافر بن يعفو بن مرة بن أدد، من قبائل العرب التي نزلت هذه الجهة.

[٦] هم بنو خولان عمر بن مالك بن زيد بن عريب من القبائل التي نزلت هذه الخطة.

[٧] الفتح بن خاقان وزير المتوكل على الله وحمو أحمد بن طولون قتل معهم الخليفة في ليلة واحدة سنة ٢٤٧هـ/ ٨٦١م.

(٣) البيمارستان العتيق

ويعرف بالبيمارستان[٨] الأعلى أنشأه أحمد بن طولون في سنة ٢٥٩هـ/٨٧٢م وقيل ٢٦١هـ وذكر أن مبلغ ما أنفق عليه وعلى مستغله ستون ألف دينار. وحبس عليه سوق الرقيق وغيره، ولم يكن قبل ذلك في مصر مارستان. وشرط ألا يعالج فيه جندي ولا مملوك، وكان يشارفه بنفسه ويركب إليه يومًا في كل أسبوع.

قال أبو العباس أحمد القلشندي[٩] أول من اتخذ البيمارستان بمصر أحمد بن طولون بناه بالفسطاط وهو موجود إلى الآن[١٠] وبلغت أجرة مقعد يكرى عند البيمارستان الطولوني بالفسطاط في كل يوم اثني عشر درهمًا. وهذا المارستان[١١] كان موضعه في أرض العسكر[١٢] وهي الكيمان والصحراء التي تقع بين جامع ابن طولون وكوم الجارح[١٣] وفيما بين قنطرة السد التي على الخليج ظاهر مدينة مصر وبين السور الذي يفصل بين القرافة وبين مصر. وقد اندثر هذا المارستان في جملة ما اندثر من

---

[٨] الانتصار لابن دقماق ج ٤ ص ٩٩.

[٩] صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٣٧.

[١٠] أي إلى عصر القلقشندي المتوفى سنة ٨٢١ هـ/١٤١٨م.

[١١] خطط المقريزي ج ٢ ص ٤٠٥.

[١٢] في سنة ١٢٣هـ تولى أبو عون عبد الملك بن يزيد ولاية مصر باستخلاف صالح بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب الهاشمي. وهو أول من ولي مصر من قبل خلفاء بني العباس، ففي أيام أبي عون هذا سكنت أمراء مصر العسكر، وسببه أنه لما قدم صالح بن علي العباسي وأبو عون بجموعهما إلى مصر في طلب مروان الحمار نزلت عساكرهما الصحراء جنب جبل يشكر، الذي هو الآن جامع ابن طولون، وكان فضاء، فلما رأى أبو عون ذلك أمر أصحابه بالبناء فيه فبنوا، وبنى هو أيضًا دار الإمارة ومسجدًا عرف بجامع العسكر، وعملت الشرطة أيضًا في العسكر، وقيل لها الشرطة العليا. وإلى جانبها بنى الأمير أحمد بن طولون جامعه الموجود الآن وسمي من يومئذ ذلك الفضاء «العسكر» وصار منزلًا لأمراء مصر بعد أبي عون. وصار العسكر مدينة ذات أسواق ودور عظيمة، وفيه أيضًا بنى الأمير أحمد بن طولون بيمارستانه، وكان البيمارستان المذكور بالقرب من بركة قارون التي صارت الآن كيمانًا، وبعضها على يسار من مشى من حدرة أبي قميحة يريد قنطرة السد (النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ص ٣٦٢ طبع ليدن سنة ١٨٥٢ و٣٢٦ ج ١ طبعة دار الكتب بالقاهرة).

[١٣] هو الكوم المتصل برحبة موقف الطحانين، وكان هذا الخط من أعمر الأخطاط بالفسطاط.

الآثار ولم يبق له الآن أثر. وقال أبو عمر محمد بن يوسف الكندي[١٤] في كتاب الأمراء: وأمر أحمد بن طولون ببنيان المارستان للمرضى فبُنِيَ لهم في سنة ٢٥٩هـ/٨٧٢م.

وقال محمد بن داود في ذم أحمد بن طولون وبيمارستانه:

ألا أيـهـا الأغـفـال إيـهـا تـأمـلـوا	وهل يوقظ الأذهان غير التأمل
ألم تعلموا أن ابن طولون نقمة	تسير من سفل إليكم ومن عل
ولولا جنايات الذنوب لما علت	عليكم يد العلج السخيف المجهل
يعالج مرضاكم ويرمي جريحكم	حـبـيـش ... الـقـلـب أدهـم أعـزل
فيا ليت مارستانه نيط باسته	ومـا فـيـه من عـلـج عتلٍ مقـلـل
فكم ضجة للناس من خلف ستره	تضـج إلى قلب عن الله مغـفـل

وقال جامع السيرة الطولونية: وفي سنة ٢٦١هـ بنى أحمد بن طولون المارستان، ولم يكن قبل ذلك في مصر مارستان، ولما فرغ منه حبس عليه دار الديون ودوره في الأساكفة والقيسارية وسوق الرقيق، وشرط في المارستان ألا يعالج فيه جندي ولا مملوك، وعمل حمامين للمارستان أحدهما للرجال والآخر للنساء، حبسهما على المارستان وغيره. وشرط أنه إذا جيء بعليل تنزع عنه ثيابه ونفقته وتحفظ عند أمين المارستان، ثم يلبس ثيابًا ويفرش له ويتغذى ويراح بالأدوية والأغذية والأطباء حتى يبرأ، فإذا أكل فروجًا ورغيفًا أُمر بالانصراف وأعطي ماله وثيابه. وفي سنة ٢٦٢هـ/٨٧٥م كان ما حبسه على المارستان والعين والمسجد في الجبل الذي يسمى تنور فرعون أعيانًا كثيرة، وكان بلغ ما أنفق على المارستان ومستغله ستين ألف دينار، فكان يركب بنفسه في كل يوم جمعة ويتفقد خزائن المارستان وما فيها والأطباء، وينظر إلى المرضى وسائر المعلولين والمحبوسين من المجانين. دخل مرة حتى وقف عند المجانين فناداه واحد منهم مغلول: «أيها الأمير اسمع كلامي ما أنا بمجنون، وإنما عملت علي حيلة، وفي نفسي شهوة رمانة عريشية أكبر ما يكون.» فأمر له بها من ساعته ففرح بها وهزها في يده ورازها ثم غافل أحمد بن طولون ورمى بها في صدره فنضحت على ثيابه، ولو تمكنت منه لأتت على صدره فأمرهم أن يحتفظوا به، ثم لم يعاود بعد ذلك النظر في البيمارستان.

---

[١٤] كتاب الولاة وكتاب القضاة ص ١٦٢ طبع اليسوعيين ببيروت.

ودخل مصر في سنة ٥٧٨هـ/١١٨٢م ابن جبير[١٥] الرحالة المغربي العظيم وشاهد البيمارستان الذي بالقاهرة وقال: إنه مفخرة من مفاخر السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب وأطنب في وصفه بما سيأتي ذكره بعد. ثم قال: «وفي مصر (الفسطاط) مارستان آخر على مثل ذلك الرسم بعينه يريد مارستان أحمد بن طولون.» وقال السخاوي[١٦] إن أحمد بن طولون بنى إلى جانب جامعه البيمارستان، وكان في أحد مجالس البيمارستان العتيق أي بيمارستان أحمد بن طولون خزانة كتب كان فيها ما يزيد على مائة ألف مجلد في سائر العلوم يطول الأمر في عدتها.[١٧]

ولما آلت الدولة الطولونية إلى الزوال بخروج شيبان بن أحمد بن طولون آخر ملوكها من مصر في ليلة الخميس لليلة خلت من ربيع الأول ٢٩٢هـ ودخلها محمد بن سليمان الكاتب من قبل المكتفي بالله، أخذ الشعراء في رثائهم والتحسر عليهم فنظموا القصائد الطوال في ذلك. ومن هؤلاء الشعراء سعيد القاضي قال يرثي الدولة الطولونية (وما تركت) من جلائل الآثار في قصيدة مطلعها:

جرى دمعه ما بين سحر إلى نحر ولم يجر حتى أسلمته يد الصبر

إلى أن قال يرثي المارستان:[١٨]

ولا تنس مارستانه واتساعه وتوسعة الأرزاق للحول والشهر
وما فيه من قوامه وكفاته ورفقهم بالمعتفين ذوي الفقر

---

[١٥] رحلة ابن جبير ص ٥٢ طبع ليدن (ولد ابن جبير ببلنسية سنة ٥٤هـ/١١٤٥م وتوفي بالإسكندرية سنة ٦١٤هـ/١٢١٧م).

[١٦] تحفة الأحباب ج ٤ ص ٤ هامش نفح الطيب طبع القاهرة.

[١٧] النجوم الزاهرة ص ٤٧٢ طبع ليدن (ج ٤ ص ١٠١) طبع دار الكتب.

[١٨] كتاب الولاة وكتاب القضاة لأبي عمر محمد بن يوسف الكندي ص ٢٥٦.

فللميت المقبور حسن جهازه وللحي رفق في علاجٍ وفي جبر

وعمل أحمد بن طولون[١٩] في مؤخرة جامعه ميضأة وخزانة شراب فيها جميع الشرابات والأدوية وعليها خدم، وفيها طبيب جالس يوم الجمعة لحادث يحدث للحاضرين للصلاة.[٢٠]

من عرف من الأطباء بخدمة البيمارستان العتيق:

(١) **محمد بن عبدون** الجيلي العذري، رحل إلى المشرق ودخل البصرة وإلى مدينة فسطاط مصر، ودبر مارستانها ومهر في الطب، ورجع إلى الأندلس سنة ٣٦٠هـ، وخدم بالطب المستنصر بالله والمؤيد بالله، وكان قبل مؤدبًا في الحساب والهندسة، قال القاضي صاعد الأندلسي:[٢١] وأخبرني أبو عثمان بن البغونش الطليطلي أنه لم يلقَ في قرطبة أيام طلبه من يلحق بمحمد بن عبدون الجيلي في الطب.

(٢) **سعيد بن نوفل**[٢٢] طبيب نصراني كان في خدمة أحمد بن طولون.

(٣) **شمس الدين** محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن المصري مدرس الأطباء بجامع ابن طولون، كان فاضلًا له نظم. مات في شوال (١٧) سنة ٧٧٢هـ.[٢٣]

[١٩] خطط المقريزي ج ١ ص ٤٠٥.

[٢٠] في كتاب أسرار الحكماء لياقوت المعتصمي (ص ١٠٨ طبع الجوائب) «أن أحمد بن طولون أراد أن يكتب صكاك أحباسه التي حبسها بمصر من المسجد العتيق والمارستان، فتولى كتابة ذلك أبو حازم قاضي دمشق، فلما جاءت الصكاك أحضر علماء الشروط لينظروا هل فيها شيء يفسدها؛ فنظروا فقالوا: ليس فيها شيء. فنظر فيها أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي وهو يومئذ شاب فقال: «فيها غلط» فطلبوا منه بيانه فأبى. فأحضره ابن طولون وقال: «إن كنت لم تذكر الغلط لرسلي فاذكره لي.» فقال: «لا أفعل» قال: «ولم؟» قال: «لأن أبا حازم رجل عالم وعسى أن يكون الصواب معه وقد خفي علي.» فأعجب ذلك ابن طولون وأجازه وقال له: «تخرج إلى أبي حازم وتوافقه على ما ينبغي.» فخرج إليه فاعترف أبو حازم بالغلط. فلما رجع الطحاوي إلى مصر وحضر مجلس ابن طولون سأله فقال: «كان الصواب مع أبي حازم وقد رجعت إلى قوله.» وأسر ما كان بينهما فزاد في نفس ابن طولون قربه وشرفه. ا.هـ. وهذا غاية ما يستطيعه بشر في الاحتياط لمصلحة الوقف فانظر مقدار حرصهم واجتهادهم لتبقى أوقافهم عامرة يعم نفعها وخيرها الناس كافة.. س.

[٢١] طبقات الأمم ص ٨١.

[٢٢] حسن المحاضرة للسيوطي ج ١ ص ٣١١.

[٢٣] الدرر الكامنة لابن حجر وحسن المحاضرة للسيوطي ج ١ ص ٣١٥.

(٤) المارستان الأسفل[٢٤]

بالفسطاط أو بيمارستان كافور الإخشيد، بناه الخازن الذي عمر المقياس بالأهراء، عمره وعمر الميضأتين المرسومة إحداهما لتغسيل الموتى والسقاية، والحمامين المعروفين بحمامي بوران ... وذلك في سنة ٣٤٦هـ قال القضاعي: «إن الإخشيد أمير مصر حبس جميع ما بناه من قيسارية ودور وحوانيت على المارستان الأسفل والميضأتين والسقايتين وأكفان الموتى.» وذكر شيوخ مصر المؤرخون أن هذا المارستان كان فيه من الأزيار الصيني الكبار والبراني والقدور النحاس والهواوين والطسوت وغير ذلك ما يساوي ثلاثة آلاف دينار. ونقل إليه من المارستان الأعلى الذي بناه أحمد بن طولون أضعاف ذلك وليس به الآن[٢٥] شراب ولا دواء يلتمسه فقير، وإنما يطبخ فيه في السنة ... (كلمة غير مفهومة) يسير أكثر الضعفاء لا يصلون إليه ثم بطل ذلك.» وقال تقي الدين المقريزي: هذا المارستان بناه كافور الإخشيد، وهو قائم بتدبير دولة الأمير أبي القاسم أنوجور بن محمد الإخشيد بمدينة مصر في سنة ٣٤٦هـ ٩٥٧م.

(٥) بيمارستان القشاشين

قال القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر:[٢٦] بلغني أن البيمارستان كان أولًا بالقشاشين يعني المكان المعروف الآن (أي في زمن ابن عبد الظاهر) بالخراطين على القرب من الجامع الأزهر، وهناك كانت دار الضرب بناها مأمون البطائحي وزير الآمر بأحكام الله قبالة البيمارستان.

قال تقي الدين المقريزي[٢٧] في كلامه عن درب خربة صالح: «هذا الدرب على يسرة من سلك من أول الخراطين إلى الجامع الأزهر، كان موضعه القديم مارستانًا ثم صار مساكن، وعرف بخربة صالح، وفيه سوق الصنادقيين. وقال عن سوق الصنادقيين إنه

---

[٢٤] الانتصار لابن دقماق ج ٣ وج ٤ ص ٩٩.

[٢٥] هذا قول ابن دقماق المولود سنة ٧٥٠هـ والمتوفى سنة ٨٠٩هـ (١٣٤٩–١٤٠٦م).

[٢٦] صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٦٩.

[٢٧] الخطط والآثار ج ٢ ص ٤٠.

تجاه المدرسة السيوقية، كان موضعه القديم من جملة المارستان، فيستفاد من ذلك أن ذلك المارستان قد عفا أثره قبل محيي الدين بن عبد الظاهر.[٢٨]

(٦) بيمارستان السقطيين

كان هذا البيمارستان في سوق السقطيين خارج باب زويلة بجوار دار التفاح. قال ابن أبي أصيبعة:[٢٩]

> كان أبو الحجاج يكحل في البيمارستان بالقاهرة غير الموضع الذي صار حينئذ بالقاهرة بيمارستانًا وهو من جملة القصر، يريد أنه غير بيمارستان صلاح الدين أو البيمارستان الناصري. قال: وكان البيمارستان في ذلك الوقت في السقطيين أسفل القاهرة.
>
> الأطباء الذين عملوا في هذا البيمارستان:

(١) **شهاب الدين أبو الحجاج يوسف** الكحالي، كان يكحل في هذا البيمارستان.

(٧) البيمارستان الناصري أو الصلاحي أو بيمارستان صلاح الدين

لما ملك السلطان صلاح الدين يوسف بن يوسف بن أيوب[٣٠] الديار المصرية (سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م) واستولى على القصر قصر الفاطميين، كان في القصر قاعة بناها العزيز بالله في سنة ٣٨٤هـ/٩٩٤م فجعله السلطان صلاح الدين بيمارستانًا، وهو البيمارستان العتيق داخل القصر. وهو باقٍ على هيئته إلى الآن (أي إلى زمن القلقشندي

---

[٢٨] هو محمد بن عبد الله بن عبد الظاهر بن تشوان بن عبد الظاهر القاضي فتح الدين ابن القاضي محيي الدين الجدامي الرومي المصري المعروف بابن عبد الظاهر، صاحب ديوان الإنشاء ومؤتمن المملكة بالديار المصرية؛ مولده بالقاهرة سنة ٦٠٨هـ تفقه ومهر في الإنشاء والأدب وسار في الدولة المنصورية (قلاوون) برأيه وعقله وحسن سياسته. توفي بقلعة دمشق سنة ٦٩١هـ ودفن بسفح قاسيون (المنهل الصافي) «مخطوط.»

[٢٩] طبقات الأطباء ج ٢ ص ٢٤٧.

[٣٠] صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٠.

وكانت وفاته سنة ٨٢١هـ/١٤١٨م ويقال: إن فيها أي القاعة طِلسمًا لا يدخلها نمل، وإن ذلك هو السبب الموجب لجعلها بيمارستانًا.

وقال أبو السرور البكري[٣١] في كلامه على البيمارستان:

> قصر أولاد الشيخ من جملة القصر الكبير، وكان قاعة فسكنها الوزير الصاحب معين الدين حسين ابن شيخ الشيوخ صدر الدين بن حمويه، في أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب فعرفه به المارستان العتيق.

قال القاضي الفاضل في متجددات سنة ٥٧٧هـ/١١٨١م: «أمر السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بفتح مارستان للمرضى والضعفاء فاختير مكانًا بالقصر، وأفرد برسم من جملة الرباع الديوانية، مشاهرة[٣٢] مبلغها مائتا دينار وغلات جهتها الفيوم، واستخدم له أطباء وكحالين وجراحين وشارفًا وعاملًا وخدامًا، ووجد الناس به رفقًا وبه نفعًا.» وقال ابن عبد الظاهر: «كان البيمارستان قاعة بناها العزيز بالله سنة ٣٨٤هـ/٩٩٤م وقيل إن القرآن مكتوب على حيطانها. ومن خواصها أنه لا يدخلها نمل لطلسم بها، ولما قيل ذلك لصلاح الدين يوسف بن أيوب قال: هذا يصلح أن يكون بيمارستانًا، وسألت مباشريه عن ذلك فقالوا: صحيح.»

قال أبو الحسن محمد بن جبير[٣٣] الرحالة الأندلسي عند زيارته لمدينة القاهرة سنة ٥٧٨هـ/١١٨٢م وذلك في عهد السلطان صلاح الدين:

> «ومما شاهدناه في مفاخر هذا السلطان، المارستان الذي بمدينة القاهرة، وهو قصر من القصور الرائعة، حسنًا واتساعًا. أبرزه لهذه الفضيلة تأجرًا واحتسابًا، وعين قيمًا من أهل المعرفة، وضع له خزائن العقاقير ومكنه من استعمال الأشربة وإقامتها على اختلاف أنواعها، ووضعت في مقاصير ذلك القصر أسرة يتخذها المرضى مضاجع كاملة الكسي. وبين يدي ذلك القيم خدمة يتكلفون بتفقد أحوال المرضى بكرة وعشية، فيقابلون من الأغذية

[٣١] كتاب قطف الأزهار في الخطط والآثار مخطوط.

[٣٢] السلوك للمقريزي ص ٨٧.

[٣٣] رحلة ابن جبير ص ٥١ طبع ليدن.

والأشربة بما يليق بهم. وبإزاء هذا الموضع موضع مقتطع للنساء والمرضى، ولهن أيضًا من يكفلهن، ويتصل بالموضعين المذكورين موضع آخر متسع الفناء فيه مقاصير عليها شبابيك من الحديد اتخذت مجالس للمجانين. ولهم أيضًا من يتفقد في كل يوم أحوالهم ويقابلها بما يصلح لها. ولهم أيضًا من يتفقد في كل يوم أحوالهم ويقابلها بما يصلح لها. والسلطان يتطلع هذه الأحوال كلهم بالبحث والسؤال ويؤكد في الاعتناء بها والمثابرة عليها غاية التأكيد.»

وقال علي مبارك باشا:[٣٤] «لما تولى السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب السلطنة وفرق أماكن قصر الخلافة على أمرائه ليسكنوا فيها جعل موضعًا منها مارستانًا، وهو المارستان المشهور بالعتيق، وجعل بابه من حارة ملوخية، وهي حارة قائد القواد قديمًا وموضعه الآن الدار المعروفة بدار غمري الحصري مع ما جاورها من الدور، كما وجدنا ذلك في حجج الأملاك، وهو بآخر الحارة من جهة بابها الصغير الذي هو من جهة قصر الشوك. وأصل هذا الباب أحد أبواب القصر الكبير الشرقي وكان يسمى باب قصر الشوك، ويدخل منه إلى البيمارستان العتيق.»

الأطباء الذين عملوا في هذا المارستان:

(١) **رضي الدين الرحبي:** هو الإمام العالم رضي الدين أبو الحجاج يوسف بن حيدرة بن الحسن الرحبي، كان والده من الرحبة وكانت صناعة الكحل أغلب عليه، كان مولده بجزيرة ابن عمر سنة ٥٣٤هـ/١١٣٩م سافر إلى بغداد واشتغل بصناعة الطب، وكان وصوله إلى دمشق مع أبيه سنة ٥٥٥هـ، وكان في ذلك الوقت ملكها السلطان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي، واجتمع بالملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب فحسن موقعه عنده، وأطلق له في كل شهر ثلاثين دينارًا. ويكون ملازمًا للقلعة والبيمارستان بالقاهرة، ولما توفي صلاح الدين سنة ٥٨٩هـ/١١٩٢م عاد إلى دمشق وبقي فيها إلى أن توفي سنة ٦٣١هـ/١٢٣٣م، وعاش نحو المائة سنة. وكان من محاسن عادات رضي الدين أنه ما كان يقرب الطعام إلا إذا طلبته شهوته، وأنه كان أبدًا يتوخى ألا يصعد في سلم، وكان يصف السلم بأنه منشار العمر.

[٣٤] الخطط الجديدة ج ٢ ص ٨١.

(٢) **إبراهيم بن الرئيس ميمون:** هو أبو المنى إبراهيم بن الرئيس موسى بن ميمون منشؤه فسطاط مصر، وكان طبيبًا مشهورًا عالمًا بصناعة الطب، وكان في خدمة الملك الكامل محمد بن أبي بكر بن أيوب، ويتردد إلى البيمارستان الذي بالقاهرة من القصر ويعالج المرضى فيه. قال ابن أبي أصيبعة: «واجتمعت به في سنة ٦٣١ أو ٦٣٢هـ بالقاهرة، وكنت حينئذ أطب في المارستان، فوجدته شيخًا طويلًا نحيف الجسم لطيف الكلام. توفي سنة نيف وثلاثين وستمائة وعاش ٨٦ سنة.»

(٣) **موفق الدين أبو العباس** أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي الخزرجي المعروف بابن أبي أصيبعة. ولد بدمشق وكان متقنًا لصناعة الكحل وعمه رشيد الدين علي بن خليفة، كان كحالًا ببيمارستان دمشق. قرأ الحكمة على رضي الدين الجبلي، واجتمع بابن البيطار بدمشق سنة ٦٣٣هـ/١٢٣٥م، وشاهد معه في ظاهر دمشق كثيرًا من النبات في مواضعه. وخدم الطب في البيمارستان الذي أنشأه الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بالقصر، ثم دخل في خدمة الأمير عز الدين فرخشاه صاحب صرخد، وتوفي سنة ٦٨٨هـ/١٢٦٩م وقد جاوز السبعين.

(٤) **الشيخ السديد بن أبي البيان:** هو سديد الدين أبو الفضائل داود بن أبي البيان سليمان بن أبي الفرج إسرائيل بن أبي الطيب سليمان بن مبارك إسرائيل قراء، مولده سنة ٥٥٦هـ/١١٦٠م بالقاهرة، كان شيخًا خبيرًا بالأدوية المفردة والمركبة، وكان يعالج المرضى بالبيمارستان الناصري بالقاهرة، خدم الملك العادل أبا بكر بن أيوب وعاش فوق الثمانين.

(٥) **القاضي نفيس الدين بن الزبير:** هو القاضي نفيس الدين باسم هبة الله بن صدقة بن عبد الله الكولمي (والكولم من بلاد الهند) ولد سنة ٥٥٦هـ (١١٦٠م) قرأ صناعة الطب وأتقن صناعة الكحل وعلم الجراحة، ولاه الملك الكامل ابن الملك العادل رياسة الطب بالديار المصرية، ويكحل في البيمارستان الناصري الذي كان من جملة القصر، وتوفي سنة ٦٣٦هـ/١٢٣٨م.

(٨) بيمارستان الإسكندرية

قال تقي الدين المقريزي:[٣٥] في السابع عشر من شوال سنة ٥٧٧هـ سار السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى الإسكندرية، فدخلها في الخامس والعشرين من شهر شوال وشرع في قراءة الموطأ، وأنشأ بها مارستانًا ودارًا للمغاربة ومدرسة على ضريح المعظم توران شاه.

(٩) البيمارستان الكبير المنصوري

أو دار الشفاء أو مارستان قلاوون[٣٦]

هذا المارستان[٣٧] بخط بين القصرين[٣٨] من القاهرة، كان قاعة للسيدة الشريفة ست الملك[٣٩] ابنة العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله أبي تميم معد، وأخت الحاكم بأمر الله منصور، ثم عرف بدار الأمير فخر الدين جهاركس[٤٠] بعد زوال الدولة الفاطمية وبدار موسك[٤١] ثم صارت للملك المفضل قطب الدين أحمد ابن الملك العادل أبي بكر

[٣٥] كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك.

[٣٦] قلاوون هو الملك المنصور قلاوون الصالحي الشهير بالألفي، ملك مصر في سنة ٦٧٨هـ الموافقة ١٢٧٩ ميلادية، وسمي بالألفي لأن آق سنقر الكاملي كان قد اشتراه بألف دينار، توفي بظاهر القاهرة سنة ٦٨٩هـ/١٢٩٠م، وهو قاصد الغزو، في ذي القعدة ودفن بتربته بالقبة المنصورية داخل البيمارستان.

[٣٧] الخطط والآثار للمقريزي ج ٢ ص ٤٠٦.

[٣٨] هما القصر الكبير الشرقي الذي بناه جوهر قائد الفاطميين وفاتح مصر للمعز لدين الله الخليفة الفاطمي، وتم بناؤه سنة ٣٦٠هـ، والقصر الصغير الغربي بناه العزيز بالله أبو منصور نزار قيل إنه بني سنة ٤٥٠هـ.

[٣٩] توفيت ست الملك في مستهل جمادى الآخرة سنة ٤٢٥هـ وخلفت ثمانية آلاف جارية، ووجد في ذخائرها قطعة ياقوت أحمر زنته عشرة مثاقيل (عقد الجمان للعيني).

[٤٠] قال ابن خلكان: هو أبو المنصور جهاز ركس بن عبد الله الناصري الصلاحي الملقب فخر الدين، كان من كبار أمراء الدولة الصلاحية، وكان كريمًا نبيل القدر عالي الهمة، بنى بالقاهرة القيسارية الكبرى المنسوبة إليه. رأيت جماعة من التجار الذين طافوا البلاد يقولون لم نر في شيء من البلاد مثلها في حسنها وعظمها وإحكام بنائها، وبنى بأعلاها مسجدًا كبيرًا وربعًا معلقًا، وتوفي في شهور سنة ٦٠٨هـ بدمشق ودفن بها في جبل الصالحية، ومعنى جهاركس أربعة أنفس.

[٤١] الأمير عز الدين موسك الصلاحي من كبار أمراء الدولة الأيوبية.

بن أيوب. فاستقر بها هو وذريته فصار يقال لها الدار القطبية. ولم تزل بيد ذريته إلى أن أخذها الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفي الصالحي من الست الجليلة عصمة الدين مؤنسة خاتون القطبية ابنة الملك العادل وأخت الملك المفضل قطب الدين أحمد، وعوضت عن ذلك قصر الزمردة برحبة باب العيد في ١٨ ربيع الأول وقيل في ١٢ منه سنة ٦٨٢هـ/١٢٨٣م بمباشرة الأمير علم الدين سنجر الشجاعي[٤٢] مدير الممالك ورسم بعمارتها مارستانًا وقبة ومدرسة.

فتولى الشجاعة أمر العمارة وأظهر من الاهتمام والاحتفال ما لم يسمع بمثله حتى تم الغرض في أسرع مدة، وهي أحد عشر شهرًا وأيام. وكان ذرع هذه الدار عشرة آلاف وستمائة ذراع. وكان الشروع في بنائها مارستانًا في أول ربيع الآخر سنة ٦٨٣هـ/١٢٨٤م فأبقى القاعة على حالها وعملها مارستانًا، وهي ذات إيوانات أربعة بكل إيوان شاذوران، وبدور قاعتها فسقية يصير إليها الماء من الشاذوران. ولما نجزت العمارة وقف عليها الملك المنصور من الأملاك بديار مصر القياس والرباع والحوانيت والحمامات والفنادق والأحكار وغير ذلك، والضياع بالشام ما يقارب ألف ألف درهم في كل سنة ورتب مصارف المارستان والقبة والمدرسة ومكتب الأيتام. ووكل الأمير عز الدين أيبك الأفرم الصالحي أمير جندار في وقف ما عينه من المواضع وترتيب أرباب الوظائف وغيرهم، وجعل النظر لنفسه أيام حياته ثم من بعده لأولاده، ثم من

[٤٢] هو سنجر بن عبد الله الشجاعي المنصوري الأمير الكبير علم الدين وزير الديار المصرية ومشد دواوينها ثم نائب سلطنة دمشق، وكان رجلًا طوالًا تام الخلقة أبيض اللون أسود اللحية عليه وقار وهيبة وسكون، وكان في أنفه كبر وفي خلقه شراسة، وفي طبيعته جبروت وانتقام وعنف. وله خبرة بالسياسة والعمارة، وكان أولًا قد رُبِّيَ بدمشق عند امرأة تسمى بست قجا بجوار المدرسة المنكلانية، ثم انتقل إلى القاهرة وتعلم الخط وقراءة الأدب واتصل بالأمير عز الدين الشجاعي مشد الدواوين وإليه ينسب الشجاعي، ثم اتصل بالملك المنصور قلاوون وهو في جملة الأمراء، ولما تسلطن قلاوون تقدم سنجر المذكور عنده وجعله شاد الدواوين، ثم ولاه الوزارة بالديار المصرية، ثم ولاه نيابة دمشق ثم عزل عنها، وكان له ميل إلى الدين وتعظيم الإسلام، وهو الذي كان مشيدًا على عمارة البيمارستان المنصوري بين القصرين فتممه في مدة يسيرة، ونهض بهذا العمل العظيم وفرغ منه في أيام قلائل، وكان يستعمل الصناع والفعلة بالبندق حتى لا يفوته من هو بعيد عنه في أعلى سقالة أو غيرها، ثم عمل الوزارة في أول الدولة الناصرية محمد بن قلاوون أكثر من شهر، وحدثته نفسه بما فوق الوزارة فعصى ووقع له أمور فقتل وعلق رأسه على سور القلعة. وكانت وفاته في ٢٤ صفر سنة ٦٩٣هـ (المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي لابن تغري بردي، حوادث تلك السنة).

بعدهم لحاكم المسلمين الشافعي، فضمن وقفه كتابًا[٤٣] تاريخه يوم الثلاثاء ثالث عشر شهر صفر سنة ٦٨٠هـ/ ١٢٨١م، ٤ يونيو. ولما تكامل ذلك ركب السلطان[٤٤] وشاهده وجلس بالبيمارستان ومعه الأمراء والقضاة والعلماء، وأخبر بعض من شهد السلطان وشهد عليه أنه استدعى قدحًا من الشراب فشربه وقال: قد وقفت هذا على مثلي فمن دوني. وأوقفه السلطان على الملك والمملوك الكبير والصغير والحر والعبد والذكر والأنثى، وجعل لمن يخرج منه من المرضى عند برئه كسوة ومن مات جهزه، وكفن ودفن. ورتب فيه الحكماء الطبائعية والكحالين والجراحين والمجبرين لمعالجة الرمد والمرضى والمجرحين والمكسورين من الرجال والنساء، ورتب به الفراشين والفراشات والقومة لخدمة المرضى وإصلاح أماكنهم وتنظيفها وغسل ثيابهم وخدمتهم في الحمام، وقرر لهم على ذلك الجامكيات الوافرة وعملت التخوت والفرش والطراريح والأقطاع والمخدات واللحف والملاءات لكل مريض فرش كامل. وأفرد لكل طائفة من المرضى أمكنة تختص بهم، فجعلت الأواوين الأربعة المتقابلة للمرضى بالحميات وغيرها. وجعلت قاعة للرمد، وقاعة للجرحى، وقاعة لمن أفرط به الإسهال، وقاعة للنساء، ومكان حسن للممرورين من الرجال ومثله للنساء، والمياه تجري في أكثر هذه الأماكن. وأفردت أماكن لطبخ الطعام والأشربة والأدوية والمعاجين وتركيب الأكحال والشيافات[٤٥] والسفوفات وعمل المراهم والأدهان وتركيب الدرياقات، وأماكن لحواصل العقاقير وغيرها من هذه الأصناف المذكورة، ومكان يفرق منه الشراب وغير ذلك مما يحتاج إليه، ورتب فيه مكان يجلس فيه رئيس الأطباء لإلقاء درس طب ينتفع به الطلبة. ولم يحصر السلطان أثابه الله هذا المكان المبارك بعده في المرضى يقف عندها المباشر ويمنع من عداها، بل جعله سبيلًا لكل من يصل إليه في سائر الأوقات من غني وفقير، ولم يقتصر أيضًا فيه على من يقيم به من المرضى، بل رتب لمن يطلب وهو في منزله ما يحتاج إليه من الأشربة والأغذية والأدوية، حتى إن هؤلاء زادوا في وقت من الأوقات على مئتين غير من هو مقيم بالبيمارستان. ولقد باشرته في شوال (النويري يروي ذلك) سنة ٧٠٣هـ وإلى آخر رمضان سنة ٧٠٧هـ فكان يصرف منه في بعض الأيام من الشراب المطبوخ

[٤٣] سنأتي على ذكره مفصلًا.

[٤٤] نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري حوادث سنة ٦٨٢هـ.

[٤٥] الشيافة: الفتيلة.

خاصة ما يزيد على خمسة قناطير بالمصري في اليوم الواحد للمرتبين والطوارئ غير العسكر والمطابيخ من الأدوية، وغير ذلك من الأغذية والأدهان والدرياقات وغيرها، ورتب في البيمارستان من المباشرين والأمناء من يقوم بوظائفه وابتياع ما يحتاج إليه من الأصناف وضبط ما يدخل إلى المكان وما يخرج منه، خاصة من غير أن يكون لهم تعلق في استخراج الأموال، وإنما يبتاعون الأصناف ويحيلون بثمنها على ديوان صندوق المستخرج، ويكتبون في كل شهر عمل استحقاق لسائر أرباب الجامكيات والخزانات من سائر أرباب الوظائف والمباشرين يكتبه العامل ويكتب عليه الشهود، ويأمر الناظر بصرفه يحيلون بثمنها على ديوان صندوق المستخرج، ويصرف على حكمه وهذه الطائفة من المباشرين بالبيمارستان هم مباشرو الإدارة، وأما مباشرو الصندوق والرباع فإليهم يرجع تحرير جهات الأوقاف في الخلق والمسكون والمعطل واستخراج الأموال ومحاسبات المستأجرين وصرف الأموال بمقتضى حوالة مباشري الإدارة ومباشرة العمارة وعمل الاستحقاق، ولا يتصرفون في غير ذلك كما لا يتصرف مباشر الإدارة في صرف الأموال إلا حوالة بإرادتهم.

وأما العمارة فلها مباشرون ينفردون بها من ابتياع الأصناف واستعمال الصباغ ومرمة الأوقاف، وغير ذلك مما يدخل في وظيفتهم، وهم يحالون بأثمان الأصناف على الصندوق كما يفعل في الإدارة، وينقل عليهم من الصندوق من المال ما يصرفونه لأرباب الأجر خاصة، ويكتبون في كل شهر عمل استحقاق بثمن الأصناف وأرباب الأجر ويخصمونه بما أحالوا به على الصندوق وما وصل إليهم من المال، ويسوقونه إلى فائض أو متأخر، ويرفع كل طائفة من هؤلاء المباشرين حساباتهم مياومة ومشاهرة ومساناة إلى الناظر والمستوفي في هذا ما يتعلق بالبيمارستان.

من أين بني البيمارستان المنصوري

قال ابن دقماق:[٤٦] في سنة ٦٤٩ أمر المعز بإخلاء قلعة الروضة ولم يترك بها أحدًا. ثم إن الملك المنصور قلاوون لما أراد عمارة البيمارستان أخربها وأخذ حواصلها وعمر بها المارستان والمدرسة والتربة. وقال جلال الدين السيوطي:[٤٧] فلما تسلطن الملك المنصور

[٤٦] كتاب الانتصار لواسطة عقد الأمصار ج ٤ ص ١١٠.

[٤٧] حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢٧٠ طبع القاهرة.

قلاوون وشرع في بناء المارستان والقبة والمدرسة المنصورية، نقل من الروضة ما يحتاج إليه من العمد الصوان والعمد الرخام التي كانت قبل عمارة القلعة بالبرابي وغير ذلك. ولما تمت عمارة المدرسة والبيمارستان وكان على عمارتهما الأمير علي الدين سنجر الشجاعي، دخل عليه الشرف البوصيري فمدحه بقصيدة أولها:

أنشأت مدرسة ومارستانًا لتصحح الأديان والأبدانا

فأعجبه ذلك منه وأجزل عطاءه، ورتب في المدرسة غير الدروس الفقهية درس طب.

مرتبة نظر البيمارستان

قال أبو العباس أحمد القلشندي[٤٨] ابتنى السلطان قلاوون رحمه الله دار ست الملك أخت الحاكم المعروفة بالدار القطبية، بيمارستانًا في سنة ٦٨٣هـ ١٢٨٤م بمباشرة الأمير علم الدين سنجر الشجاعي، وجعل من داخله المدرسة المنصورية والتربة، فبقى معالم بعض الدار على ما هو عليه وغير بعضها. وهو من المعروف العظيم الذي ليس له نظير في الدنيا. ونظره مرتبة سنية يتولاه الوزراء ومن في معناهم في مسالك الأبصار: «وهو الجليل المقدار، الجليل الآثار، الجميل الإيثار، لعظم بنائه وكثرة أوقافه وسعة إنفاقه وتنوع الأطباء والكحالين والجراحين فيه.»

وقال ابن بطوطة:[٤٩] «وأما المارستان الذي بين القصرين عند تربة الملك المنصور قلاوون فيعجز الواصف عن محاسنه، وقد أعد فيه من المرافق والأدوية ما لا يحصى، ويذكر أن مجباه ألف دينار كل يوم.»

[٤٨] صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٦٩.

[٤٩] رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ٧ طبع باريس خرج ابن بطوطة من طنجة موطنه الأصلي قاصدًا الحج في سنة ٧٢٥هـ/ ١٣٢٥م ثم خطر له أن يزور بلادًا كثيرة في طريقه إلى مكة، فاتسع في سياحته وأمضى ٢٤ عامًا متنقلًا بين البلدان ومنها مصر، وكتب ما شاهده لما عاد إلى بلاده.

سبب بناء المارستان

قال تقي الدين المقريزي:[٥٠] وكان سبب بنائه أن الملك المنصور لما توجه وهو أمير إلى غزاة الروم في أيام الظاهر بيبرس سنة ٦٧٥هـ/١٢٧٦م، أصابه بدمشق قولنج عظيم، فعالجه الأطباء بأدوية أخذت له من مارستان نور الدين الشهيد، فبرأ وركب حتى شاهد المارستان فأعجب به ونذر إن آتاه الله الملك أن يبني مارستانًا. فلما تسلطن أخذ في عمل ذلك، فوقع الاختيار على الدار القطبية، وعوض أهلها عنها قصر الزمرد، وولى الأمير علم الدين سنجر الشجاعي أمر عمارته.

وذكر المؤرخون سببًا آخر في بناء المارستان، فقال ابن إياس:[٥١] إن سبب بناء المارستان هذا: أن الملك المنصور قلاوون أمر مماليكه أن يضعوا السيف في العوام لأمر أوجب تغيير خاطر السلطان عليهم، فإنهم خالفوا أمره في شيء فعل بجهلهم، فأمر بقتلهم فلعب فيهم السيف ثلاثة أيام فقتل في هذه المدة ما لا يحصى عدده، وراح الصالح بالطالح، وربما عوقب من لم يجن، فلما زاد الأمر عن الحد طلع القضاة ومشايخ العلم إلى السلطان وشفعوا فيهم، فعفا عنهم وكف عنهم القتل، فلما جرى ما جرى وراق خاطر السلطان ندم على ما فعله، وبنى هذا المارستان وجعل له جملة أوقاف على رواتب بر وإحسان، وفعل من أنواع الخير ما لم يفعله غيره من الملوك ليكفر الله عنه ما فعله بالناس، لعل الحسنات تذهب السيئات كما قال الله تعالى.

وعابوا المارستان[٥٢] لكثرة عسف الناس في عمله، وذلك أنه لما وقع اختيار السلطان على عمل الدار القطبية مارستانًا، ندب الطواشي حسام الدين بلالًا المغيثي للكلام في شرائها، فساس الأمر في ذلك حتى أنعمت مؤنسة خاتون ببيعها، على أن تعوض عنها بدار تلمها وعيالها، فعوضت قصر الزمرد برحبة باب العيد مع مبلغ من المال حمل إليها. ووقع البيع على هذا، فندب السلطان الأمير سنجر الشجاعي للعمارة، فأخرج النساء من القطبية من غير مهلة، وأخذ ثلاثمائة أسير، وجمع صناع القاهرة ومصر وتقدم إليهم بأن يعملوا بأجمعهم في الدار القطبية، ومنعهم أن يعملوا لأحد في المدينتين

---

[٥٠] الخطط والآثار ج ١ ص ١١٦.

[٥١] بدائع الزهور ج ١ ص ١١٦.

[٥٢] الخطط والآثار للمقريزي ص ٤٠٧.

شغلًا وشدد عليهم في ذلك، وكان مهابًا، فلازموا العمل عنده، ونقل من قلعة الروضة ما احتاج إليه من العمد الصوان والرخام والقواعد والأعتاب والرخام البديع وغير ذلك. وصار يركب إليها كل يوم وينقل الأنقاض المذكورة على العجل إلى المارستان، ويعود إلى المارستان فيقف مع الصناع على الأساقيل حتى لا يتوانوا في عملهم، وأوقف مماليكه بين القصرين، وكان إذا مر أحد ولو رجل ألزموه أن يرفع حجرًا ويلقيه في موضع العمارة، فينزل الجندي والرئيس عن فرسه حتى يفعل ذلك، فترك أكثر الناس المرور هناك.

استمرار تعهد البيمارستان المنصوري بالعمارة والإصلاح

وفي عهد الملك الناصر محمد بن المنصور قلاوون في سنة ٧٢٦هـ حصل[٥٣] الشروع في إصلاح البيمارستان المنصوري والقبة والمدرسة، وكان الأمير جمال الدين آقوش الأشرفي ناظر الأوقاف قبل ذلك، كان قد رسم أن لا يترك أحدًا من المرضى بالبيمارستان ومن عوفي أو أبل يخرج منه، فخلت بذلك الأواوين من المرضى وأكثر القاعات، ولم يبق بالبيمارستان إلا الممرورون وبعض المرضى، وحصل الشروع في العمارة فأصلحت الجدران وجدد البياض والأدهان ونحت ظاهر القبة والمدرسة والمئذنة بالأزاميل، واستمرت العمارة إلى أواخر جمادى الأولى دخلت الأواوين الأربعة بالبيمارستان من مستهل هذه السنة إلى يوم الثلاثاء حادي عشر جمادى الأولى، فرسم في هذا اليوم بتنزيل المرضى، وكانوا جملة ما صرف على هذه العمارة تقارب ستين ألف دينار.

وقال المقريزي:[٥٤] «في يوم الاثنين سادس شعبان سنة ٧٢٦هـ أنشأ الأمير جمال الدين آقوش نائب الكرك قاعة بالبيمارستان المنصوري ونحت جدر البيمارستان والمدرسة المبنية بالحجر كلها داخلًا وخارجًا، وطرا (طلا) الطراز الذهب من خارج القبة والمدرسة حتى صار كأنه جديد، وعمل خيمة يزيد طولها على مائة ذراع وركبها لتستر على مقاعد الأقفاص وتستر أهلها من الحر، ونقل الحوض من جانب باب المارستان لكثرة تأذي الناس برائحة النتن، وعمل موضعه سبيل ماء عذب لشرب الناس، وكان مصروف ذلك كله من ماله دون مال الوقف.»

[٥٣] نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري حوادث سنة ٧٢٦.

[٥٤] السلوك في معرفة دول الملوك ج ٢ ص ٢٦١.

وقال الفيومي:[٥٥] «كان الأمير الكبير جمال الدين آقوش الأشرفي في أثناء توليته نظر البيمارستان المنصوري، يحسن إلى المرضى ويتفقد أحوالهم في الليل ويتنكر ويدخل إليهم قبل الفجر ويسأل الضعفاء عن سائر أحوالهم حتى عن الفراش والطبيب. ويدخل إلى مارستان المجانين ويباشر أحوالهم بنفسه ويتحدث معهم، ولا يغفل عن مصلحة تتعلق بمباشرته.» وقال خالد البلوي[٥٦] عن مارستان القاهرة في عصره يريد المارستان الكبير المنصوري: أخبرني الشيخ العالم المؤرخ شمس الدين الكركي أنه يكحل فيه كل يوم من المرضى الداخلين إليه والناقهين الخارجين أربعة آلاف نفس، وتارات يزيدون وينقصون، ولا يخرج منه كل من يبرأ من مرض حتى يعطى إحسانًا إليه وإنعامًا: كسوة للباسه، ودراهم لنفقاته، وأما ما يعالج المرضى به من قناطير الأشربة المقطرة والأكحال الرقيقة الطيبة التي تسحق فيها دنانير الذهب الإبريز، وفصوص الياقوت النفيس، وأنواع اللؤلؤ الثمين، فشيء يهول السماع، ويعم ذلك الجمع، إلى ما يضاف إلى ذلك كله من لحوم الطير والأغنام على اختلافها وتباين أصنافها، مع ما يحتاج إليه كل واحد ممن يوافيه ويحل فيه، لفرشه وعرشه من غطاء ووطاء ومشموم ومزرور، وشبه ذلك مما هو مُعَد على أكمله هنالك، وما ليس مثله إلا في منزل أمير أو خليفة، وقد رتب على ذلك كله من الأطباء الماهرين والشهود المبرزين والنظار العارفين والخدام المتصرفين، كل من هو في معالجته موثوق بعدالته، مسلم له في معرفته، غير مقصر في تصرفه وخدمته. ولو استقصيت الكلام في هذا المارستان وحده لكان مجلدًا مستقلًا بنفسه، أو في مبانيه الرائقة وصناعاته الفائقة وتواريخه المذهبة ونقوشه العجيبة المنتخبة التي ترفل في ملابس الإعجاب وتسحر العقول والألباب ما يفتن النفوس، ويكسف أنواع البدور والشموس وتعجز عن وصف بعضها خطا الأقلام في ساحة الطروس، فما وقعت عين على مثله ولا سمعت أذن بشبهه وشكله:

---

[٥٥] نثر الجمان في تراجم الأعيان للفيومي حوادث سنة ٧٣٦هـ (توفي الأمير آقوش في يوم الأحد ٧ جمادى الأولى سنة ٧٣٦هـ).

[٥٦] تاج المفرق في تحلية أهل المشرق لأبي البقاء خالد البلوي الأندلسي قاضي قنتورية Cantoria وهي رحلته إلى الحجاز مشحونة بالفوائد والفرائد خرج فيها من بلده بالمغرب يوم السبت ١٨ صفر سنة ٧٣٦هـ، ومر بالقاهرة فوصف ما شاهده فيها، وهي مخطوط بخزانة كتب المرحوم أحمد تيمور باشا رحمه الله.

تجاوز حد الوهم واللحظ والمنى   وأعشى الحجا لألاؤه المتضاري
فتنعكس الأفكار وهي خواسر   وتنقلب الأبصار وهي خواسي

وفي يوم الاثنين[٥٧] ٣ صفر سنة ٧٤٣ استقر الأمير جنكلي بن البابا في نظر البيمارستان عوضًا عن الجاولي.

وفي يوم الخميس[٥٨] ١١ ربيع الأول سنة ٧٤٣هـ وقعت منازعة بين الأمير جنكلي بن البابا وبين الضياء المحتسب بسبب وقف الملك المنصور على القبة المنصورية، فإنه أراد إضافته إلى المارستان وصرف متحصله في مصارف المارستان فلم يوافقه الضياء، واحتج بأن لهذا مصرفًا عينه واقفه لقراء وخدام، ووافقه القضاة على ذلك.

وفي المحرم[٥٩] من سنة ٧٤٧هـ خلع على الأمير أرغون العلائي، واستقر في نظر البيمارستان المنصوري عوضًا عن الأمير جنكلي بن البابا، فنزل إليه وأعاد جماعة ممن قطعهم ابن الأطروش بعد موت الأمير جنكلي. وأنشأ بجوار باب المارستان سبيل ماء ومكتب سبيل لقراءة أيتام المسلمين القرآن الكريم ووقف عليه وقفًا بناحية من الضواحي.

وفي ١٤ محرم ٥٢٥هـ خلع السلطان الملك الصالح الحسن بن محمد ابن قلاوون[٦٠] على الضياء يوسف الشامي وأعيد إلى حسبة القاهرة ونظر المارستان عوضًا عن ابن الأطروش، بسفارة النائب لكلام نقله ابن الأطروش عن الوزير فسبه وأهانه وتحدث في عزله وعود الضياء.[٦١] فعرض الضياء حواصل المارستان فلم يجد فيها شيئًا وكتب بذلك أوراقًا وأوقف النائب عليها، فنزل النائب معه إلى المارستان، واستدعى القضاة وأرباب الوظائف بالمارستان، وأحضر ابن الأطروش وطلب كتاب الوقف وقرأه حتى وصل فيه القارئ إلى قوله عن الناظر «القيم»: «ويكون على وفاء بالحساب وأمور الكتابة.» فقال

[٥٧] السلوك للمقريزي ج ٢ ص ٦٦٤.

[٥٨] السلوك في معرفة دول الملوك للمقريزي ج ٢ ص ٦٦٧.

[٥٩] السلوك ج ٢ ص ٧٥٩.

[٦٠] السلوك ج ١ ص ٩١٢.

[٦١] هو ضياء الدين يوسف بن أبي بكر بن محمد الشهير بالضياء ابن خطيب بيت الأبار الشامي ناظر المارستان والوقف (السلوك ج ٢ ص ٤٠١).

الضياء لابن الأطروش: «قد سمعت ما شرطه الواقف فيك وأنت عامي مشهور ببيع الخرائط لا تدري شيئًا مما شرط الواقف. وناوله ورقة حساب ليقرأها، فقام إليه بعض الفقهاء وقال: هذا معه تدريس وإعادة، وأنا أسأله عن شيء فإن أجاب استحق المعلوم. وأخذته الألسنة من كل جهة فقال النائب: «يا قوم هذا رجل عامي وقد أخطأ وما بقي إلا الستر عليه.» فاعترف أنه لا يدري الحساب وأنه عاجز عن المباشرة وألزم نفسه ألا يعود إليها أبدًا بإشهاد وكتب فيه قضاة القضاة ونوابهم يتضمن قوارع مشنعة، وما زال النائب بأخصامه حتى كفوا عنه. ثم قام لكشف أحوال المرضى فوجدت فرشهم قد تلفت ولها ثلاث سنين لم تغير فسد النائب خلله وانصرف.

وفي شهر ذي القعدة سنة ٧٥٥هـ في عهد السلطان الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون خلع السلطان على الأمير صرغتمش، واستقر في نظر المارستان المنصوري وكان قد تعطل نظره من متحدث ترك، وانفرد بالكلام فيه القاضي علاء الدين بن الأطروش وفسد حال وقفه، فإنه كان يكثر من مهاداة أمراء الدولة ومديريها ويهمل عمارة رباعه حتى تشققت، فنزل اليه الأمير صرغتمش ودار فيه على المرضى فساءه ما رأى من ضياعهم وقلة العناية بهم، فاستدعى القاضي ضياء الدين يوسف بن أبي بكر محمد بن خطيب بيت الأبار الشامي وعرض عليه التحدث في المارستان كما كان عوضًا عن ابن الأطروش، فامتنع من ذلك، فما زال به حتى أجاب وركب إلى أوقاف المارستان بالمهندسين لكشف ما يحتاج إليه من العمارة؛ فكتب تقدير المصروفات ثلاثمائة ألف درهم ومنع من يتعرض لهم وانصلحت أحوال المرضى أيضًا.

وفي شعبان سنة ٩٠٢[٦٢] أمر السلطان الملك الناصر أبو السعادات محمد بن الأشرف قايتباي (وكان الخليفة وقتئذ المتوكل على الله العباسي) بأن تقطع الحيات التي تصنع في البيمارستان بحضرته حتى يتفرج عليها، فأحضروها بين يديه بقاعة البحرة فقطعت بحضرته وهو ينظر إليها وخلع على رئيس الطب شمس الدين القوصوني وولده والحاوي الذي أحضر الحيات وآخرين.

وفي سنة ١١٩٠هـ/١٧٧٦م جدد الأمير عبد الرحمن كتخدا[٦٣] المارستان المنصوري وهدم أعلى القبة الكبيرة المنصورية والقبة التي كانت بأعلى الفسحة من خارج، ولم يعد

[٦٢] بدائع الزهور في وقائع الدهور لابن إياس ج ١ ص ٣٥٠ طبع اسطنبول.

[٦٣] عجائب الآثار في التراجم والأخبار لعبد الرحمن الجبرتي ج ٢ ص ٦ طبع بولاق.

عمارتها بل سقف قبة المدفن فقط، وترك الأخرى مكشوفة. ورتب له أرزاقًا وأخبازًا زيادة على البقايا القديمة، ولما عزم على ترميمه وعمارته أراد أن يحتاط بجهات وقفه فلم يجد له كتاب وقف[٦٤] ولا دفترًا، وكانت كتب أوقافه ودفاتره في داخل خزانة الكتب فاحترقت بما فيها من كتب العلم والمصاحف ونسخ الوقفيات والدفاتر. ووقفه يشتمل على وقف الملك المنصور قلاوون الكبير الأصلي ووقف ولده الملك الناصر محمد بن قلاوون ووقف ابن الناصر أبي الفداء إسماعيل، وغير ذلك من مرتبات الملوك من أولادهم، ثم إنه وجد دفترًا من دفاتر الشطب المستجدة من بعض المباشرين وذلك بعد الفحص والتفتيش، فاستبدل به على بعض الجهات المحتكرة. وفي خطط مصر التي وضعتها الحملة الفرنسية على مصر من سنة ١٧٩٨ إلى سنة ١٨٠١ قال المسيو جومارا Gomara أحد العلماء الذين استقدمهم نابليون مع الحملة: أنشئ في القاهرة منذ خمسة قرون أو ستة، عدة مارستانات تضم الأعلاء والمرضى والمجانين، ولم يبق منها سوى مارستان واحد هو مارستان قلاوون، تجتمع فيه المجانين من الجنسين. ومارستان القاهرة هذا لا يزال أكثر شهرة من مارستان دمشق، وقد كان في الأصل مخصصًا للمجانين ثم جعل لقبول كل نوع من الأمراض، وصرف عليه سلاطين مصر مالًا وافرًا، وأفرد فيه لكل مرض قاعة خاصة وطبيب خاص، وللذكور قسم فيه منعزل عن قسم الإناث. وكان يدخله كل المرضى فقراء وأغنياء بدون تمييز، وكان يجلب إليه الأطباء من مختلف جهات الشرق ويجزل لهم العطاء، وكانت له خزانة شراب «صيدلية» مجهزة بالأدوية والأدوات. ويقال إن كل مريض كانت نفقاته في كل يوم دينارًا، وكان له شخصان يقومان بخدمته. وكان المؤرقون من المرضى يعزلون في قاعة منفردة يشنفون فيها آذانهم بسماع ألحان الموسيقى الشجية أو يتسلون باستماع القصص يلقيها عليهم القصاص، وكان المرضى الذين يستعيدون صحتهم يعزلون عن باقي المرضى ويمتعون بمشاهدة الرقص، وكانت تمثل أمامهم الروايات المضحكة، وكان يعطى لكل مريض حين خروجه من المارستان خمس قطع من الذهب، حتى لا يضطر إلى الالتجاء إلى العمل الشاق في الحال. وبنى السلطان قلاوون المدرسة التابعة للمارستان في المكان الذي هي فيه في الوقت الحاضر، وكان يدرس فيها الطب والفقه.

[٦٤] خطط مصر ج ١٨ ص ٣١٩ Description de l'egypte الطبعة الثانية.

وقال بريس دافن Prisse d'avennes[٦٥] كانت قاعات المرضى تدفأ بإحراق البخور أو تبرد بالمراوح الكبيرة الممتدة من طرف القاعة إلى الطرف الثاني، وكانت أرض القاعات تغطى بأغصان شجر الحناء أو شجر الرمان أو شجر المصطكي أو بعساليج الشجيرات العطرية. وكان البلسان[٦٦] يؤتى به من عين شمس إلى المارستان لعلاج المرضى. وقد كان يصرف من الوقف على بعض أجواق تأتي كل يوم إلى المارستان لتسلية المرضى بالغناء أو بالعزف على الآلات الموسيقية. ولتخفيف ألم الانتظار وطول الوقت على المرضى كان المؤذنون في المسجد يؤذنون في السحر وفي الفجر ساعتين قبل الميعاد حتى يخفف قلق المرضى الذين أضجرهم السهر وطول الوقت. وقد شاهد علماء الحملة الفرنسية هذه العناية بأنفسهم.

وجاء في هذه الخطط أيضًا: إن هذا البناء الذي كان فيما غبر من الأيام ملجأ مفتوحًا في الشدائد، قد اضمحلت حالته بعد ذلك، وزالت عنه السعادة الأولى التي كان يرفل في حلاها، أو بعبارة أخرى كاد لا يبقى منه غير ظله بسبب ظلم الترك والمماليك وإهمالهم، ولا سيما تبديد أمواله.

وعندما دخله المسيو جومار كان عدد المرضى فيه خمسين أو ستين عدا المجانين، وكانوا يسكنون قاعات الدور الأرضي مفتوحة من كل جانب، وليس بها أسرة أو أثاث. وكان المجانين يشغلون قسمًا آخر من البناء منقسمًا إلى قاعتين، لكل من الزوجين قاعة خاصة. وكان عدد المجانين عشرة يسكنون حجرات مقفلة بشبابيك الحديد وفي رقابهم السلاسل، وكان بينهم نوبيان أحدهما فتى مسرور محتبس منذ ثلاث سنين والثاني عبد للألفي بك (أحد أمراء المماليك) احتبس منذ أربعة شهور، ورجل سري يعتريه الجنون

---

[٦٥] Prisse d'avennes: L'Art Arabe; les monuments du caire Paris 1877.

[٦٦] جاء في كتاب بدائع الزهور في وقائع الدهور لابن إياس حوادث سنة ٩١٤هـ: ومن النوادر أن البلسان، وهو الذي يسمونه البلسم، كان قد انقطع زريعته من أرض المطرية في أوائل سنة ٩٠٠هـ، وكانت مصر تفتخر بذلك على سائر البلاد، وكانت ملوك الفرنج تتغالى في دهن هذا البلسم ويشترونه بثقله ذهبًا ولا يتم عندهم التنصر حتى يضعوا من دهنه شيئًا في ماء المعمودية وينغمسون فيه، وكان يستخرج دهنه في فصل الربيع في برمهات. فلما انقطعت زريعته من أرض المطرية تنكر السلطان لذلك، ولا زال يفحص عن أمره حتى أحضر إليه بلسان بري من بعض أماكن الحجاز وهو في طينه، فزرعه في المطرية في مكانه المشهور به، فنتج وطلع لما سقي من ماء تلك البئر التي هناك، فنتج في هذه السنة وطلع ما كان قد بطل أمره من مصر، فعد ذلك من محاسن الملك الأشرف قانصوه الغوري.

في كل شهر مرة، وآخر معه زوجته إلخ، وكانت النساء عرايا أو أشبه بالعرايا، وهذا البناء المتسع متصل بمسجد السلطان المنصور قلاوون. وقد أمر القائد العام الفرنسي رئيس الأطباء في الحملة بزيارة المارستان وتقديم تقرير عن حالته وعن الإصلاح اللازم له، فتوجه إليه المسيو ديجانت Degeanette مستصحبًا معه الشيخ عبد الله الشرقاوي، وهاك ما جاء في تقريره قال: توجهت اليوم إلى الشيخ عبد الله الشرقاوي فصحبني إلى المارستان، وربما كنت أول مسيحي وطئت قدمه أرض ذلك المكان. فعندما دخلنا رأيت مظاهر الاحترام التي جرت العادة أن تقدم لمثل هذا الشيخ، ولكن كان يشوبها الشعور بقلق ربما كان سببه وجودي بينهم، ثم فرش بساط جلس فوقه الشيخ ثم تكلم بكلام أدركت منه أنه يلقي عليهم موضوع مهمتي، وأنه يأمرهم بمعاونتي على تأديتها.

فالمارستان مكان متسع رديء الموضع يسع في المتوسط مائة مريض، وفيه في الوقت الحاضر سبعة وعشرون مريضًا، وأربعة عشر مجنونًا سبعة رجال وسبع نسوة. وفي المرضى كثير من العميان وأكثرهم مصاب بالسرطان، وبعضهم أنهكته الأمراض العضالة المتروكة من غير علاج، وجميعهم من غير إسعاف سوى توزيع الغذاء عليهم، وهو من الخبز والأرز والعدس، وهم لا يتصورون أن في الإمكان تخفيف أوجاعهم، وهم بتركهم هكذا تحت رحمة الأقدار لم يعرفوا قط حتى أبسط الأدوية. ويقيم المجانين في ناحيتين منعزلتين في إحداهما ثماني عشرة حجرة للرجال وفي الأخرى ثماني عشرة للنساء. وقد رأيت الرجال مصابين بالبرد والمالنخوليا وأكثرهم مسن، ورأيت فتى فقط كان في حالة هياج، فكان يزأر كالأسد ثم انتقل فجأة إلى هدوء أعقبه ابتسام ودهشة. وحجر النساء ليست كلها محاطة بشبابيك الحديد، وكانت النساء كلهن مصفدات ولكنهن غير مثبتات في الجدران كالرجال، وإحدى هاته النسوة وهي طاعنة في السن تقدمت نحوي حتى وسط الحوش وهي تبكي وتطلب إحسانًا، وكانت الأخيرات متحجبات حتى لم يمكن أن ألحظ شيئًا من ملامحهن. ووقف الذين اصطحبوني في كل مكان على باب هذه الدايرة، وكانت امرأتان تحرسان بابها الداخلي محجبتان على الدوام ومتجهتان بوجوههما إلى الجدار أثناء زيارتي، وكانت هناك فتاة صغيرة جميلة قاعدة القرفصاء ووجهها وجسمها يكادان يكونان عاريين، فلما لمحتني داخلًا فرحت كثيرًا وسلمت علي مرارًا بحني رأسها ووضع يديها المغلولتين فوق صدرها، وكانت تتكلم بنشاط، ولكني لم أفهم منها غير كلمة سنيور، وكانت تعيدها مرارًا ولكنها غريبة عن لسانها.

ولقد شككت في كونها مجنونة لأن ظلم الرجال كثيرًا ما زج بالعقلاء في هذه المحال المحزنة.

على أن شكوك الطبيب وهو الذكي الفؤاد كان لها أساس من الصحة، فقد علمنا بعد ذلك أن هذه الفتاة الشقية الحظ قد أطلق سراحها، ولكن الذين زجوا بها في هذا المكان لم ينلهم عقاب.

وبعد أن زرت كل شيء بالعناية التامة لحقت بالشيخ الذي كان ينتظرني بالمسجد الذي هو من البيمارستان، فوجدته يصلي أمام التربة الفخمة المدفون فيها الملك الناصر محمد بن قلاوون الذي أعد هذا المكان لأيام الشدائد.

وجاء في الخطط أيضًا:[٦٧] أنه كان للبيمارستان وقف كافٍ للصرف عليه، وكانت له عدا ذلك مصادر أخرى متعددة للإيراد مثل الترياق المعمول به في القاهرة، فقد كان محتكرًا له ومخصصًا إيراده للصرف على البيمارستان.

وقال فيجري بك[٦٨] كان هذا المارستان قد أخذ في الاضمحلال ففتحه جنتمكان [أي ساكن الجنة] الحاج محمد علي باشا، ورتب له مبلغًا من الدراهم أيضًا يصرف على الفقراء والمساكين الذين يأتون إليه.

وفي أواسط القرن التاسع عشر الميلادي زار القاهرة العالم الأثري الألماني جورج ايبرس Georges Ebers[٦٩] وكتب عن مارستان قلاوون وما تنقله هنا فقال: إنه موجود في سوق النحاسين وهم يشتغلون في قاعاته، ولقد تخرب ولم يبق منه سوى تربة مؤسسه يأتي إليها المرضى يزورون مخلفات السلطان بقصد الشفاء: فيمسون عمامته لشفاء أوجاع الرأس، وقفطانه للشفاء من الحميات المتقطعة، وتجتمع الشابات من النساء والأمهات ومعهن أولادهن فتطلب الواحدة منهم في القبلة من الله أن يرزقها ولدًا ذكرًا لأهمية الذكور عند الوطنيين، فلا تكون المرأة سعيدة إذا لم ترزق ولدًا ذكرًا. فتأتي النساء أمام القبلة فينزعن اللباس عن أنفسهن ويغطين وجوههن بأيديهن، ويقفزن من ناحية من نواحي القبلة إلى الناحية الأخرى بخطوة واحدة ويكررن القفز مرارًا

---

[٦٧] الخطط الفرنسية ج ١٨ ص ٣٢٤.

[٦٨] كتاب حسن البراعة في علم الزراعة ج ٢ ص ١٦٧ طبع سنة ١٣٨٣هـ/١٨٦٦م بولاق.

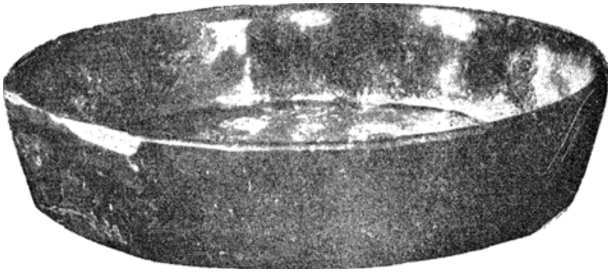
[٦٩] Georges Ebers: L'egypte Alexandrie et Le Carie Traduction Gaston Maspero. Paris 1880.

حتى ينهكهن التعب، حتى لقد ترى بعضهن من التعب ممددة ومطروحة فوق الأرض مغمى عليها حتى تفيق من غشيتها، وكان كثير من النسوة يأتي بالأطفال الصغار حتى قبل أن تقوى على المشي أجسامهم، ويطلب فك عقدة ألسنتهم. وكانت النساء تأتي بالأطفال إلى حجر أسود عريض بقرب الشباك الذي إلى اليمين وتعصر ليمونة خضراء فوق الحجر، وتفرش العصارة فوق الحجر وتحكه بحجر آخر صغير، حتى إذا تلون حامض الليمون باللون الوردي الناشئ من الحجر الأسود الحديدي، تحمل الأطفال على لحسه فتتألم الأطفال من حموضة الليمون، وتصيح صارخة بأصواتها، فتسر الأم لسماعها صياح طفلها، وكلما علا صوته من شدة الحموضة أيقنت الأم بتمام المعجزة وشفاء ابنها وانفكاك عقدة لسانه. وللنساء اعتقاد خاص في عمودي القبلة وجزأيهما السفليين، وهما مغطيان بطبقة تجعل منظرهما سمجًا بسبب عصارة الليمون.

وفي دار الآثار العربية طبق كبير من العقيق ارتفاعه عشرة سنتيمترات وقطره خمسة وأربعون سنتيمترًا وبه ثمانية عشر ضلعًا من الخارج. وشكل الطبق ينم على كونه روماني الأصل، ربما يكون قد أهداه أحد ملوك الروم إلى السلطان الملك المنصور قلاوون أو إلى ابنه الملك الناصر محمد، وقد رجح ذلك حضرة الباحث المحقق حسين راشد أمين دار الآثار العربية. وكان هذا الطبق أولًا ببيمارستان قلاوون ثم نقل إلى دار الآثار حفظًا له وصيانة من التلف أو الضياع لنفاسته وندورته. وأرجح أن هذا الطبق هو الذي كان يعصر فيه الليمون ويحك بحجر آخر حتى يحمر السائل ثم يرغم الطفل على لحسه. وأما قفزة النسوة أمام القبلة كما ذكر إيبرس، فالراجح أيضًا أن النسوة كن يضعن الطبق أمام القبلة ثم يخطون فوقه سبع مرات فكًّا لعقمهن وطلبًا للحبل، وهذه عادة مشهورة في مصر من تخطي أي شيء غريب جملة مرات من أجل الحبل وهذه صورة الطبق:

وفي سنة ١٨٥٦ كان البيمارستان المنصوري قد بلغ الغاية من الاضمحلال وهجره المرضى ولم يبق به سوى المجانين، فنقلت منه المجانين[٧٠] إلى ورشة الجوخ ببولاق، ولم يكن بهذا المحل الاستعداد اللازم لذلك، وكانوا غير معتنى بهم فأنشئ مستشفى للمجاذيب في بعض السراي الحمراء التي أنشأها الخديوي إسماعيل باشا بالعباسية ثم أحرقت، وكان نقل المجاذيب من ورشة الجوخ ببولاق إلى العباسية سنة ١٨٨٠م.

[٧٠] خطط مصر لعلي باشا مبارك ج ١ ص ٩٦.



شكل ٢-١: طبق من العقيق وجد في بيمارستان قلاوون.

وقال بريس دافن الذي زار القاهرة في ذلك العصر ووصف البيمارستان في كتابه: إنه قد حصلت تغييرات عديدة في أبنيته في عصور مختلفة، ولا سيما قد نقلت المجانين منه إلى غيره من الأمكنة، فقد تصرف المشرفون عليه بتأجير قاعاته للسكن، فصار كأنه وكالة وصارت مرافقه مخازن لصناع النحاس وتجاره وقال: إن درس هذا المارستان الكبير له أهمية عظمى في تاريخ العمارة العربية حيث لم يبق الآن بناء مثله من عصره.

وبعد أن انتقلت المجانين من بيمارستان قلاوون إلى ورشة الجوخ ببولاق تحول حال البيمارستان، فبعد أن كان خاصًّا بالمجانين عاد إلى ما كان عليه في السابق من معالجة سائر الأمراض، وكان يتولى العلاج فيه ويدير شئونه أطباء كيفما كانوا، حتى تولى شئونه الدكتور حسين عوف بك، وكان من خيرة الأطباء المتعلمين فن الطب طبقًا للنظام العلمي الحديث. وكان الدكتور حسين عوف هذا طبيبًا كحالًا فطنًا، فتولى علاج أمراض العيون فيه هو ثم ابنه الدكتور محمد عوف باشا مساعدًا له أولًا ثم متوليًا لشئونه من بعده. ومن هنا أخذ البيمارستان يكون خاصًّا بأمراض العيون إلى اليوم، وممن عمل في هذا البيمارستان بعدهم الدكتور محمد بكير بك والدكتور محمد أمين بك. وفي سنة ١٨٩٥ عين الدكتور سعد سامح بك الطبيب الكحال مديرًا للبيمارستان ورئيسًا لأطبائه، ثم أحيل إلى المعاش في يناير سنة ١٩١٢ ثم خلفه في رياسة البيمارستان الدكتور محمد شاكر بك إلى شهر مارس سنة ١٩١٥. وفي أبريل سنة ١٩١٥ تولى رياسة البيمارستان الدكتور محمد طاهر بك إلى شهر نوفمبر سنة

١٩١٨، حيث خلفه في الرياسة الدكتور سالم هنداوي بك، ولا يزال إلى الآن متوليًا رياسة المارستان وكبير أطبائه، ويعاونه في علاج الرمد نحو عشرة أطباء آخرون.

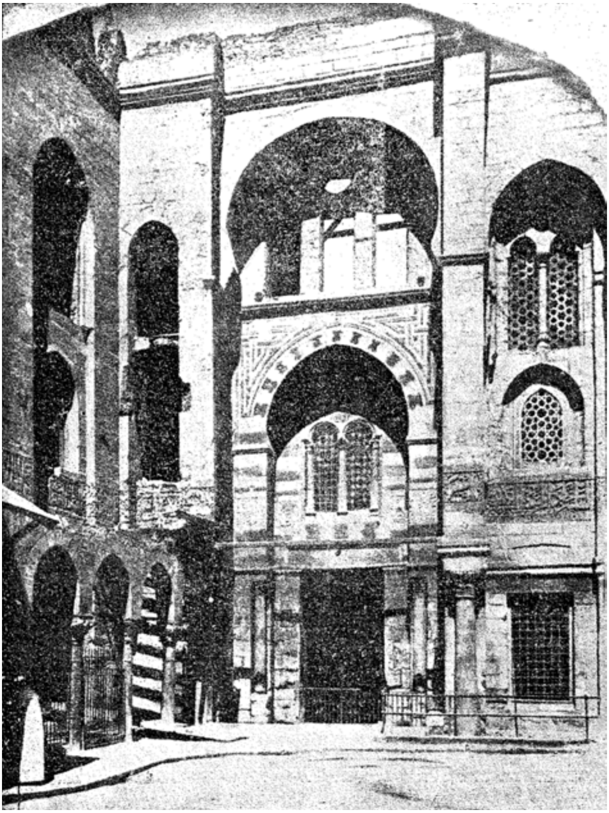
الآثار الباقية من البيمارستان المنصوري (قلاوون)

لعبت بالبيمارستان المنصوري يد الزمان، فأصبح أثرًا بعد عين وعفت آثاره، وزالت معالمه، ولم يبق منه سوى النزر اليسير من رسومه ومرافقه. ولما كانت لجنة حفظ الآثار العربية هي المنوط بها المحافظة على مثل هذه الآثار القيمة والعناية بما أبقته يد التخريب رأينا أن نأتي هنا بما كتبه المؤرخ المهندس العالم مكس هوتزبك كبير مهندسي اللجنة، عن حال المارستان الحاضرة منقولًا عن محاضر جلساتها المندرجة في مجموعتها السابعة والعشرين الصادرة في سنة ١٩١٠م صفحة ١٤١[٧١] قال:

المارستان المنصوري هو من أهم عمائر الفن العربي في مصر ولم يبق منه في الوقت الحاضر إلا بقايا نادرة هي:

(١) جزء من الإيوان الشرقي وفسقية من الرخام Bassin والقاعة القبلية وبعض ألواح منقوشة في سقف الإيوان البحري، وتدل التحلية الجبسية Ofnement en platre في بعض النوافذ التي لا تزال موجودة على حالها في الردهة الشرقية وأعمال الفسيفساء في الفسقية، على أن زخارف المارستان لم تكن تقل نفاسة عن زخارف التربة التي هي أسلم بناء حفظ للآن من أبنية قلاوون، وتوجد في آخر ردهة المارستان القديم الملاصقة للإيوان الغربي من المسجد، ولا تزال جهتان من حافته مكسوتين بخطوط من الرخام الملون، وقاع الفسقية مغطى بالفسيفساء الدقيقة الصنع جدًّا ولا تزال سليمة، وهي مكونة من جزأين: فراغ مستطيل مسطح في وسط جزء مربع مجوف. وكان الماء يأتي إلى الفسقية كما يكون في الفساقي العمومية يخرج من جدار القاعة بأنبوب ثم يجري فوق لوح من الرخام كالسلسبيل في الفساقي العمومية. والبناء المسند فوقه لوح الرخام لا يزال قائمًا.

[٧١] Comite de conservation des monuments de l’art Arabe exercice 1910 fassicale 2 eme p. 141.



شكل ٢-٢: الباب الكبير لبيمارستان قلاوون.

واللوحة الخامسة عشر من كتاب بسكال كوست[٧٢] تبين صورة البيمارستان. وفي اللوحة التالية قطاع أفقي للبيمارستان مار بردهة البيمارستان التي في وسطها

[٧٢] Cost (Pascal) — Architecture arabe ou monuments du kaire, measures et dessines de .1818 a 1825. Paris 1839

الفسقية، وقد اعتمد المؤلف على كثير من الأصول لإعادة تخطيط البيمارستان، وعلى الأقل



شكل ٢-٣: الفسقية والسلسبيل.

المعالم الكبير منه فعدد ٢٥ في الرسم المذكور يدل على الردهة المسماة قاعة الناقهين من الرجال، والفسقية مبينة فيه بعدد ٤٣ وهكذا. ويخرج من الفسقية قناة تخترق القاعة بطولها، وهذا النظام يشبه مثيله في قصر الحمراء وفي قصر زيزا.



شكل ٢-٤: تخطيط أساسات بيمارستان قلاوون نقلًا عن بسكال كست.

والمظنون أن هذا النظام كان شائعًا في القصور في جميع البلدان الإسلامية. وقد أفاض المقريزي في الكلام عن معلومات قيمة عن هذا البيمارستان الذي يعد أشهر مارستان في العصور الوسطى، وذكر الشاذوران jet d’eau الذي فيه والفسقية التي تعد المثل الوحيد من نوعها.

وفي سنة ١٩٠٥ صحت عزيمة لجنة حفظ الآثار العربية على الاحتفاظ بالأجزاء القديمة التالية:[٧٣]

(١) بقايا الإيوان الشرقي حيث توجد فيه ثلاثة منافذ بزخرفها، ونظرًا لحالة التلف القائمة بهذا الإيوان يجتهد في حالة تعذر الاحتفاظ بأجزائه القيمة في أماكنها في أن تنقل إلى المتحف، وألا يكتفي بعمل قوالب منها بالملاط اجتنابًا لتهدمها التدريجي بفعل الزمن.

(٢) قوس الإيوان الجنوبي وزخارفه الجبسية النفيسة.

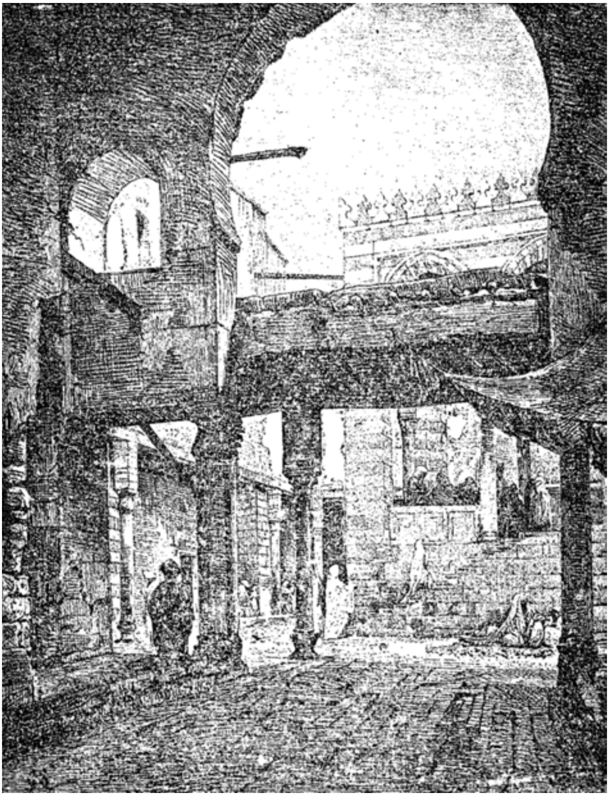
(٣) الإيوان الغربي ولا سيما طرف هذا الإيوان حيث توجد زخارف مغطاة بطلاء حديث.

(٤) الإيوان الشمالي المطل على الحوش الوسطاني: لم يحتفظ بشكله الأصلي ولا يزال قوسه الكبير موجودًا، ولكن سد جزء منه للمساعدة على تثبيت ثلاث أقواس بالبناء بالحجر المنحوت خلافًا للموجود في الإيوانات الأخرى التي هي مبنية جميعها بالطوب الأحمر. ولو أن اختلاف مادة البناء هذا دليل واضح على أن الإيوان الشمالي جدد بناؤه فإن القسم الفني يرى مع ذلك وجوب الوصاية بالاحتفاظ به.

(٥) القاعة الكبرى المربعة في جنوب المارستان المذكورة في تقرير عدد ٣٤١، والتي تشمل على عمد من الرخام وأقواس عني بتشابهها بعضها لبعض، وقد كشفت حديثًا بعناية كبير مهندسي اللجنة.

ويرى القسم الفني أنه يتعذر الاحتفاظ بهذه القاعة بسبب بعدها من مجموعة الأجزاء المهمة في هذا الأثر والتي سبق ذكرها، إلا إذا ألحقت كما هي بالبناء الجديد للمستشفى، وفي حالة تعذر إلحاق هذه القاعة بالبناء الجديد تنقل من مكانها الحالي ويعاد بناؤها في حوش جامع الحاكم.

[٧٣] Rapport de la section technique. Exercice 1906 fascicule 23 eme page 7.



شكل ٢-٥: قوس الإيوان الجنوبي. «من كتاب هرتز باشا».

الكتابات الأثرية في البيمارستان المنصوري

فوق الباب المعد للدخول إلى المدرسة والقبة والمارستان الكتابة الآتية:

(١) أمر بإنشاء هذه القبة الشريفة المعظمة والمدرسة المباركة والبيمارستان المبارك، مولانا السلطان الأعظم الملك المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون الصالحي. وكان ابتداء

عمارة ذلك في ربيع الآخر سنة ثلاث وثمانين وستمائة والفراغ منه في جمادى الآخرة سنة أربع وثمانين وستمائة.

وعلى فخذي باب الدخول أسفل البوابة الكبرى، لوحان من الرخام ملصقان على ارتفاع مترين من الأرض على يمين الباب ويساره، سعة كل منهما ٧٠ في ٧٠ سنتيمترًا ومنقوش عليهما الكتابة الآتية المركبة من سبعة سطور بالخط النسخي الملوكي والحرف الدقيق، وهي كثيرة النقط قليلة الحروف اللينة وصورتهما واحدة إلا اختلافًا قليلًا وهذا نصها:[٧٤]

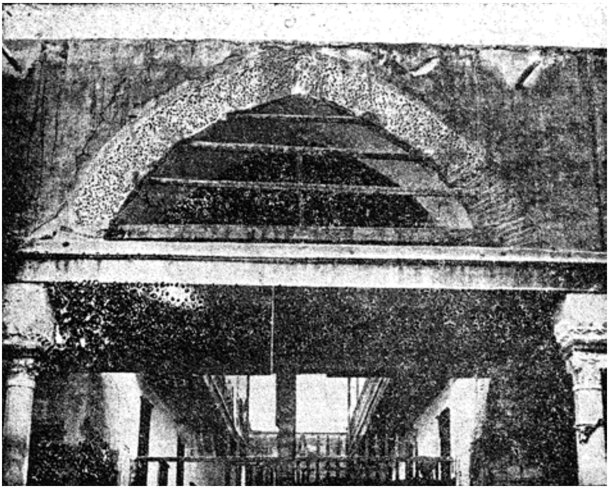
> الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله، لما كان بتاريخ يوم الاثنين سابع عشر ذي الحجة سنة ٧٩١ في نظر المقر السيفي فان تمر، عز نصره، برز المرسوم الشريف السلطاني الملكي المنصوري الصالحي خلد الله ملكه، أن ينعم على مستحق ربع وقف البيمارستان المنصوري ما يخص بيت المال السلطاني من إرث من يتوفى من أرباب وظائفه ومباشريه وسكان أوقافه نعمة مستمرة على الدوام والاستمرار، لا يتغير حكمها ولا يندرس رسمها، ولعنة الله على من يسعى في تبديله أو إبطاله ﴿فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾.

الأعيان التي كانت موقوفة على البيمارستان المنصوري

الأعيان التي كانت محبوسة على المارستان المنصوري كثيرة وقد تغيرت معالمها وباد الكثير منها بطول الزمن وتغير الدول وكثرة القلاقل والفتن، ولم يبق منها إلى اليوم إلا القليل جدًّا بحيث لا يكفي للقيام بالصرف على المارستان كشروط واقفه. وسنذكر تلك الأعيان التي كانت موقوفة ومكان وجودها، نقلًا عن مؤرخي ذلك العصر، للدلالة على ما كان عليه المارستان من الشهرة والعظمة. ولقد يأتي الكثير من ذلك أيضًا عندما ننقل القسم الخيري من الوقفية الأصلية.

---

[٧٤] Max van Berchem: materiaux pour un corpus inscriptionum arabicorum tome XIX tassicale II Egypt 1896 p. 128 et 134.



شكل ٢-٦: الإيوان القبلي من بيمارستان قلاوون. «نقلًا عن ماكس هرتز».

فمن الأوقاف بمدينة الفسطاط:

(١) **قيسارية الصبانة بالفسطاط:**[٧٥] هذه القيسارية من الأوقاف المنصورية (قلاوون) على مصالح البيمارستان المنصوري بالقاهرة.

(٢) **فندق الملك السعيد بالفسطاط:**[٧٦] وهو فندق كبير يعلوه ربع كبير عمر في أيام الملك السعيد محمد بن بركة خان، ثم ملكه قلاوون الألفي وهو اليوم (أي في زمن المؤرخ ابن دقماق المتوفى سنة ٨٠٩) وقف على المارستان المنصوري وكراؤه في كل شهر نحو الألفي درهم.

[٧٥] الانتصار لواسطة عقد الأمصار لابن دقماق ج ٤ ص ٣٨.

[٧٦] الانتصار لابن دقماق ج ٤ ص ٤٠.

وبالقاهرة:

(٣) **حمام الساباط:**[٧٧] قال ابن عبد الظاهر: «كان في القصر باب يعرف بباب الساباط، كان الخليفة في العيد يخرج منه إلى الميدان وهو الحرنشف (الخرنفش الآن) إلى المنحر لتنحر فيه الضحايا ويعرف هذا الحمام في زماننا (أي زمن المقريزي المتوفي سنة ٨٤٩هـ ١٤٤١م) بحمام المارستان المنصوري، وهذا الحمام هو حمام القصر الصغير الغربي ويعرف أيضًا بحمام الصنيعة، فلما زالت الدولة الفاطمية من القاهرة بيع هذا الحمام جملة مرار، فلما تملكه الملك المنصور قلاوون وأنشأ المارستان الكبير المنصوري صارت فيما بعد فيما هو موقوف عليه، وهي الآن من أوقافه.»

(٤) **قيسارية المحلى وقيسارية الضيافة وقف المارستان المنصوري.**[٧٨]

(٥) **قيسارية الفاضل:**[٧٩] هذه القيسارية على يمنة من يدخل من باب زويلة عرفت بالقاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني، وهي الآن في أوقاف المارستان المنصوري.

(٦) **سوق القفيصات:**[٨٠] (بصيغة الجمع والتصغير جمع قفص) فإنه كان معدًّا لجلوس أناس على تخوت تجاه شبابيك القبة المنصورية، وفوق تلك التخوت أقفاص صغار من حديد مشبك، فيها الطرائف من الخواتيم والفصوص وأساور النسوان وخلاخيلهن وغير ذلك، وهذه الأقفاص يأخذ أجرة الأرض التي عليها مباشرة المارستان المنصوري.

(٧) **سوق الكتبيين:**[٨١] أحدثت بعد سنة ٧٠٠ يحيط بها سوق الأمشاطيين وسوق النقليين، وهما بين المدرسة الصالحية والصاغة، وجميع ذلك جار في أوقاف المارستان المنصوري.

---

[٧٧] المقريزي ج ٢ ص ٨٠.

[٧٨] المقريزي ج ٢ ص ٨٦.

[٧٩] المقريزي الخطط والآثار ج ٢ ص ٨٩.

[٨٠] المقريزي ج ٢ ص ٩٧.

[٨١] المقريزي ج ٢ ص ٨٩.

صورة من حال البيمارستان المنصوري في بعض عصوره

بعض من تولى النظر على البيمارستان

إن السلطان قلاوون حينما أوقف البيمارستان جعل النظر عليه في حياته لنفسه ثم لأولاده من بعده ثم من بعدهم لحاكم المسلمين الشافعي.

وسنأتي في هذا الفصل بذكر بعض الذين تولوا النظر على البيمارستان في عصور مختلفة من حياته، لبيان ما كان عليه البيمارستان من المكانة والعظمة، فمن تولى النظر عليه:

(١) **علي بن عبد الواحد**[٨٢] بن أحمد بن الخضر الشيخ علاء الدين الحلبي نزيل دمشق، كان شيخًا كبيرًا متميزًا من رؤساء الدولة الناصرية خدم في الجهات وولي نظر البيمارستان المنصوري وغيره وتوفي سنة ٦٩٧هـ.

(٢) **محمد بن علي**[٨٣] بن محمد بن محمد بن علي بن عثمان الشيخ شمس الدين أبو عبد الله بن الفاضل نور الدين أبي الحسن البدرشي ثم القاهري، المولود بالقاهرة سنة ٧٨٨هـ، اختص بجاني بك الصوفي وباشر البيمارستان في أيامه وعلا كلامه وعظم أمره، مات يوم الاثنين في ١٧ شوال سنة ٨٤٦هـ.

(٣) **محمود بن محمد**[٨٤] بن علي بن عبد الله قاضي القضاة جمال الدين أبو الثناء القيصري الرومي الأصل العجمي الحنفي، قاضي قضاة الديار المصرية وناظر جيوشها وشيخ الشيخونية، باشر عدة وظائف كالتدريس في الصرغتمشية وغيرها والخطابة بمدرسة السلطان برقوق ونظر البيمارستان المنصوري توفي ليلة الأحد في ٧ ربيع الأول سنة ٧٩٩.

(٤) **علي بن عبد الله بن محمد الأمير علاء الدين بن الطبلاوي**[٨٥] نسبة إلى قرية بالمنوفية بالوجه البحري تسمى طبلاه، نشأ بالقاهرة من جملة العوام إلى أن مات عمه

---

[٨٢] المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي لابن تغري بردي ج ٢ ص ٤٠٨ مخطوط.

[٨٣] التبر المسبوك في ذيل السلوك للسخاوي ص ٥٨.

[٨٤] المنهل الصافي لابن تغري بردي.

[٨٥] المنهل الصافي ج ٢ ص ٤٠٧.

بهاء الدين الطبلاوي، وكان تاجرًا بقيسارية جهاركس بالقاهرة، وله مال فورثه بنو عمه علي هذا وغيره، فلما صار متمولًا سعى إلى أن صار مشد القصر السلطاني بقلعة الجبل، ثم ولي شد البيمارستان المنصوري، ولا يزال يتقرب عند الملك الظاهر برقوق حتى أدخله في غالب أشغاله وصار له كلمة في الدولة، ثم غضب عليه السلطان لأمور صدرت منه ثم نفي إلى الكرك وقتل بغزة سنة ٨٠٢هـ.

(٥) **محمد بن أحمد بن عبد الملك القاضي شمس الدين الدميري**[٨٦] المالكي ولي حسبة القاهرة في الأيام الأشرفية شعبان بن حسين ثم ولي بعد ذلك غير مرة، وولي نظر الأحباس ونظر البيمارستان المنصوري وقضاء العسكر على مذهب الإمام مالك رضي الله عنه. ولم يزل ينتقل في الوظائف إلى أن توفي يوم الاثنين ٩ رمضان سنة ٨١٣هـ.

(٦) **علي بن مفلح القاضي نور الدين**[٨٧] ناظر البيمارستان المنصوري ووكيل بيت المال بالأطباق بالقلعة وعد من رؤساء الناس، وتوفي يوم الجمعة ١٢ ذي الحجة سنة ٨٤١هـ.

(٧) **محمد بن محمد بن محمد بدر الدين بن شمس الدين الدميري**[٨٨] ثم القاهري، كان جده ناظر البيمارستان وولي الحسبة واستمر هذا في مشارفة المارستان، مات في رمضان سنة ٨٤٦هـ.

(٨) **محمد بن محمد بدير بن بدر الدين العباسي المعروف بالعجمي**[٨٩] زوج أخت البدر الدميري ورفيقه في مشارفة البيمارستان، مات في شوال سنة ٨٤٦هـ.

(٩) في يوم الاثنين ثاني شهر ربيع الآخر سنة ٨٥٠ استقر المولوي السفطي[٩٠] في نظر البيمارستان المنصوري بعد عزل المحبي ابن الأشقر ولبس الخلعة لذلك، وفي يوم الخميس خامس ربيع الآخر انتقض الأمر وألبس المحبي خلعة الاستمرار في اليوم المذكور.

---

[٨٦] المنهل الصافي.

[٨٧] المنهل الصافي ج ٢ ص ٤٥٠.

[٨٨] التبر المسبوك في ذيل السلوك للسخاوي ص ٦٠.

[٨٩] التبر المسبوك ص ٥٩.

[٩٠] التبر المسبوك ص ١٤٤.

(١٠) في يوم الأربعاء سلخ شهر ذي الحجة ٨٥١هـ طلع القاضي الشافعي[٩١] إلى السلطان بأربعة عشر ألف دينار من حاصل البيمارستان، فعرضها عليه فشكره على ذلك، وغفل عن كونه لم يعمل فيه بمراد الواقف، بل حجر في تنزيل المرضى وغيره، وأمره بمسح دهاليزه وكنسه وعدم التمكين من المشي فيه بالنعال، حتى أنشدني الشيخ أبو عبد الله الراعي لنفسه:

مرستانكم يشكو الخلاء وما به	من الكنس والمسح الذي ليس ينفع
وناظره إذ جار في حكمه له	فيمنعه المرضى ومع ذا يجعجع
بتعميره قفرًا مضيعًا فيا له	خليًا من المرضى ولكن مقرقع
أواوينه مأوى الكلاب لتعجبوا	ولا رمد فيها ولا متوجع
وبلدتنا مملوءة من مريضنا	فلا عينه تهمي ولا القلب يخشع
يمشي مريض العين بالباب حافيًا	فويق بلاط صار للعين يقلع
فنسال ربي أن يفرج كربنا	ويرحم مرضانا وذو الجور يرفع[٩٢]

(١١) في يوم الاثنين ٣ جمادى الآخرة سنة ٨٥٤هـ خلع على الشرفي الأنصاري باستقراره في نظر البيمارستان والخانقاه الصلاحية سعيد السعداء والجوالي والكسوة ووكالة بيت المال.[٩٣]

(١٢) محمد بن أحمد بن يوسف بن حاج القاضي ولي الدين[٩٤] السفطي المولود سنة ٧٩٠هـ، قرره السلطان في نظر البيمارستان المنصوري سنة ٧٤٩هـ، فازداد وجاهة وعزًّا واجتهد في عمارته وعمارة أوقافه والحث على تنمية مستأجراته وسائر جهاته حتى الأحكار، وما نسب إليه من الآثار مع التضييق على مباشريه والتحري في المريض المنزل فيه بحيث زاد على الحد وقل من المرضى فيه العدد، وتحامى الناس المجيء إليه بأنفسهم أو بمرضاتهم، فصار بذلك مكنوسًا ممسوحًا. ومنع الناس من المشي إلا

[٩١] التبر المسبوك ص ١٨٧.

[٩٢] هذا الشعر ركيك للغاية ولا يكاد يكون شعرًا ولكنه صورة صحيحة لذلك العصر.

[٩٣] التبر المسبوك ص ٣١٩.

[٩٤] التبر المسبوك ص ٣٣٥ والضوء اللامع للسخاوي.

حفاة، وحجر في كل ما أشرت إليه غاية التحجير، فاجتمع في الوقف بسبب هذا كله من الأموال ما يفوق الوصف، وفيه نوع شبه بما سلكه الشمس محمد بن أحمد بن عبد الملك الدميري في المارستان أيضًا وإن لم يبلغ حد صاحب الترجمة ولا كاد، وقد تعرض لصنيعه في ذلك أبو عبد الله الراعي في نظمه كما سيأتي.

(١٣) في شهر صفر من سنة ٩٠١هـ **خلع على الأتابكي تمراز**[٩٥] وقرر في نظر البيمارستان المنصوري، فتوجه إلى هناك في موكب حافل وسلطان العصر في ذلك الوقت الملك الأشرف أبو النصر قايتباي المحمودي الظاهري.

(١٤) في شوال سنة ٩٠٨هـ خلع على معين الدين شمس[٩٦] وقرر في وكالة بيت المال ونظر البيمارستان المنصوري فعظم أمره جدًّا.

(١٥) في سنة ٩٢٣هـ في حكم السلطان سليم المعروف بابن عثمان[٩٧] خلع المقر السيفي ملك الأمراء خاير بك بن بلباس نائب السلطنة المصرية علي الزيني بركات بن موسى، وقرره مدبر المملكة وناظر الحسبة الشريفة وناظر البيمارستان المنصوري إلخ ...

الثقة بالبيمارستان المنصوري

للدلالة على ما كان للبيمارستان المنصوري من الثقة في نفوس الناس نذكر بعض الذين عولجوا به من أكابر العلماء ومشاهير الوقت منهم:

(١) عثمان بن علي بن عثمان بن إسماعيل بن يوسف قاضي القضاة فخر الدين المعروف بابن خطيب جبرين قاضي حلب، مولده في ربيع الآخر سنة ٦٦٢هـ بالحسينية بالقاهرة مرض بالبيمارستان المنصوري ومات به سنة ٧٣٨هـ.[٩٨]

---

[٩٥] بدائع الزهور في وقائع الدهور لابن إياس ج ٢ ص ٢٩٢.

[٩٦] بدائع الزهور لابن إياس ج ٤ ص ٥٠.

[٩٧] بدائع الزهور ج ٣ ص ١٣٥.

(٢) زين الدين أبو يحيى زكريا الأنصاري رأس القضاء الشافعي توفي سنة ٩٢٦هـ بالبيمارستان بالقاهرة.

ونكتفي بهذين الاسمين خشية الإطالة.

وقفية السلطان قلاوون على البيمارستان المنصوري

من الوثائق التاريخية الثمينة التي قل أن يجود الزمان بمثلها لطول العهد واضطراب الأحوال وتغير الدول، الوقفية التي أوقفها السلطان الملك المنصور قلاوون على تربته ومدرسته وبيمارستانه، فإنها من أوثق المصادر التي يستعان بها في تحقيق أحوال ذلك الزمان الذي وضعت فيه، ومعرفة ما بلغته مصر من الرقي والمدنية. ولقد كانت هذه الوقفية في حكم الشيء المفقود، فإن المؤرخ عبد الرحمن حسن الجبرتي المتوفي سنة ١٢٤٠هـ ١٨٢٥م قد ذكر ضمن حوادث كتابه: أن وقفية السلطان قلاوون قد احترقت في داخل خزانة كتب البيمارستان، وأن الأمير عبد الرحمن كتخدا عندما أراد تجديد البيمارستان في سنة ١١٩٠هـ وحبس بعض الأموال عليه لم يجد كتاب وقفه.

ومن حسن الاتفاق أنه في المدة التي تولى فيها المرحوم إبراهيم باشا نجيب إدارة ديوان الأوقاف (من ديسمبر سنة ١٩١٢ إلى ١٥ نوفمبر سنة ١٩١٣) عثر في محفوظات الديوان على وقفية السلطان قلاوون، وطلب الديوان من العلامة المرحوم أحمد زكي باشا قراءة الوقفية، فانتهز الفرصة واستنسخ لنفسه منها نسخة للخزانة الزكية، ولم يسبق لأحد ما قبل ذلك رؤية هذه الوقفية أو معرفة ما فيها. وقد تفضل الأستاذ المرحوم أحمد زكي باشا فأعارنيها ضمن ما أعارني من نفائس خزانته.

وهذه الوقفية هي أربع وقفيات معًا، الثلاث الأوليات منها تمت في عهد قلاوون نفسه في ثلاث سنين متتالية، وهي سنوات ٦٨٤ و٦٨٥ و٦٨٦، والرابعة عملت في عهد الأمير عبد الرحمن كتخدا من أمراء المماليك الذين حكموا مصر في العهد العثماني، وذلك في سنة ١١٩٠ هـ، وذلك طبقًا لما ذكر في وقفية الأمير كتخدا فقد جاء فيها في السطر ٩٩ ما يلي:

[٩٨] المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي.

«... التي من جملة كتب الأوقاف المذكورة الثلاثة كتب الرق الغزال الملصقة المؤرخ أحدهم (كذا) في ١٣ من شهر ذي الحجة الحرام ختام سنة ٦٨٤، والثاني مؤرخ في ١٢ شهر صفر الخير، والضم والإلحاق الشرعي الملحق بذيله المؤرخ في حادي عشر شهر صفر المذكور كلاهما سنة ٦٨٥، والثالث مؤرخ في ٢٤ شهر رجب الفرد الحرام سنة ٦٨٦، هذا دلت عليه كتب الأوقاف المذكورة على الحكم المعين والمشروع بأعاليه.»

وسنأتي على ديباجة الوقفية ثم على الشروط الخاصة بالبيمارستان وحده دون الخاص منها بالتربة أو المدرسة أو القبة أو المسجد، ثم نتبع ذلك بذكر وقفية الأمير كتخدا لما احتوت عليه من الأمور العظيمة الهامة للإنسانية.

ديباجة وقفية السلطان الملك المنصور قلاوون

هذا كتاب وقف صحيح شرعي، وحبس صريح مرضي، أمر بتسطيره وإنشائه وتحريره، مولانا وسيدنا السلطان الأعظم السيد الأجل الملك المنصور العالم العادل، الكافي الكامل، المؤيد المظفر، الهمام غياث الأنام، سيف الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، قامع الكفرة والمشركين، قاهر الخوارج والمتمردين، محيي العدل في العالمين، منصف المظلومين من الظالمين، ملك البحرين خادم الحرمين الشريفين، أبو المظفر قلاوون الصالحي قسيم أمير المؤمنين سلطان الديار المصرية والبلاد الشامية والأقاليم والقلاع والحصون، خلد الله ملكه وجعل الأرض بأسرها ملكه، وجدد له في كل يوم نصرًا وملكه بساط الأرض برًّا وبحرًا. وأشهد على نفسه الشريفة — صانها من كل محذور، وبلغها ما تؤمله في سائر الأوقات والدهور — بما تضمنه هذا المكتوب واشتمل عليه ونسب فيه الإشهاد إليه. وهو أنه — خلد الله ملكه وسلطانه، وأفاض على كافة الرعايا عدله وإحسانه — وقف وحبس وسبل وحرم وأبد وتصدق بجميع ما هو له — خلد الله ملكه — وفي يده وملكه وتصرفه، وهو جميع الربع الكامل المعروف بالعلمي أرضًا وبناءً الذي هو بالقاهرة المحروسة بالقرب من قيسارية جهاركس ... إلخ ما وقفه من أملاكه وتراثه

ندعه ونبدأ بشروط الواقف قال:

... أما بعد

فإن أحق ما انتهزت فرص أجره العزائم، وأحرزت مواهب

سطر	
٣٣*	بره الغنائم، وأجدر ما تنبه لاغتنام ثوابه كل نائم، وأولى ما توجه إليه كل متوجه وقام إليه كل قائم، ما عادت بالخيرات عوائده، وزادت في
٣٤	المسرات زوائده، واستمرت على الآباء فوائده، واستقرت على التقوى
٣٥	بتطاول الآمال قواعده، وهي الأوقاف العميم برها، المقيم أجرها،
٣٦	الجسيم وفرها، الكريم ذخرها، فهي الحسنات التي هي أثمان
٣٧	الجنان، والقربات التي فيها رضوان الرحمن، والصدقات التي هي مهور
٣٨	الحور الحسان، والنفقات التي هي بحور الأجور لا اللؤلؤ والمرجان ...
	...
٤٢	ولا يخفى ما فيها من إدخال السرور على المريض الفقير، وإيصال الحبور
٤٣	إلى قلبه الكسير، وإغنائه بإيوائه ومداواته، الذي لا يعبر عن وفور
٤٤	أجرها بتعبير، فطوبى لمن عامل مولاه العزيز الغفار، وراقبه
٤٥	مراقبة العالم بسره ونجواه في الإيراد والإصدار، وأقرضه أحسن القروض
٤٦	على حسب الإمكان والاقتدار. وانتهز الفرصة بالاستباق
٤٧	وأحرز بالاغتنام أجرها قصب السباق، فساعد الفقير المسلم على
٤٨	إزالة ألمه، ومداوة سقمه مساعدة تنجيه غدًا من عذاب ربه الخلاق
٤٩	ورجاء أن تكون له بها عند الله الرتبة العظمى، والقربة التي لا يخاف بأجرها
٥٠	ظلمًا ولا هضمًا، والحسنة التي لا تبقى لذنبه غمًّا،
٥١	ولما علم بذلك مولانا السيد الأجل
٥٢	السلطان الملك المنصور العالم العادل
٨٣	... فتقدم أمره الشريف، العالي المنيف، إلى ولي دولته، وغذي نعمته
٨٤	والمتشرف بخدمته، والمخصوص في هذا الوقف بوكالته، الجناب
٨٥	العالي الآمري الأجلي الأوحدي الكبيري المؤيدي المجاهدي المقدمي العضدي

سطر	
٨٦	النصري العزي عز الدين، عز الإسلام ذخر الأنام، مقدم الجيوش نصرة المجاهدين
٨٧	عضد الملوك والسلاطين أبي سعيد أيبك بن عبد الله الملكي الصالحي النجمي المعروف
٨٨	بالأفرم أمير جاندار الملكي المنصوري السيفي أدام الله نعمته، أن يقف عنه
٨٩	خلد الله ملكه ويحتبس ويسبل جميع ما هو جار في ملك مولانا السلطان الملك المنصور
٩٥	... جميع أراضي البستان
٩٦	... الذي ذلك بظاهر القاهرة
٩٧	خارج بابي الشعرية والفتوح غربي الجامع الظاهر المستجد العامر
٩٨	بذكر الله....
	...
٢٦٠	على ما نص مولانا السلطان المنصور الموقوف عنه بإذنه المذكور خلد الله مملكته على بيانه
٢٦١	وذكر تعيينه ذكرًا مصدقًا خبره لعيانه، وشرح مصارفه شرحًا يبقى على الأبد وترادف زمانه.
٢٦٢	وبين شروطه بيانًا لا ينقضي بانقضاء أوانه، من مصالح البيمارستان المبارك المنصوري المستجد
٢٦٣	إنشاؤه، والبديع بناؤه، والمعدوم في الآفاق مثاله، والمشهور في الأقطار
٢٦٤	حسن وصفه وجماله، لقد أعجز همم الملوك الأول، وحوى كل وصف جميل واكتمل
٢٦٥	وحدث عنه العيان والخبر، ودل على علو الهمة فيه كالسيف دل على التأثير بالأثر.
٢٦٦	من أكحال تكون فيه معدة للسبيل، وأشربة تحلو كالسلسبيل، وأطباء تحضره في
٢٦٧	البكرة والأصيل، وغير ذلك مما يشفي السقيم ويبري العليل، وفروش وأمان،
٢٦٨	وقومة وخدام ومطعوم ومشروب ومشموم مستمرًّا أبدًا على الدوام وسيأتي بيان ذلك
٢٦٩	فيه مفصلًا مبينًا، ومشروحًا معينًا. وهذا المارستان المذكور بالقاهرة المحروسة بين القصرين

سطر	
٢٧٠	بخط المدارس الكاملية والصالحية والظاهرية، رحم الله واقفيها على يمنة السالك من المدرسة
٢٧١	الكاملية إلى باب الزهومة وفنادق الطواشي شمس الخواص مسرور رحمه الله، وفندق الحجر والفاكهة
٢٧٢	والحريريين والقسطيين والشرابشيين وغير ذلك، وإلى يسرة السالك من ذلك إلى المدرسة الكاملية ولجامعي الأصغر والأنور …
٢٧٣	ويتوصل إلى هذا المارستان المذكور من الباب الكبير المبني بالرخام المفصوص، المقابل لباب ٢٧٤ التربة الصالحية النجمية رحم الله واقفها المدخول منه إلى الدهليز المستطيل المسلوك منه إلى القبة المباركة التي
٢٧٥	على يمنة الداخل فيه وإلى المدرسة التي هي بالعلم الشريف معظمة
٢٩١	… وهذا المارستان هو الذي وقفه مولانا السلطان الملك المنصور الموكل عنه خلد الله ملكه
٢٩٣	بيمارستان لمداواة مرضى المسلمين الرجال والنساء من الأغنياء المثرين والفقراء المحتاجين
٢٩٤	بالقاهرة ومصر وضواحيها من المقيمين بها والواردين إليها من البلاد والأعمال على اختلاف
٢٩٥	أجناسهم وأوصافهم وتباين أمراضهم وأوصابهم، من أمراض الأجسام قلت أو كثرت
٢٩٦	اتفقت أو اختلفت، وأمراض الحواس خفيت أو ظهرت، واختلال العقول التي حفظها أعظم
٢٩٧	المقاصد والأغراض، وأول ما يجب الإقبال عليه دون الانحراف عنه والإعراض، وغير ذلك مما تدعو
٢٩٨	حاجة الإنسان إلى صلاحه وإصلاحه بالأدوية والعقاقير المتعارفة عند أهل صناعة الطب
٢٩٩	والانشغال فيه بعلم الطب والاشتغال به، يدخلونه جموعًا ووحدانًا وشيوخًا وشبانًا، وبلغاء
٣٠٠	وصبيانًا، وحرمًا وولدانًا، يقيم به المرضى الفقراء من الرجال والنساء لمداواتهم إلى حين برئهم وشفائهم

سطر	
٣٠١	ويصرف ما هو معد فيه للمداواة، ويفرق للبعيد والقريب، والأهلي والغريب، والقوي والضعيف،
٣٠٢	والدني والشريف، والعلي والحقير، والغني والفقير، والمأمور والأمير، والأعمى والبصير.
٣٠٣	والمفضول والفاضل، والمشهور والخامل والرفيع والوضيع، والمترف والصعلوك،
٣٠٤	والمليك والمملوك، من غير اشتراط لعوض من الأعواض، ولا تعريض بإنكار على ذلك
٣٠٥	ولا اعتراض، بل لمحض فضل الله وطوله الجسيم، وأجره الكريم وبره العميم، لينتفع بذلك
٣٠٩	... فقبل هذا الوكيل المذكور هذا التوكيل قبولًا صحيحًا سائغًا
٣١٠	شرعيًّا، ووقف بإذن مولانا السلطان الملك المنصور الموكل المذكور خلد الله مملكته، وحبس عنه
٣١٤	المارستان المستجد المنصوري المحدود أعلاه، وعلى من يقوم بمصالح المرضى به من الأطباء والكحالين
٣١٥	والجراحين وطباخي الشراب والمزاور والطعوم وصانعي المعاجين والأكحال والأدوية والمسهلات
٣١٦	المفردة والمركبة، وعلى القومة والفراشين والخزان والأمناء والمباشرين وغيرهم ممن جرت عادة أمثالهم بذلك
٣١٧	وعلى ما يقوم بمداواة المرضى من الأطعمة والأشربة والأكحال والشيافات والمعاجين والمراهم
٣١٨	والأدهان والشربات، والأدوية المركبة، والمفردة، والفرش والقدور والآلات المعدة للانتفاع
٣١٩	بها في مثله. وسيأتي ذكر ذلك مفصلًا فيه مبينًا ومشروحًا معينًا، على أن الناظر في هذا الوقف
٣٢٠	والمتولي عليه يؤجر العقار من هذا الوقف المذكور وما شاء منه بنفسه أو بنائبه مدة ثلاث سنين
٣٢١	فما دونها بأجرة المثل فما فوقها ويؤجر بالأراضي مدة ثلاث سنين فما دونها بأجرة المثل فما فوقها

سطر	
٣٢٢	ولا يدخل عقدًا على عقد ولا يؤجره لمتشرد ولا لمتعزز، ولا لمن تخشى سطوته، ولا لمن ينسى الوقف
٣٢٣	في يده، ويبدأ من ذلك بعمارة ما يجب عمارته في الوقف والبيمارستان، المذكور ذلك فيه من إصلاح وترميم
٣٢٤	أو بناء هديم، على وجه لا ضرر فيه ولا ضرار ولا إجحاف بأحد في جد ولا إصرار، وبتخير
٣٢٥	الناظر في تحصيل ربع هذا الوقف وحسن الحال على حسب الإمكان ويطلب ذلك
٣٢٦	حيث كان في كل جهة ومكان، بحيث لا يفرط ولا يفرط ولا يخرج في سلوكه عن السنين المتوسطة
٣٢٧	ولا يهمل حقًّا معينًا ولا يغفل عن أمر يكون صلاحه بينًا، لتكون هذه الصدقة طيبة مقبولة
٣٢٨	وهذا السعي يرجو مولانا السلطان الملك المنصور — خلد الله ملكه — به من ربه قبوله
٣٢٩	فقد قال صلى الله عليه وسلم فيما ورد عنه من الأخبار الصحيحة المنقولة: «إذا مات العبد انقطع عمله
٣٣٠	إلا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له.» ثم ما فضل بعد ذلك
٣٣١	صرف منه الناظر ما يرى صرفه لمن يتولى إنجاز ذلك واستخراج
٣٣٢	أجرته وعمارته وصرف ريعه في وجوهه المشترطة فيه وتفرقة أشربته وأدويته من شد
٣٣٣	وناظر ومشارف ومشاهد وكاتب وخازن، ويصرف لكل منهم من ريع هذا الوقف
٣٣٤	أجرة مثله عن تصرفه في ذلك وفعله، ولا يولي الناظر في هذا الوقف يهوديًّا ولا
٣٣٥	نصرانيًّا، ولا يمكنه من مباشرة شيء من هذا الوقف، بل يكون المتولي مسلمًا ظاهر الأمانة
٣٣٦	عارفًا بأنواع الكتابة، كافيًا فيما يتولاه موصوفًا بدينه ودرايته وخبرته
٣٣٧	ويصرف الناظر من ربع هذا الوقف، ثمن ما تدعو
٣٣٨	حاجة المرضى إليه، من سرر حديد أو خشب على ما يراه مصلحته ولحف محشوة قطنًا وطراريح محشوة

سطر	
٣٣٩	بالقطن أيضًا، وملاحف قطن ومخاد طرح أو أدم محشوة على ما يراه، ويؤدي إلى اجتهاده، وهو مخير بين
٣٤٠	أن يفصل كل نوع من ذلك ويصرف أجرة خياطته وعمله وثمن حشوه وبين أن يشتري ذلك
٣٤١	معمولًا مكملًا، فيجعل لكل مريض من الفرش والسرر على حسب حاله وما يقتضيه مرضه عاملًا في
٣٤٢	حق كل منهم بتقوى الله وطاعته باذلًا جهده وغاية نصيحته، فهم رعيته وكل مسئول عن
٣٤٣	رعيته ويصرف الناظر في هذا الوقف
٣٤٤	ثمن سكر يصنعه أشربة مختلفة الأنواع، ومعاجين وثمن ما يحتاج إليه لأجل ذلك من الفواكه
٣٤٥	والخماير، رسم الأشربة وثمن ما يحتاج إليه من أصناف الأدوية والمعاجين والعقاقير والمراهم
٣٤٦	والأكحال والشيافات والذرورات والأدهان والسفوفات والدرياقات والأقراص
٣٤٧	وغير ذلك، يصنع كل صنف في وقته وأوانه، ويدخره تحت يده في أوعية معدة له، فإذا
٣٤٨	فرغ استعمل مثله من ريع هذا الوقف، ولا يصرف من ذلك لأحد شيئًا إلا بقدر حاجته إليه
٣٤٩	ولا يزيده عليها، وذلك بحسب الزمان وما تدعو الحاجة إليه بحسب الفصول وأوقات الاستعمال
٣٥٠	ويقدم في ذلك الأحوج فالأحوج من المرضى والمحتاجين والضعفاء والمنقطعين والفقراء
٣٥١	والمساكين ويصرف الناظر من ريع هذا الوقف
٣٥٢	ما تدعو حاجة المرضى إليه من مشموم في كل يوم، وزبادي فخار برسم أغذيتهم وأقداح
٣٥٣	زجاج وغرار برسم أشربتهم وكيزان وأباريق فخار وقصاري فخار
٣٥٤	وزيت للوقود عليهم، وبماء من بحر النيل المبارك برسم شربهم وأغذيتهم

سطر	
٣٥٥	و... لأجل تغطية أغذيتهم عند صرفها عليهم وفي ثمن مراوح خوص لأجل استعمالهم إياها في الحر
٣٥٦	ويصرف الناظر ثمن ذلك من ريع هذا الوقف في غير إسراف ولا إجحاف ولا زيادة على
٣٥٧	ما يحتاج إليه، كل ذلك بحسب ما تدعو الحاجة لزيادة الأجر والثواب
٣٥٨	ويصرف الناظر في هذا الوقف لرجلين مسلمين موصوفين
٣٥٩	بالديانة والأمانة بكون أحدهما خازنًا لمخزن حاصل التفرقة، يتولى تفرقة الأشربة والأكحال والأعشاب
٣٦٠	والمعاجين والأدهان والشيافات، المأذون له في صرف ذلك من المباشرين، ويكون الآخر أمينًا
٣٦١	يتسلم صبيحة كل يوم وعشيته أقداح الشراب المختصة بالمرضى والمختلين من الرجال والنساء
٣٦٢	المقيمين بهذا المارستان، ويفرق ذلك عليهم ويباشر شرب كل منهم لما وصف له من ذلك
٣٦٣	ويباشر المطبخ بهذا المارستان وما يطبخ به للمرضى من مزاور ودجاج وفراريج ولحم وغير ذلك،
٣٦٤	ويجعل لكل مريض ما طبخ له في كل يوم في زبدية منفردة له من غير مشاركة مع مريض آخر ويغطيها
٣٦٥	ويوصلها إلى المريض إلى أن يتكامل إطعامهم ويستوفي كل منهم غذاءه وعشاءه وما وصف له
٣٦٦	بكرة وعشية. ويصرف الناظر لكل منهما من ريع هذا الوقف ما يرى صرفه إليه من غير حيف
٣٦٧	ولا شطط. وللناظر الشهادة عليها في العدة إذا لم يكفيا ما اشترط عليها مباشرته ويصرف
٣٦٨	له أجرة مثله من ريع هذا الوقف ويصرف الناظر
٣٦٩	من ريع هذا الوقف لمن ينصبه بهذا المارستان من الأطباء المسلمين الطبائعيين والكحالين والجراحين

سطر	
٣٧٠	بحسب ما يقتضيه الزمان وحاجة المرضى وهو مخير في العدة وتقرير الجامكيات ما لم يكن في ذلك
٣٧١	حيف ولا شطط يباشرون المرضى والمختلين الرجال والنساء بهذا المارستان مجتمعين ومتناوبين
٣٧٢	باتفاقهم على التناوب، أو بإذن الناظر في التناوب، ويسألون عن أحوالهم وما
٣٧٣	يتجدد لكل منهم من زيادة مرض أو نقص ويكتبون بما يصلح لكل مريض من شراب وغذاء وغيره،
٣٧٤	في دستور ورق ليصرف على حكمه، ويلتزمون المبيت في كل ليلة بالبيمارستان مجتمعين أو متناوبين
٣٧٥	ويجلس الأطباء الكحالون لمداواة أعين الرمداء بهذا المارستان ولمداوة من يرد إليهم به†
٣٧٦	من المسلمين بحيث لا يرد أحد من المسلمين الرمداء من مداواة عينيه بكرة كل يوم ويباشرون المداواة
٣٧٧	ويتلطفون فيها ويرفقون بالرمداء وملاطفتهم، وإن كان بنيهم من به قروح أو أمراض في عينه تقتضي
٣٧٨	مراجعة الكحال للطبيب الطبائعي، راجعه وأحضره معه وباشر معه من غير انفراد عنه ويراجعه في
٣٧٩	أحوال برئه وشفائه ويصرف الناظر في
٣٨٠	هذا الوقف لمن ينصبه شيخًا للاشتغال عليه بعلم الطب على اختلافه يجلس بالمسطبة الكبرى المعينة له
٣٨١	في كتاب الوقف المشار إليه للاشتغال بعلم الطب على اختلاف أوضاعه في الأوقات التي يعينها له
٣٨٢	الناظر ما يرى صرفه إليه، وليكن جملة أطباء البيمارستان المبارك من غير زيادة عن العدد
٣٨٣	ويصرف الناظر من ريع هذا الوقف للقومة والفراشين
٣٨٤	الرجال والنساء بهذا البيمارستان ما يرى صرفه إلى كل من بحسب عمله، على أن كلًّا منهم يقوم بخدمة المرضى

سطر	
٣٨٥	والمختلين الرجال والنساء بهذا البيمارستان وبغسل ثيابهم وتنظيف أماكنهم وإصلاح شئونهم
٣٨٦	والقيام بمصالحهم على ما يراه من العدة والتقرير بحيث لا يزيد في العدة ولا في المقادير على الحاجة إليه
٣٨٧	في ذلك بحسب الزمان والمكان ويصرف الناظر
٣٨٨	ما تدعو الحاجة إليه في تكفين من يموت بهذا المارستان من المرضى والمختلين الرجال والنساء، فيصرف
٣٨٩	ما يحتاج إليه برسم غسله وثمن كفنه وحنوطه وأجرة غاسله وحافر قبره ومواراته في قبره على السنة
٣٩٠	النبوية والحالة المرضية، ومن كان مريضًا في بيته وهو فقير كان للناظر أن يصرف إليه ما يحتاج إليه
٣٩١	من حاصل هذا المارستان من الأشربة والأدوية والمعاجين وغيرها مع عدم التضييق في الصرف
٣٩٢	على من هو مقيم به، فإن مات بين أهله صرف إليه الناظر
٣٩٣	في موته بتجهيزه وتغسيله وتكفينه وحمله إلى مدفنه ومواراته في قبره ما يليق بين أهله. وليس للناظر
٣٩٤	في هذا الوقف أن ينزل بهذا المارستان من المرضى ولا من المختلين ولا من الأطباء ولا من المباشرين
٣٩٥	ولا من أرباب الوظائف بهذا المارستان يهوديًّا ولا نصرانيًّا، فإن فعل شيئًا من ذلك أو أذن فيه
٣٩٦	ففعله مردود وإذنه فيه غير معمول به، وقد باء بسخطه وإثمه. ومن حصل له الشفا والعافية
٣٩٧	ممن هو مقيم بهذا المارستان المبارك صرف الناظر إليه من ريع هذا الوقف المذكور كسوة مثله
٣٩٨	على العادة، بحسب الحال من غير زيادة تقتضي التضييق على المرضى والقيام بمصالحهم، كل ذلك على ما
٣٩٩	يراه الناظر ويؤدي إليه اجتهاده بحسب ما تدعو إليه الحاجة ويحصل منه مزيد الأجور لمولانا

سطر	
٤٠٠	السلطان الملك المنصور سيف الدنيا والدين، أعز الله به الدين وأمتع ببقائه الإسلام والمسلمين
٤٠١	فإن نقص ريع الوقف المذكور عن استيعاب المصارف المذكورة أعلاه، قدم الناظر صرف
٤٠٢	الأهم فالأهم من ذلك، من الأطعمة والأشربة والأدوية والسفوفات والمعاجين ومداواة
٤٠٣	الرمد، وتقديم الأحوج فالأحوج بحسب ما تقتضيه المصلحة وزيادة الأجور والثواب
٤٠٤	وعلى الناظر في هذا الوقت أن يراعي تقوى الله سبحانه وتعالى سرًّا وجهرًا، ولا يقدم صاحب جاه على
٤٠٥	ضعيف ولا قويًّا على ما هو أضعف منه ولا متأهلًا على غريب، بل يقدم في الصرف إليه
٤٠٦	زيادة الأجور والثواب والتقرب إلى رب الأرباب، فإن تعذر الصرف والعياذ بالله تعالى
٤٠٧	إلى الجهات المذكورة أو إلى شيء منها كان ذلك مصروفًا إلى الفقراء والمساكين من المسلمين أينما كانوا
٤٠٨	وحيث ما وجدوا، وجعل هذا الجناب العالي الأميري
٤٠٩	العزي الوكيل الواقف بإذن موكله مولانا السيد الأجل السلطان الملك المنصور …
٤١٢	… ثم من بعده رزقه الله أطول الأعمار وملكه سائر النواحي والأقطار للأمثل فالأمثل
٤١٣	من أولاده وأولاده أولاده وإن سفلوا ثم للأمثل فالأمثل من عتقاء مولانا السلطان
٤١٤	الملك المنصور المسمى أعز الله أنصاره، وإذا انقرضوا كان النظر في ذلك لحاكم المسلمين الشافعي
٤١٥	المذهب بالقاهرة ومصر المحروسة، ثم من بعده لمن يوجد من حكام المسلمين يوم ذلك على اختلاف مذاهبهم …
٤٢٤	وصار جميع ما وصف وحدد بعاليه وقفًا محرمًا بحرمات الله الأكيدة التي هي أجمع للتحريم، فلا يحل
٤٢٥	لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر ويعلم أنه إلى ربه الكريم صائر من سلطان أو وزير، أو مشير أو قاضٍ

سطر	
٤٢٦	أو محتسب أو وكيل بيت مال، أو أمير أو آمر، نقض هذا الوقف ولا نقض شيء منه ولا تعطيله ولا فسخه
٤٢٧	ولا تحويله ولا السعي في إبطال شيء منه ولا الاعتراض إليه ولا إخراجه عن سبيله
٤٢٨	فمن فعل ذلك أو أعان عليه أو سعى فيه ...
٤٣٧	... وقعت
٤٣٨	الشهادة عليه بعد قراءته بتاريخ اليوم المبارك يوم الثلاثاء الثاني عشر من شهر صفر المبارك
٤٣٩	من شهور سنة خمس وثمانين وستمائة، الله يقضيها بخير وحسبنا الله ونعم الوكيل

* هذه الأرقام تشير إلى ترتيب السطر داخل صفحة الوقف.

† لم نجد هذا الجمع في كتب اللغة فأبقيناه على حاله كما فعلنا في غيره من الأغلاط والكلمات العامية الواردة في نصوص الوقف أو غيرها من النقول.

الشهود (وهم ثمانية)

... وبذلك أشهد، ... وبذلك أشهد.

يوسف بن سليمان
محمد بن محمد ...
محمد بن عبد العزيز بن أحمد بن عمر بن اللهب

... وبذلك أشهد، ... وبذلك أشهد.

محمد بن محمد بن علي بن عبد العزيز بن رشيق
عيسى بن عمر بن خالد بن عبد المحسن الشافعي
إسماعيل بن الحسن الأنصاري
محمد بن محمد بن محمد البكري الحسيني
علي بن عبد العزيز بن علي

وقفية الأمير عبد الرحمن كتخدا

هي إعلام شرعي صادر من مجلس الشرع الشريف إلى الأمير عبد الرحمن كتخدا بتثبيته ناظرًا على وقف السلطان المنصور قلاوون، وهو الذي ذكر الجبرتي أنه جدد عمارة المارستان المنصوري وأراد أن يحتاط بجهات وقفه. ومن هذا الإعلام تعلم تمام العلم الحال التي كان عليها المارستان في ذلك العصر من نظام وترتيب في الإدارة والعلاج، وهو من دواعي الاغتباط لمصر، وها هو ذا الإعلام.[٩٩]

سطر	
١٠	سيد الملوك والسلاطين إسكندر صاحب القرآن مولانا السلطان الملك المنصور أبو المظفر قلاوون الصالحي قسيم أمير المؤمنين وسلطان الديار المصرية، كان تغمده الله بالرحمة والرضوان وأسكنه أعلى فراديس الجنان وقف وحبس وسبل
١١	وأبد وأكد وخلد وتصدق بجميع القبة العظمى وجميع المدرسة المباركة وجميع البيمارستان بصدر الدهليز الجامع لذلك، ومكتب السبيل علو باب القيسارية المستجدة والصهريج بداخل
١٢	البيمارستان المرقوم، وما يتبع ذلك من الأواوين والقاعات والأروقة والخلاوي والطباق وبيوت المختلين من الرجال والنساء، وأواوين الضعفاء والمرضى، وفساقي المياه وبيوت الأخلية وغير ذلك ...
١٥	وجميع العقارات والحوانيت والحواصل والخزائن والربوعة والطباق والعقارات الكائنة بمصر المحروسة بالخط المذكور
١٦	والأطيان التابعة لذلك، المرصد ذلك جميعه على مصالح القبة والمدرسة والبيمارستان والمكتب والصهريج المذكورين أعلاه، المشمول ذلك جميعه وما ألحق به من قبل مولانا السلطان الأشرف برسباي والمرحومة جانم
١٧	عتيقة الجمالي يوسف زوجة بشتك الداوادار الخازندار مولانا السلطان المومى إليه، وما أنجز لجهة وقف مولانا السلطان المومى إليه من الأوقاف التابعة لذلك على الحاكم المعين باستيمار الوقف بنظر وتحدث
١٨	فخر الأكابر والأعيان الجناب المكرم الأمير عبد الرحمن كتخدا ابن المرحوم الأمير حسن كتخدا طائفة مستحفظان القاز دغلي بمصر كان بموجب تقريره في ذلك من قبل مولانا شيخ الإسلام المشار إليه أعلاه المؤرخ في شهر

[٩٩] أثبتناه بالحرف ولم نصلح من لغته شيئًا.

سطر	
١٩	ذي الحجة ختام سنة أربع وسبعين ومائة وألف (١١٧٤) المرتب على الفرمان الشريف الواجب القبول والتشريف من حضرة الوزير المعظم والدستور المكرم والمشير المفخم مولانا أحمد باشا محافظ الديار المصرية
٢٠	دامت سعادته السنية المؤرخ في شهر ذي الحجة المذكور سنة ١١٧٤ المذكورة، وقفًا صحيحًا شرعيًّا على ما يبين فيه: فأما القبة المذكورة فإنه وقف رواقها
٢٣	… وأما الخزاين التي بالقبة المذكورة فإنه وقفها لحفظ الكتب …
٢٥	وأما المدرسة المباركة … فإنه وقفها على الفقهاء والمنفقهة على مذاهب الأئمة الأربعة …
٣٢	… وأما البيمارستان المذكور المستجد من قبل مولانا السلطان المشار إليه …
٣٤	… فإنه وقف ذلك بيمارستانًا لمداواة مرضى المسلمين الرجال والنساء والأغنياء والفقراء بالقاهرة ومصر وضواحيها من المقيمين بهما والواردين إليهما من البلاد والأعمال على اختلاف أجناسهم وأوصافهم وسائر أمراضهم من أمراض الأجسام قلت أو كثرت اتفقت أو اختلفت، وأمراض الحواس خفت أو ظهرت
٣٦	واختلال العقول التي حفظها أعظم المقاصد والأغراض، وأدل ما يجب الإقبال على ذوي الانحراف عنه والإعراض، وغير ذلك مما تدعو حاجة الإنسان إلى صلاحه وإصلاحه بالأدوية والعقاقير
٣٧	المتعارفة عن أهل صناعة الطب والاشتغال فيه بعلم الطب والاشتغال به، ويدخلونه جموعًا ووحدانًا وشيوخًا وشبابًا وبلاغًا وصبيانًا وحرمًا وولدانًا تقيم المرضى الفقراء من الرجال
٣٨	والنساء لمداواتهم إلى حين برئهم وشفائهم ويصرف ما هو معين فيه للمداواة ويفرق على البعيد والقريب، والأهل والغريب والقوي والضعيف، والدني والشريف، والحقير والغني والفقير
٣٩	والمأمور والأمير، والأعمى والبصير، والمفضول والفاضل، والمشهور والخامل، والرفيع والوضيع، والمترف والصعلوك، والمليك والمملوك من غير اشتراط لعوض من الأعواض، ولا تعريض بإنكار
٤٠	على ذلك ولا اعتراض، بل لمحض فضل الله العظيم … على أن تكون
٤١	المسطبة الكبرى التي بالبيمارستان المرقوم مرصدة، لجلوس مدرس من الحكماء الأطباء عارفًا بالطب وأوضاعه متبحرًا في فضله لكثرة عمله واطلاعه عالمًا بأسباب الأمراض وعلاجاتها، ولجلوس المشتغلين

سطر	
٤٢	بعلم الطب على اختلافه. وتكون المسطبة المقابلة لها مرصدة لجلوس المستخدمين والمباشرين لإدارة البيمارستان المرقوم وتكون القاعة التي على يمنة باب الدخول للبيمارستان المرقوم مرصدة
٤٣	لحفظ ما يفرق من حواصل البيمارستان المذكور من أشربة وأكحال وأدوية مفردة ومركبة ومعاجين وأدهان وديارقات ومراهم وشيافات
٤٤	مرصدة لإقامة الرمداء من الرجال الفقراء أو لمن يرى الناظر إقامته بها من المرضى. ويكون المخزن الكبير المتوصل إليه من الباب السادس مرصدًا لحفظ الأعشاب، وتكون القاعة المتوصل إليها من الباب
٤٥	السابع برسم إقامة المرضى الفقراء الرجال المسهولين، وتكون المسطبة الكبرى المتوصل إليها من الدهليز الذي بأوله باب المطبخ برسم إقامة المجروحات والمكسورات من النساء، وتكون القاعات الثلاث
٤٦	الباقيات من البيمارستان المذكور المتوصل إلى ذلك من الدهليز المتوصل منه إلى المطبخ المرصد لطبخ الأشربة وإلى المخزنين بجوار المرصدين لحفظ حواصل المطبخ مرصدان برسم إقامة المريضات الفقيرات
٤٧	من النساء، وعلو ذلك برسم إقامة من يخدمهن من النساء، وباقي بيوت قاعة البيمارستان المرقوم مرصدة لحوامل البيمارستان المرقوم، ولإقامة من يرى الناظر إقامته بها من المرضى الفقراء الرجال
٤٨	والنساء، وتكون القاعة المرصدة لإقامة المختلين من الرجال برسم إقامة كل من يرد إليها من المختلين والرجال، وكذلك القاعة المجاورة لها فإنها مرصدة برسم المختلات من النساء، وأذن مولانا
٤٩	السلطان المشار إليه أعلاه في الإنشاء على سطح بيوت المختلين من الرجال والنساء مساكن برسم القومة والخدام بالبيمارستان المرقوم. وتكون أواوين قاعة البيمارستان المرقوم برسم
٥٠	إقامة المرضى الفقراء الرجال دون النساء على اختلاف أجناسهم وطبقاتهم، وعلى الأطباء المرتبين بالبيمارستان المرقوم والكحالين والجراحين مباشرة المرضى بالبيمارستان الرجال والنساء مريضًا بعد
٥١	مريض، بحيث يستوعبون جميع المرضى بالمباشرة في كل يوم بكرة وعشية، وعلى كل من القومة والفراشين بالبيمارستان المرقوم أن يتعاهد المرضى ويقوم بما يحتاج إليه من غسل ثيابه وتنظيف

سطر	
٥٢	مكانه وإصلاح شأنه وحك رجليه والقيام بمصالحه، والاهتمام بشرابه وغذائه وترتيب المشموم له على العادة بحسب ما تدعو الحاجة إليه. ولا يشرك مريضًا مع مريض آخر في شراب ولا في غذاء، ويتقي الله
٥٣	سبحانه وتعالى في خدمتهم ويراقب ربه جل جلاله في ملاطفتهم ويجتهد في إتمامه عندهم …
٦٩	… ويصرف الناظر عن ريع هذا الوقف المذكور على مصالح البيمارستان المرقوم من أكحال تكون فيه معدة للسبيل
٧٠	وأشربة تحلو كالسلسبيل، وأطباء تحضره في البكرة والأصيل، وغير ذلك مما يشقي السقيم ويبري العليل، وفروش وأوان وقومة وخدام ومطعوم ومشروب ومشموم مستمرًّا أبدًا على الدوام
٧١	وعلى من يقوم لمصالح المرضى به من الأطباء والكحالين والجراحين وطباخي الشراب والطعوم وصانعي المعاجين والأكحال والأشربة
٧٢	والمسهلات المفردة والمركبة، وعلى القومة والفراشين والخزان والأمناء والمباشرين وغيرهم ممن عادة أمثالهم في ذلك، وعلى من يقوم بمداواة المرضى من الأطعمة والأشربة والأكحال
٧٣	والشيافات والمعاجين والمراهم والأدهان والشربات والأدوية المركبة والمفردة والفرش والقدور والآلات المعدة للانتفاع بها في مثله، ويصرف الناظر من ريع هذا الوقف
٧٤	المذكور ثمن ما تدعو حاجة المرضى إليه من سرير حديد أو خشب على ما يراه مصلحته، ولحف محشوة قطنًا، وطراريح محشوة بالقطن أيضًا، وملاحف قطن، ومخاد وطرح أو أدم محشوة، على ما يراه
٧٥	الناظر ويؤدي إليه اجتهاده، وهو مخير بين أن يفصل كل نوع من ذلك ويصرف أجرة خياطته وعمله وثمن حشوه وبين أن يشتري ذلك معمولًا مكملًا، ويجعل لكل مريض من الفرش والسرر
٧٦	على حسب حاله وما يقتضيه مرضه عاملًا في حق كل منهم بتقوى الله … ويصرف الناظر من ريع هذا الوقف
٧٧	المذكور ثمن سكر يصنعه أشربة مختلفة الأنواع ومعاجين، وثمن ما يحتاج إليه لأجل ذلك من الفواكه والخماير برسم الأشربة، وثمن ما يحتاج إليه من أصناف الأدوية والعقاقير والمعاجين
٧٨	والمراهم والأكحال والشيافات والذرورات والأدهان والسفوفات والدرياقات والأقراص وغير ذلك، يصنع كل صنف في وقته ويدخره تحت يده في أوعية معدة له، فإذا
٧٩	فرغ استعمله مثله من ريع هذا الوقف ولا يصرف من ذلك لأحد شيئًا إلا بقدر حاجته إليه … ويقدم

سطر

٨٠ من ذلك الأحوج فالأحوج من المرضى والمحتاجين والضعفاء والمنقطعين والفقراء والمساكين. ويصرف الناظر من ريع هذا الوقف المذكور ما تدعو حاجة المرضى إليه من مشموم في كل يوم

٨١ وزبادي فخار برسم أغذيتهم وأقداح زجاج برسم أشربتهم وكنيران وأباريق فخار وشيرج وقناديل وزيت للوقود عليهم، وماء من بحر النيل المبارك برسم شربهم ومكبات خوص

٨٢ لأجل أغطية أغذيتهم عند صرفها عليهم، وفي ثمن مراوح خوص لأجل استعمالهم إياها في الحر وغير ذلك

٨٣ ... ويصرف الناظر من ريع هذا الوقف المذكور لرجلين أحدهما خازن بمخزن حاصل التفرقة بغرف الأشربة والأكحال

٨٤ والأعشاب، والمعاجين والأدهان والشيافات، والآخر يتسلم صبيحة كل يوم وعشيته أقداح الشراب المختصة بالمرضى والمختلين من الرجال والنساء ويفرق عليهم ذلك ويباشر

٨٥ شرب كل منهم لما وصف له من ذلك، ويباشر البيمارستان وما يطبخ به للمرضى من فراور ودجاج وفراريج ولحم وغير ذلك، ويجعل لكل مريض ما يطبخ له في كل يوم في زبدية منفردة

٨٦ من غير مشاركته مع مريض آخر ويغطيها ويوصلها له إلى أن يتكامل إطعامهم ويستوفي كل منهم غداه وعشاه وما وصف له بكرة وعشية

٨٧ ... وللناظر أن ينصب من الأطباء

٨٨ المسلمين الطبائعيين والكحالين والجراحين بحسب ما تقتضيه الزيادة وحاجة المرضى، وهو مخير في العدة وتقدير الجامكيات بالترتيب في ذلك، يباشرون المرضى والمختلين مجتمعين

٨٩ أو متناوبين باتفاقهم على التناوب، ويسألون عن أحوالهم وما يتجدد لكل منهم من زيادة مرض، ويكتبون ما يصلح لكل مريض من شراب وغذا وغير ذلك في دستور ورق ليصرف

٩٠ على حكمه، ويلتزمون المبيت في كل ليلة بالبيمارستان وتجلس الأطباء الكحالون لمداواة أعين الرمداء بالبيمارستان، ومن يرد إليهم ويتلطفون بهم [وإن احتاجوا الأطباء من

٩١ الطبائعيين إلى مراجعة الكحال يراجعوه ويحضره ويحضره يباشر معهم]* ويصرف الناظر من ريع هذا الوقف المذكور للقومة والفراشين للرجال والنساء في نظير القيام بهم وتغسيل ثيابهم

٩٢ ... ويصرف الناظر من ريع هذا الوقف المذكور ما تدعو الحاجة إليه من تكفين من يموت من المرضى

سطر	
٩٣	والمختلين وما يحتاج إليه، برسم غسله وتكفينه وحنوطه وأجرة غاسله وحافر قبره ومواراته في قبره على السنة النبوية ... ومن كان مريضًا في بيته وهو فقير
٩٤	كان للناظر أن يصرف ما يحتاج إليه من حاصل هذا البيمارستان والأشربة والأدوية والمعاجين وغيرها، مع عدم التضييق في الصرف على من هو مقيم به، ومن حصل له الشفاء والعافية
٩٥	ممن هو مقيم به يصرف له كسوة مثله على العادة بحسب الحال
٩٧	... ذلك جميعه معين
٩٨	ومبين ومفصل ومشروح بكتب الأوقاف الصحيحة الشرعية
٩٩	... من جملة كتب الأوقاف المذكورة (الثلاثة كتب الرق الغزال الملصق المؤرخ أحدهم)?? في ثالث عشرين شهر ذي الحجة الحرام سنة ٦٨٤ والثاني
١٠٠	مؤرخ في ثاني عشر شهر صفر الخير ... سنة ٦٨٥ والثالث مؤرخ
١٠١	في رابع وعشرين شهر رجب الفرد سنة ٦٨٦، هذا ما دلت كتب الأوقاف ...
١٠٢	من المرتبات والخيرات على الوجه المسطور، طلب الأمير عبد الرحمن كتخدا الناظر
١١٠	... وقع التحرير في اليوم المبارك الموافق لثامن شهر محرم الحرام سنة ١١٧٥ من هجرة من له كمال العز ومزيد الشرف صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم

* كذا في الأصل.

الأطباء الذين عملوا بالبيمارستان المنصوري

على طول العصور

الأطباء الذين عملوا بالبيمارستان المنصوري من عهد إنشائه إلى يومنا هذا كثيرون، فإن هذا البيمارستان لم ينقطع يومًا عن تأدية الوظيفة التي أنشئ من أجلها وهي علاج المرضى، غير أن استقصاء جميعهم غير ميسور لأن أسماءهم ضاعت مع الزمن، وإن القليل منهم من ترجم في كتاب، والتراجم الموجودة مشتتة في بطون الكتب على اختلاف أنواعها من كتب أدب وتاريخ وتراجم عامة أو خاصة. وسننشر في هذا الفصل بعض الذين وقعت لنا تراجمهم والكتب المنقولة عنها مرتبة بحسب الزمن، حتى يلم

القارئ بشيء من أحوال البيمارستان على طول سنينه، ومن أحوال الطب والأطباء في تلك العصور فمنهم:

(١) **أحمد بن يوسف** بن هلال بن أبي البركات شهاب الدين الصفدي[١٠٠] الطبيب. ولد سنة ٦٦١ ثم قدم إلى صفد ونشأ بها ثم انتقل إلى القاهرة وخدم في جملة أطباء السلطان وبالبيمارستان المنصوري. وكان بارعًا في الطب وله قدرة على وصف الشجرات توفي سنة ٧٣٧هـ.

(٢) **الشيخ ركن الدين** بن القوبع هو ركن الدين أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن يوسف بن عبد الرحمن بن عبد الجليل الجعفري التونسي: ولد بتونس سنة ٦٦٤ في رمضان وأخذ عن جماعة وصار يجيد كل ما يعرفه من أصول وحديث وفقه وأدب ولغة ونحو وعروض وأسماء رجال وشعر يحفظه عن العرب والمولدين والمتأخرين وطب، وحكمة ومعرفة الخطوط. قدم مصر في سنة ٦٩٠ وتولى نيابة الحكم للقاضي المالكي بالقاهرة مدة ثم تركها تدينًا منه وقال: «يتعذر فيها براءة الذمة.» وكان يدرس في المكتمرية بالقاهرة ويدرس الطب بالبيمارستان المنصوري. ينام أول الليل ثم يستفيق وقد أخذ راحته ويتناول كتاب الشفاء لابن سينا ينظر فيه لا يكاد يخل بذلك. وكان حسن التودد إلى الناس وكان يتصدق سرًّا، توفي بالقاهرة في تاسع ذي الحجة سنة ٧٣٨ عن أربع وسبعين سنة.[١٠١]

(٣) **محمد بن إبراهيم** بن ساعد شمس الدين أبو عبد الله[١٠٢] السنجاري الأصل المعري المعروف بابن الأكفاني: ولد بسنجار وتعلم الطب ومهر في معرفة الجواهر والعقاقير حتى رتب بالبيمارستان وألزم الناظر ألا يشتري شيئًا، إلا بعد عرضه عليه توفي سنة ٧٤٩ ومن مؤلفاته: إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد (طبع بمصر) ونخب الذخائر في معرفة الجواهر، واللباب في الحساب، وغنية اللبيب في غيبة الطبيب، ونهاية القصد في صناعة الفصد.

---

[١٠٠] المنهل الصافي والوافي بالوفيات والدرر الكامنة.

[١٠١] الوافي بالوفيات للصلاح الصفدي، والهداية والنهاية لابن كثير حوادث سنة ٧٣٨.

[١٠٢] الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة.

(٤) **عمر بن منصور** بن عبد الله سراج الدين البهادري[١٠٣] القاهري الحنفي ولد سنة ٧٦٢ واشتغل بالفقه والعربية والطب، واستقر في تدريس البيمارستان وجامع ابن طولون في الطب، ومات يوم السبت غرة شوال سنة ٨٢٤هـ.

(٥) **محمد بن إسماعيل** بن إبراهيم أبو الوفاء[١٠٤] القاهري الطبيب ويعرف بوفاء، ولد بعد سنة ٨٣٠ بالقاهرة ونشأ بها وتدرب بالطب وصار من ذوي النوب بالبيمارستان، وصار يشار إليه بالبراعة والمتانة.

(٦) **تقي الدين الكرماني** يحيى بن محمود بن يوسف بن العلامة شمس الدين الكرماني[١٠٥] البغدادي ولد في رجب سنة ٧٦٢ سمع عن أبيه وغيره، ونشأ ببغداد وتفقه وبرع وشارك في عدة علوم والتجأ إلى الأمير شيخ المحمودي وجعله إمامه في الصلاة. ولما تسلطن الأمير شيخ المحمودي في سنة ٨١٥هـ جعله من خواصه وولاه نظر البيمارستان المنصوري بالقاهرة، ومات بالطاعون يوم الخميس ٨ جمادى الآخرة سنة ٨٣٣هـ، وله مصنفات من ذلك: مصنف في الطب وشرح مسلم وشرح البخاري واختصر الروض الأنف.

(٧) **محمد بن علي** بن عبد الكافي بن علي بن عبد الواحد بن صغير[١٠٦] الشمس أبو عبد الله القاهري الحنبلي الطبيب والد الكحال محمد ويعرف بابن صغير، تميز في الطب وعالج وتدرب به جماعة وله في الطب كتاب اسمه الزبد، وكان أحد الأطباء بالبيمارستان وبخدمة السلطان، مات سنة ٨٣٩ عن ٨٤ سنة.

(٨) **عبد الوهاب بن محمد** بن محمد بن طريف الشيخ تاج الدين ابن الشيخ شمس الدين الشاوي القاهري[١٠٧] ولد سنة ٧٦٦ بالقاهرة وسمع دروسه في الفقه والميقات، على جماعة من العلماء، وفي الكحل على السراج البلاذري، وبرع في الميقات وباشر العمل به في عدة أماكن كالمنصورية وجامع الحاكم، وكذا خدم بالكحل في البيمارستان المنصوري، وكان إنسانًا خيرًا ثقة محبًّا للطلبة ذا ثروة من وظائفه وغيرها،

---

[١٠٣] الضوء اللامع والمنهل الصافي.

[١٠٤] الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع.

[١٠٥] المنهل الصافي.

[١٠٦] الضوء اللامع.

[١٠٧] التبر المسبوك في ذيل السلوك ص ١٩٤.

ينتفع بالقليل منها ويصرف باقيه في وجوه الخير، مات يوم الجمعة ١٣ شوال سنة ٨٥١ وصُلي عليه بجامع الحاكم.

(٩) **محمد بن عبد الوهاب** بن محمد الصدر بن البهاء السبكي[١٠٨] الأصل القاهري المتطبب ولد قريبًا من سنة ٧٧٣هـ وحفظ القرآن والنحو، ثم عانى الطب والكحل وخدم بالبيمارستان، مات في جمادى الأولى سنة ٨٦٦هـ وقد شاخ وضعف بصره.

(١٠) **محمد بن أحمد** بن إبراهيم بن أحمد بن عيسى بن عمر بن خالد بن عبد المحسن[١٠٨] بن نشوان الشرفي العالي بن الصدر أبي البركات بن قاضي طيبة البدر أبي إسحاق المخزومي، ولد سنة ٧٩٣هـ بالقاهرة ونشأ بها، ودرس بالبيمارستان المنصوري وجامع ابن طولون مات سنة ٨٧٣هـ.

(١١) **محمد بن محمد** بن علي بن عبد الكافي بن علي بن عبد الواحد بن محمد بن صغير[١٠٨] الكحال بن الشمس بن العلاء القاهري الطبيب حفيد رئيس الأطباء ويعرف كسلفه بابن صغير؛ حفظ القرآن وقرأ النحو وعانى الطب وأخذ فيه عن أبيه والعز بن جماعة. واستقر في نوبة البيمارستان وله كتاب (تشريح الأعضاء) و(الزبد) في الطب، مات في صفر سنة ٨٩١هـ وهو ابن ٩٦ سنة.

(١٢) **محمد بن يعقوب** بن عبد الوهاب الشمس التفهني[١٠٨] ثم القاهري الكحال، كان أبوه خيرًا من أهل القرآن، فنشأه وتدرب في الطب والكحل ومهر فيهما، وصارت له نوبة في البيمارستان، ومولده سنة ٨١٥ ومات في ذي الحجة سنة ٨٩٦هـ.

(١٣) **محمد بن محمد** ولي الدين ابن الشيخ العالم محب الدين المحرق[١٠٩] المباشر بالبيمارستان المنصوري بالقاهرة وتوفي بها في يوم الخميس ختام ربيع الأول سنة ٩٠٩.

(١٤) **الشيخ محمد شمس الدين القوصوني:** رئيس الأطباء بالقاهرة وطبيب السلطان الغوري والطبيب بدار الشفاء، توفي في ربيع الأول سنة ٩١٧.

(١٥) **علي بن محمد** بن محمد بن علي الجراح بدار الشفاء، توفي سنة ١٠١١هـ.

---

[١٠٨] الضوء اللامع.

[١٠٩] الكواكب السائرة ج ١ ص ١٩.

(١٦) **شهاب الدين ابن الصائغ**[١١٠] وهو أحمد بن سراج الدين الملقب شهاب الدين، مات عن مشيخة الطب بدار الشفاء المنصوري ورياسة الأطباء، وكانت ولادته سنة ٩٤٥هـ وتوفي سنة ١٠٣٦هـ، ولم يخلف إلا بنتًا تولت مكانه مشيخة الطب.

(١٧) **مدين**[١١١] **بن عبد الرحمن** القوصوني المصري الطبيب رئيس الأطباء بدار الشفاء بمصر، أخذ العلوم عن الشهاب أحمد بن أحمد المبتولي الشافعي والشيخ عبد الواحد البرجي والطب عن الشيخ داود، ولي مشيخة الطب بمصر بعد السري أحمد الشهير بابن الصائغ، وألف التآليف النافعة منها: «ريحان الألباء وريعان الشباب في مراتب الآداب» وكتاب «قاموس الأطباء وناموس الألباء في المفردات» وفي خزانة كتبي نسخة منه وله غير ذلك، قال صاحب خلاصة الأثر: إنه في سنة ١٠٤٤هـ كان موجودًا بين الأحياء.

(١٨) **خضر بن علي** بن الخطاب المعروف بالحاج باشا:[١١٢] كان من ولاية آيدين من الروم وارتحل إلى القاهرة وقرأ على أكمل الدين ومبارك شاه المنطقي ثم، عرض له مرض شديد فاضطره إلى الاشتغال بالطب فمهر فيه وفوض إليه بيمارستان مصر فدبره أحسن تدبير، وصنف كتاب «الشفا» في الطب ومختصرًا فيه بالتركية سماه «التسهيل». وصنف قبل اشتغاله بالطب حواشي على «شرح المطالع» للقطب الرازي على تصوراته وتصديقاته و«شفاء الأسقام» وتوفي سنة ١١٠٠هـ.

(١٩) **علي بن جبريل**[١١٣] المتطبب شيخ دار الشفاء بالمارستان المنصوري رئيس الرؤساء، أتقن فن الطب وشارك في غيره من الفنون، كان أحد جلساء الأمير رضوان كتخدا الجلفي ونديمه وأنيسه وحكيمه، وكان أحد من منحت له يمين ذلك الأمير بالألوف ومنها بيت علي بركة بالأزبكية ذو رونق بديع غريب زجاجي النواحي والأرجاء، توفي سنة ١١٧٢هـ.

(٢٠) **الشريف السيد قاسم بن محمد التونسي**[١١٤] كان إمامًا في الفنون وله يد طولى في العلوم الخارجة مثل الطب والحرف، وكان معه وظيفة تدريس الطب بالبيمارستان

---

[١١٠] خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر.

[١١١] خلاصة الأثر للمحبي.

[١١٢] القواعد البهية في تراجم الحنفية وكتاب الشقائق النعمانية.

[١١٣] عجائب الآثار لعبد الرحمن الجبرتي ج ١ ص ٢١٦.

[١١٤] عجائب الآثار للجبرتي ج ٢ ص ٥٤.

المنصوري، وتولى مشيخة رواق المغاربة بالأزهر مرتين، وكان له باع في النظم والنثر، توفي سنة ١١٩٣هـ/ ١٧٩٧م بعد أن تعلل كثيرًا.

المارستان المنصوري في نظامه العصري

بعد الشريف السيد قاسم التونسي لم أعثر على طبيب آخر تولى العلاج في المارستان المنصوري، والظاهر أن أمر المارستان كان مهملًا من العلاج في الفترة بين وفاة التونسي سنة ١٧٩٧م وهو العام السابق على الحملة الفرنسية، من سنة ١٧٩٩م إلى سنة ١٨٠١. قال المسيو جومار أحد علماء الحملة: «إن هذا البناء الذي كان فيما غبر من الأيام ملجأ مفتوحًا من الشدائد قد اضمحلت حالته بعد ذلك، وزالت عنه السعادة الأولى التي كان يرفل في حلاها، أو بعبارة أخرى كاد لا يبقى منه غير ظلمة بسبب ظلم الترك والمماليك وإهمالهم ولا سيما تبديد أمواله. ثم بلغ غاية اضمحلاله في سنة ١٨٥٦م وهجره المرضى ونقلت منه المجانين إلى بولاق، وأجرت قاعاته ومرافقه، كأنه وكالة لمخازن الصناع وتجار النحاس، وظل كذلك إلى سنة ١٨٧٩ أي نحو ثمانين عامًا إلى أن تولى المرحوم الدكتور حسين عوف بك أمر العلاج فيه، فانتقل بذلك إلى العصر الجديد في العلاج، وتولى بعده في العلاج بالمارستان غيره من الأطباء العصريين، إلى أن صحت عزيمة مصلحة الأوقاف في ذلك الزمن على تجديد بناء المارستان المنصوري في الحوش الواسع المتخلف عن المارستان القديم. فابتدأت في البناء وتشييد المارستان الجديد في عام ١٩١٢م وقدر له من النفقات ٨٤٠٠ جنيهًا مصريًّا ثم رتب عليها ستمائة جنيه، فبلغ ما أنفق على تجديد البناء تسعة آلاف من الجنيهات، وصرف نحو ستمائة جنيهًا ثمنًا للأدوات والآلات اللازمة. وتم بناؤه وابتدأ العلاج فيه في ١٥ أبريل سنة ١٩١٥، حيث كانت الحرب العالمية مشتعلة الأوار في ذلك الزمن، فلم يحتفل بافتتاحه كما جرت العادة بذلك.

ولا تزيد أوقاف مارستان قلاوون في الوقت الحاضر على الحمام المجاور للمارستان وبعض دكاكين في الصاغة المجاورة. ويبلغ ريع هذه الأوقاف نحو ألفي جنيه تقريبًا، ويصرف من هذا الريع على مدرسة النحاسين والمسجد والتربة والمارستان، وتسد وزارة الأوقاف النقص في النفقات من الأوقاف الخيرية الأخرى. ففي تاريخ ٣ جمادى الآخرة سنة ١٣١٤هـ الموافق ٩ نوفمبر سنة ١٨٩٦م صدرت إرادة سنية من الخديوي عباس

باشا الثاني بناء على فتوى شرعية تقضي بتوحيد حسابات جميع الأوقاف الخيرية، وجعلها كلها حسابًا واحدًا إيرادًا ومصروفًا، تتصرف فيه وزارة الأوقاف بحسب ما تراه من أعمال الخير، فلا تتقيد بإيراد كل وقف ومصروفه على حدته إذ كان غرض الواقفين عمل الخير، وذلك ابتداء من شهر يناير سنة ١٨٩٧م.

والعلاج في مستشفى قلاوون الآن خاص بأمراض العيون وفيه قسمان قسم للعلاج الخارجي تفحص فيه المرضى وتعالج ثم تنصرف إلى منازلها، وقسم داخلي فيه نحو تسعين سريرًا يقيم فيها المرضى للعلاج حتى يشفوا من أدوائهم. وفيه من الأطباء نحو ستة وصيدلاني وكتبة وممرضون وممرضات وطباخ وغسالون وسائر ما يلزم من الخدم، وكان جملة ما ينفق عليه في سنة ١٩٢٧ نحو ٦٢٣١ جنيهًا مصريًّا.

الأطباء العصريون الذين تولوا العلاج في مارستان قلاوون

إن أول من عانى العلاج في بيمارستان قلاوون من الأطباء المصريين بعد الفترة الكبيرة بعد السيد قاسم بن محمد التونسي هم:

(١) **الدكتور حسين عوف بك:** تخرج من مدرسة القاهرة ثم اختير للسفر إلى بلاد النمسا سنة ١٨٤٥م حيث اتقن علم الرمد وعاد منها سنة ١٨٤٦م، وعين أستاذًا للرمد بمدرسة الطب سنة ١٨٤٨م وكان برتبة (الصاغ قول أغاسي) وذلك في عهد سعيد باشا والي مصر. وفي سنة ١٨٦٧ أنعم عليه بالوسام المجيدي الرابع. وظل أستاذًا إلى أن أحيل على المعاش سنة ١٨٧٩م وخلفه ابنه أستاذًا بمدرسة الطب وقد كان مساعدًا له في عمله فيها، وبعد إحالته على المعاش تولى العلاج في مارستان قلاوون وتوفي سنة ١٨٨٣م.

(٢) **الدكتور محمد عوف باشا:** هو ابن الدكتور حسين بك عوف السابق، تعلم بمدارس مصر ثم دخل مدرسة القصر العيني وأرسل بعد ذلك إلى فرنسا في بعثة طبية سنة ١٨٦٢م لإتقان أمراض العيون، وعاد منها سنة ١٨٧٠م فعين بمدرسة الطب طبيبًا مساعدًا لوالده في الكحالة، ولما أحيل والده على المعاش تعين في مكانه أستاذًا وطبيبًا للرمد في مدرسة الطب ومستشفى القصر العيني، وذلك في ٢ نوفمبر سنة ١٨٧٩، واستمر في وظيفته نحو ثلاثين عامًا ثم أحيل على المعاش، وأنعم عليه الخديوي عباس باشا برتبة الميرميران (باشا) في سنة ١٩٠٢م، ثم تولى العلاج في مارستان قلاوون بعد ذلك وتوفي سنة ١٩٠٨م.

(٣) **الدكتور سعد سامح بك:** ولد بالإسكندرية سنة ١٨٥١ وتعلم الطب وتخرج سنة ١٨٧١، وخدم طبيبًا بالجيش المصري، وتنقل بين وظائفه والوظائف المدنية إلى سنة ١٨٨٦، ثم سافر إلى باريس لإتقان فن الكحالة، وفي سنة ١٨٩٥ في عهد الخديوي عباس باشا الثاني عين طبيبًا كحالًا بمارستان قلاوون ومفتشًا صحيًّا في ديوان الأوقاف معًا. وفي سنة ١٨٩٨ أنعم عليه بالرتبة الثانية ويلقب صاحبها بلقب بك، وأحيل في سنة ١٩١١ على المعاش وتوفي في ٢٧ فبراير سنة ١٩١٧ ودفن بالقاهرة وله جملة مؤلفات منها:

(١) «مرشد الطبيب للعلاج المجيب» طبع ١٣١٦هـ/١٨٩٩م.

(٢) رسالة بالفرنسية طبعت في باريس سنة ١٨٩٠ عنوانها: Nouvelle etude sur la photoposopie.

(٣) رسالة في الالتهاب الملتحمي الغشائي الكاذب طبعت سنة ١٣١٢م.

(٤) تقرير بالفرنسية عنوانه Rapport sur l'oplithalmologie Egyptienne et les granulations en Egypt Le Caire ١٩٠٢ قدمه إلى المؤتمر الطبي الرمدي المنعقد في القاهرة في ١٩–٢٣ ديسمبرسنة ١٩٠٢م.

(٤) **الدكتور محمد شاكر بك:** تعلم علومه في مصر ثم أتم علومه في فرنسا، وعين أول الأمر طبيبًا بالخاصة الخديوية، وفي يناير سنة ١٩١٢ نقل إلى مارستان قلاوون عالج فيه الرمد إلى سنة ١٩١٥ حيث أحيل على المعاش.

(٥) **الدكتور محمد طاهر بك:** ولد بدمياط ونشأ بها وتعلم الطب بمدرسة القصر العيني، وتخرج سنة ١٩٠٤، وعين طبيبًا بمستشفيات الرمد المتنقلة التابعة لوقفية السير أرنست كاسل. وفي سنة ١٩٠٦ عين طبيبًا مساعدًا للرمد في مستشفى القصر العيني، وفي سنة ١٩٠٩ انتقل إلى مصلحة الصحة مفتشًا لمستشفيات الرمد. وفي سنة ١٩١٤ ألحق بوزارة الأوقاف وعين رئيسًا لمستشفى قلاوون إلى سنة ١٩١٨، ثم عين مدرسًا للرمد بمدرسة الطب في يونيو سنة ١٩١٢ ثم استقال في السنة نفسها.

(٦) **الدكتور سالم هنداوي بك:** ولد بسنجلف من أعمال إقليم المنوفية ونشأ بالقاهرة، وحصل على إجازة الطب في سنة ١٩١٠، وعمل في المستشفى العباسي الذي أنشأه الخديوي عباس باشا طبيبًا للرمد. وفي سنة ١٩١٨ عين مديرًا وكحالًا لبيمارستان قلاوون، ولا يزال يعمل فيه إلى الآن.

(١٠) البيمارستان المؤيدي

قال تقي الدين المقريزي:[١١٥] «هذا المارستان فوق الصوة تجاه طبلخاناه قلعة الجبل[١١٦] حيث كانت مدرسة الأشرف شعبان بن حسين[١١٧] التي هدمها الناصر فرج بن برقوق وبابه هو حيث كان باب المدرسة، إلا أنه ضيق عما كان أنشأه الملك المؤيد شيخ[١١٨] في مدة أولاها جمادى الآخرة سنة ٨٢١ وآخرها رجب سنة ٨٢٣، ونزل فيه المرضى في نصف شعبان، وعملت مصارفه من جملة أوقاف الجامع المؤيدي المجاور لباب زويلة، فلما مات المؤيد في ثامن المحرم سنة ٨٢٤ تعطل ثم سكنه طائفة من العجم المستجدين في ربيع الأول منها. وصار منزلًا للرسل الواردين من البلاد إلى السلطان، ثم عمل فيه منبر ورتب له خطيب وإمام ومؤذن وبواب وقومة، وأقيمت به الجمعة في شهر ربيع الآخر سنة ٩٢٥ فاستمر جامعًا تصرف معاليم أرباب وظائفه المذكورين من وقف الجامع المؤيدي.»

وقد ذكر تقي الدين المقريزي هذا المارستان في كتاب آخر من كتبه[١١٩] بالنص الآتي: في شهر ربيع الآخر سنة ٨٢٥هـ في سلطنة السلطان الملك الأشرف سيف الدين أبو النصر برسباي الدقماقي الظاهري الجركسي عمل المارستان المؤيدي الذي بالصوة تحت القلعة جامعًا تقام فيه الجمعة والجماعة، وكان المؤيد قد جعل هذا الموضع

[١١٥] الخطط والآثار ج ٢ ص ٤٠٨ طبع بولاق.

[١١٦] السكة الموصلة إلى المارستان لا تزال تسمى إلى اليوم حارة المارستان على يسار السالك من القلعة إلى شارع باب الوزير.

[١١٧] ابتدأ الملك الأشرف حسين بن محمد بن قلاوون بعمارة مدرسته التي أنشأها بالصوة في النصف الأوسط من صفر سنة ٧٧٧هـ (المنهل الصافي).

[١١٨] هو السلطان الملك المؤيد أبو النصر شيخ المحمودي الظاهري الجركسي الأصل، ولد قريبًا من سنة ٧٧٠هـ، وكان قدومه للقاهرة سنة ٧٨٣ هـ وهو ابن ١٢ سنة، اشتراه الخواجه محمود شاد اليزدي تاجر المماليك فنسب محموديًّا لذلك، وقدمه للملك الظاهر برقوق، وهو حينئذ أتابك العساكر، فأعتقه ونشأ ذكيًّا وجعله الإمام المستعين بالله رئيسًا لشوراه، وفي ٨ ربيع الأول سنة ٨١٥هـ/١٤١٢م ولاه الخليفة نيابة الملك وأشركه في سلطنته ولقبه بالملك المؤيد، ثم خلع الخليفة ونفاه بالإسكندرية في سنة ٨١٨هـ وأقام أخاه خليفة ولقبه المعتصد بالله، وفي المحرم سنة ٨٢٤ توفي الملك المؤيد، وكان يحب العلماء ويكرم مثواهم وقد أناف على الخمسين.

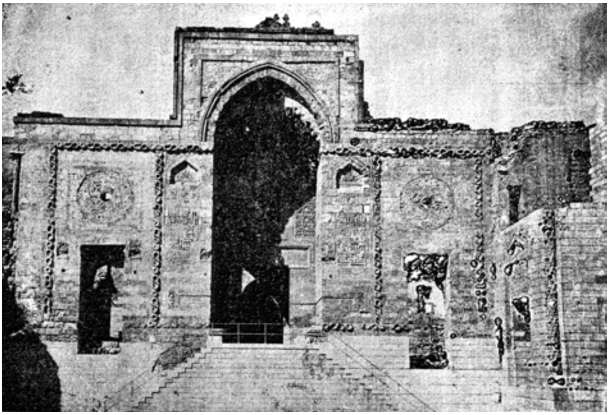
[١١٩] السلوك في معرفة دول الملوك ج ٤ ص ٤١٦ مخطوط.

مارستانًا ونزل به المرضى. فلما مات لم يوجد في كتاب الوقف المؤيدي له جهة مصرف، فأخرجت المرضى منه وأغلق وصار منزلًا للرسل الواردين من ملوك الشرق، فبقي حانة خمار برسم شرب المسكرات وضرب التنابير وعمل الفواحش، ومع ذلك تربط به الخيول، فكان هذا منذ مات المؤيد إلى هذا الوقت (توفي المقريزي سنة ٨٤٥هـ) فطهره الله من تلك الأرجاس وجلعه محل عبادة، ولقد تخرب هذا المارستان وامتدت إليه الأيدي بالهدم والبناء حتى ضاعت معالمه، وظل مجهولًا ومطموسًا بين العمارات والمساكن قرونًا عديدة لا يعرف مكانه ولا يعرف عنه شيء حتى قيض الله له لجنة حفظ الآثار العربية[١٢٠] فزارت مكانه وكتبت عنه تقريرًا في سنة ١٨٩٤ باعتباره أثرًا يستحق العناية والحفظ كغيره من الآثار، ولم يكن يرى فيه سوى أنه بناء أثري بجانب مسجد الحاج أحمد أبي غالية من الجهة القبلية في حارة السكري بشارع المحجر.

وكان الجدار الجنوبي أو القبلي لمسجد أبي غالية هو الوجهة البحرية من هذا البناء الأثري. وكان في هذا الجدار بعض النقوش والمقرنصات وفيه باب صغير تحت بوابة فخمة البناء لا تزال موجودة كاملة، ويبعد عن ذلك ببضع خطوات بعض جدران هذا الأثر القديمة وفيها بعض النوافذ.

وقد تبين للجنة أن مسجد أبي غالية يستند جداره القبلي على تلك البوابة الفخمة للمارستان المؤيدي ويحجبها عن الأنظار حجابًا تامًا، فقررت اللجنة لكشف هذا الأثر إزالة المسجد المستجد، فظهرت واجهة البيمارستان بجمالها وفخامتها ورونقها وما فيها من بديع النقوش والزخرفة، وعنيت اللجنة بإرجاع البيمارستان إلى حالته الأصلية بقدر ما تسمح به حال الموجود من آثاره. والمنتظر — نظرًا لصعوبات قضائية شرعية بالنسبة لإزالة مسجد الحاج أحمد أبي غالية — تحويل المارستان بعد ترميمه وإصلاحه إلى مسجد أو مصلى، وذلك تحقيقًا لتمسك المحكمة الشرعية بإعادة بناء مسجد أبي غالية.

[١٢٠] مجموعة لجنة حفظ الآثار العربية أعمال سنة ١٨٩٤م ص ١١٤.



شكل ٢-٧: الواجهة والباب للبيمارستان المؤيدي.

وقف البيمارستان المؤيدي

لما أنشأ الملك المؤيد شيخ المحمودي الجامع العامر الرحب بباب زويلة وأنشأ خانقاه للصوفية والبيمارستان للمرضى والصهاريج للسقاية، أوقف على ذلك كله أوقافًا جمة من عقار وطين وكتاب وقفه مذكور في الخطط التوفيقية[١٢١] لعلي مبارك باشا بالتفصيل الوافي فاختصرناها وأثبتنا هنا منها ما يخص البيمارستان فقط، وهنا بعض ما اخترناه منها:

> ... ومن هذه الأوقاف الكبيرة العظيمة يرتب طبيبًا طبائعيًا وكحالًا وجراحًا و... إلخ ولكل منهم ثلاثون نصفًا في الشهر، وجعل النظر عليه لنفسه ثم للأرشد فالأرشد من ذريته الذكور خاصة، لكن بالاشتراك مع من يكون داودارًا كبيرًا ومع كاتب السر مجتمعين غير منفردين، فإن تعذر لذريته كان النظر للداودار وكاتب السر معًا، ويصرف لكل منهما خمسمائة نصف شهريًّا، وإن تعذر فلحاكم المسلمين بالديار المصرية.

[١٢١] الخطط التوفيقية لعلي مبارك باشا ج ٥ ص ١٢٥.

وتاريخ الحجة رابع جمادى الآخرة سنة ٨٢٣هـ/ ١٤٢٠م.

الفصل الثالث

بيمارستانات العراق والجزيرة

بيمارستانات بغداد

(١) بيمارستان الرشيد

أمر هارون الرشيد خامس خلفاء بني العباس والذي تولى الخلافة سنة ١٧١هـ/٧٨٦م جبريل بن بختيشوع[١] أن ينشئ بيمارستانًا في بغداد، فأنشأه ورشح لرياسته ماسويه الخوزي من أطباء بيمارستان جنديسابور وتولى جبريل رعايته.

(٢) بيمارستان البرامكة

جاء في كتاب الفهرست:[٢] أن من نقلة الهند والنبط ابن دهني الهندي وكان إليه بيمارستان البرامكة، ونقل إلى العربي من اللسان الهندي، وجاء فيه أيضًا عن كتاب أنه تفسير ابن دهني صاحب البيمارستان، فيفهم من ذلك أنه كان للبرامكة في بغداد بيمارستان وكان ابن دهن طبيبًا له.

[١] تاريخ الحكماء لابن القفطي ص ٣٨٣ طبع ليبسيك وعيون الأنباء ج ١ ص ١٧٤.

[٢] كتاب الفهرست لابن النديم ص ٢٤٥.

(٣) بيمارستان أبي الحسن علي بن عيسى

في سنة[٣] ٣٠٢هـ/ ٩١٤م اتخذ الوزير أبو الحسن علي بن عيسى بن الجراح[٤] البيمارستان بالحربية[٥] وأنفق عليه من ماله وقلده أبا عثمان سعيد بن يعقوب الدمشقي متطببه وهو أحد النقلة المجيدين وكان منقطعًا إليه.

[٣] عيون الأنباء ج ١ ص ٢٧٤.

[٤] هو أبو الحسن علي بن عيسى بن داود بن الجراح البغدادي الكاتب الوزير، وزر للمقتدر والقاهر وحدث عن أحمد بن شعيب النسائي والحسن بن محمد الزعفراني وحميد بن الربيع، وروى عنه ابن عيسى والطبراني وأبو طاهر الهذلي، وكان صدوقًا دينًا خيرًا صالحًا عالمًا من خيار الوزراء، وكان كثير البر والمعروف والصلاة والصيام ومجالسة العلماء. قال الصولي: ما أعلم أنه وزر لبني العباس وزير يشبه علي بن عيسى في زهده وعفته وحفظه للقرآن وعلمه بمعانيه وصدقاته ومبراته. كان دخل علي بن عيسى من ضياعه في كل سنة نيفًا وثمانين ألف دينار ينفق نصفها على الفقراء والضعفاء ونصفها على نفسه وعياله وأصحابه، وقف وقوفًا كثيرة من ضياع السلطان وأفرد لها ديوانًا سماه ديوان البر جعل حاصله لإصلاح الثغور وللحرمين الشريفين، وكان يجلس لرد المظالم من الفجر إلى العصر واقتصر على أقل الطعام وأخشن الملبوس، توفي يوم الجمعة من شهر ذي الحجة سنة ٣٣٤هـ، وقيل سنة ٣٣٥، وله مؤلفات عظيمة مثل: كتاب جامع الدعا، وكتاب معنى القرآن وتفسيره، وكتاب الكتاب، وسياسة المملكة، وسيرة الخلفاء.

[٥] الحربية محلة مشهورة ببغداد عند باب حرب قرب مقبرة أحمد بن حنبل ينسب إلى حرب بن عبد الله البلخي أحد قواد أبي جعفر المنصور.

(٤) بيمارستان بدر[٦] غلام المعتضد

قال ثابت[٧] بن سنان بن ثابت بن قرة في بيمارستان بدر ما يأتي: كانت النفقة على البيمارستان الذي لبدر غلام المعتضد بالمخرم[٨] من ارتفاع وقف سجاح أم المتوكل على الله. وكان الوقف في يدي أبي الصقر وهب بن محمد الكلوذاني، وكان قسط من ارتفاع هذا الوقف يصرف إلى بني هاشم، وقسط إلى نفقة البيمارستان، وكان أبو الصقر يروح علي بني هاشم ما لهم ويؤخر ما يصرف إلى نفقة البيمارستان ويضيقه، فكتب والدي (أي والد ثابت وهو سنان بن ثابت بن قرة) إلى أبي الحسن علي بن عيسى بن الجراح يشكو إليه هذه الحال، ويعرفه ما لحق المرضى من الضرر بذلك وقصور ما يقام لهم من الفحم والمؤن والدثار، وغير ذلك عن مقدار حاجتهم؛ فوقع على ظهر رقعته إلى أبي الصقر توقيعًا نسخته: «أنت أكرمك الله تقف على ما ذكره وهو غليظ جدًّا، والكلام فيه معك خاصة فيما يقع منك يلزمك، وما أحسبك تسلم من الإثم فيه، وقد حكيت عني في الهاشميين قولًا لست أذكره، وكيف تصرفت الأحوال في زيادة المال أو نقصانه ووفوره أو قصوره، ولا بد من تعديل الحال فيه بين أن تؤخذ منه وتجعل للبيمارستان قسطًا، بل هو أحق بالتقدم على غيره لضعف من يلجأ إليه وعظيم النفع به، فعرفني أكرمك الله ما النكتة في قصور المال ونقصانه في تخلف نفقة المارستان هذه الشهور المتتابعة، وفي هذا الوقت خاصة مع الشتاء واشتداد البرد. فاحتل بكل حيلة لما يطلق لهم ويعجل حتى يدفأ من في البيمارستان من المرضى والممرورين بالدثار والكسوة والفحم، ويقام

[٦] بدر أبو النجم مولى المعتضد بالله المعروف بالحمامي (نسبة إلى الطير) ويسمى بدر الكبير، وكان أبو بدر اسمه خير، من مماليك الموفق ثم تقدم بدر عند المعتضد بالله وولي الإمارة في بلدان جليلة، وتولى الأعمال بمصر مع ابن طولون إلى أن فسد أمر ابن طولون وقتل، فقدم بدر بغداد وأقام بها مدة ثم ولاه السلطان بلاد فارس كلها وأقام هناك مدة، إلى أن توفي في شهر ربيع الأول سنة ٣١١هـ، وذكر أبو نعيم أنه كان عبدًا صالحًا حدث وروي عنه، وقام بالأمر بعده ابنه محمد، وقيل إن من أكبر مناقب بدر أنه كان من أكبر السعاة في الحسين بن منصور الحلاج حتى قتل، وكان كثير المال كريمًا سخيًّا كثير المروءة.

[٧] كتاب عيون الأنباء ج ١ ص ٢٢١.

[٨] المخرم محلة كانت ببغداد وهو منسوب إلى مخرم بن يزيد بن شريح بن مخرم بن مالك، كان ينزله أيام نزول العرب السواد في بدء الإسلام قبل أن تعمر بغداد، وهي بين الرصافة ونهر المعلى.

لهم القوت ويفصل لهم العلاج والخدمة، وأجبني بما يكون منك في ذلك، وأنفذ لي عملًا يدلني على حجتك واعن بأمر المارستان فضل عناية إن شاء الله.»

(٥) بيمارستان السيدة

في أول المحرم[٩] سنة ٣٠٦هـ فتح أبو سعيد بن ثابت بيمارستان السيدة[١٠] أم المقتدر، وقد اتخذه بسوق يحيى[١١] على نهر دجلة وجلس فيه ورتب ببغداد المتطببين وقبل المرضى. وكانت النفقة عليه في كل شهر ستمائة دينار على يدي يوسف بن يحيى المنجم، لأن سنان لم يدخل يده في شيء من نفقات البيمارستان،[١٢] وقال ابن تغري بردي:[١٣] كان مبلغ النفقة عليه في العام سبعة آلاف دينار.

---

[٩] ابن أبي أصيبعة ج ١ ص ٢٢٢.

[١٠] السيدة أم المقتدر هي شغب جارية المعتضد أم أمير المؤمنين جعفر المتقدر بالله الخليفة، الملقبة بالسيدة، كان دخل أملاكها في كل سنة ألف ألف دينار، وكانت تتصدق بها وتخرج من عندها مثلها على الحجيج في أشربة وأزواد وأطباء يكونون معهم وتسهيل الطرقات والموارد، وكانت في غاية الحشمة والرياسة ونفوذ الكلمة أيام خلافة ولدها، فلما قتل كانت مريضة بالاستسقاء فزاد مرضها وجزعت لقتله جزعًا شديدًا، ولما استقر أمر الخلافة لابن زوجها المعتضد وهو القاهر، وقد كانت حضنته حين توفيت أمه وخلصته من ابنها، وكان مؤنس الخادم قد بايعه ولم يتم ذلك عاقبها القاهر عقوبة عظيمة جدًّا ليقررها على الأموال التي في يدها، فلم يجد لها سوى ثيابها ومصاغها وحليها في صناديق لها قيمتها مائة ألف وثلاثون ألف دينار، وجميع ما كان يدخلها تتصدق به، ووقفت شيئًا كثيرًا، وأخرجت إلى دار ابن ياقوت فأقامت بعد ابنها سبعة أشهر وثمانية أيام، ثم ماتت في جمادى الأولى سنة ٣٢١هـ ودفنت بالرصافة، وكانت صالحة دينة.

[١١] سوق يحيى ببغداد بالجانب الشرقي بين الرصافة ودار المملكة التي كانت عند جامع السلطان بين بساتين الزاهر على شاطئ دجلة منسوبة إلى يحيى بن خالد البرمكي، كانت إقطاعًا له من الرشيد ثم صارت بعد البرامكة لأم جعفر، ثم خربت بعد ورود السلجوقيين إلى بغداد فلم يبق منها أثر ألبتة.

[١٢] ابن القفطي ص ١٩٥ طبع ليبزيج.

[١٣] النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢٠٣ طبع ليدن.

(٦) البيمارستان المقتدري[١٤]

في سنة ٣٠٦هـ أشار سنان بن ثابت بن قرة[١٥] على الخليفة المقتدر بالله أن يتخذ بيمارستانًا ينسب إليه، فأمره باتخاذه فاتخذ له في باب الشام[١٦] وسماه البيمارستان المقتدري، وأنفق عليه من ماله في كل شهر مائتي دينار.[١٧]

الأطباء الذين خدموا البيمارستان المقتدري

(١) **يوسف الواسطي**[١٨] الطبيب، كان ملازمًا لبيمارستان المقتدر وقرأ عليه جبريل بن بختيشوع.

(٢) **جبريل بن عبيد الله** بن بختيشوع، كان عالمًا فاضلًا متقنًا لصناعة الطب، كان من أطباء المقتدر ولازم البيمارستان والعلم والدرس، أقام ببغداد ثلاثين سنة ثم دخل إلى ميا فارقين عند الأمير ممهد الدولة، وتوفي يوم الجمعة ثامن رجب سنة ٣٩٦ وكان عمره ٨٥ سنة.

[١٤] نسبة للخليفة المقتدر بالله جعفر بن المعتضد بن الموفق بن المتوكل على الله بن المعتصم بن هارون الرشيد، مولده في ليلة الجمعة لثمان بقين من رمضان سنة ٢٣٢هـ وأمه أم ولد اسمها شغب. بويع بالخلافة يوم الأحد ١٤ ذي القاعدة سنة ٢٤٥ وقد كان كريمًا جوادًا له عقل جيد وفهم وافر، وكان كثير التنفل بالصلاة والصوم والعبادة. ولكنه كان مؤثرًا لشهواته مطيعًا لحظياته كثير التلون والولاية والعزل، وما زال كذلك حتى قتل عند باب الشماسية لليلتين بقيتا من شوال سنة ٢٧٠.

[١٥] ابن أبي أصيبعة ج ١ ص ٢٢٢هـ.

[١٦] باب الشام محلة بالجانب الغربي من بغداد.

[١٧] ابن القفطي ص ١٩٤ طبع ليبزيج.

[١٨] ابن أبي أصيبعة ج ١ ص ١٤٤.

(٧) بيمارستان ابن الفرات

قال أبو الحسن ثابت بن سنان بن قرة[١٩] في سنة ٣١٣ قلدني الوزير الخاقاني[٢٠] البيمارستان الذي اتخذه ابن الفرات[٢١] درب المفضل ينفق عليه من ماله في كل شهر مائتي دينار.

(٨) بيمارستان الأمير أبي الحسن يحكم

قال ثابت بن سنان بن ثابت بن قرة: لما مات الراضي بالله استدعى الأمير أبو الحسن يحكم[٢٢] والدي سنانًا وسأله أن ينحدر إلى واسط ثم أمره فعمل بواسط في وقت المجاعة[٢٣] دار ضيافة وببغداد بيمارستانًا[٢٤] يعالج فيه الفقراء ويعللون، وأنفق في ذلك جملة، ورفه الرعية وأرفقها[٢٥] وأكرم سنانًا غاية الإكرام.

[١٩] ابن أبي أصيبعة ج ١ ص ٢٢٤.

[٢٠] هو أبو علي محمد بن عبيد الله بن يحيى بن خاقان وزير المقتدر استوزره المقتدر بعد قبضه على ابن الفرات.

[٢١] هو أبو الحسن علي بن محمد بن موسى بن الفرات وزير المقتدر، وزر له ثلاث دفعات، الثالثة سنة ٣١١، وبنو الفرات من صريفين من أعمال دجيل، وهم من أجل الناس فضلًا، وكان هذا أبو الحسن علي بن الفرات من أجل الناس وأعظمهم كرمًا وجودًا، وكانت أيامه مواسم للناس، حدث عنه أنه قال: ما رأيت أحدًا ببابي من أرباب الحوائج إلا كان اهتمامي بالإحسان إليه أشد من اهتمامه. وله حكايات تدل على الحكمة والتعقل والحلم، وما زال ابن الفرات يتنقل في الوزارة إلى المرة الثالثة فقبض عليه وقتل وذلك سنة ٣١٢هـ.

[٢٢] هو بجكم التركي الذي تولى إمرة الأمراء ببغداد قبل بني بويه، وكان عاقلًا يفهم العربية ولا يتكلم بها يقول: أخاف أن أخطئ والخطأ من الرئيس قبيح. وكان مع ذلك يحب العلم وأهله، كان كثير الأموال والصدقات، ابتدأ بعمل المارستان ببغداد فلم يتم، فجدده عضد الدولة بن بويه، وكان يدخر أموالًا كثيرة، وكانت وفاته لسبع بقين من رجب سنة ٣٢٩هـ، وكانت إمرته على بغداد سنتين وثمانية أشهر وتسعة أيام.

[٢٣] ابن القفطي ص ١٩٣.

[٢٤] ابن أبي أصيبعة ج١ ص ٢٣٤.

[٢٥] ابن أبي أصيبعة ج١ ص ٢٢٤.

(٩) بيمارستان معز الدولة بن بويه

في سنة ٣٥٥هـ[٢٦] ابتدأ معز الدولة بن بويه[٢٧] في بناء مارستان وأرصد له أوقافًا. وفي المرآة (لسبط بن الجوزي): أنه في سنة ٣٥٥ أمر معز الدولة أن يبني موضع السجن المعروف بالجديد ببغداد مارستانًا، وأمر أن يوقف عليه الأوقاف، وأن يكون مغل الضياع الموقوفة عليه في كل سنة خمسة آلاف دينار، فمات قبل أن يتم.

(١٠) البيمارستان العضدي

في صفر من سنة ٣٧٢هـ فتح البيمارستان العضدي[٢٨] الذي أنشأه عضد الدولة بن بويه في الجانب الغربي من بغداد، ورتب فيه الأطباء والخدم والوكلاء والخزان، ونقل إليه من الأدوية والأشربة والعقاقير شيء كثير ومن كل ما يحتاج إليه. قال عبيد الله بن جبريل[٢٩] إنه لما عمر عضد الدولة[٣٠] البيمارستان الجديد الذي على طرف الجسر

---

[٢٦] عقد الجمان للعيني حوادث سنة ٣٥٥ وعيون التواريخ لمحمد شاكر الكتبي.

[٢٧] هو أبو الحسن أحمد بن أبي شجاع بويه بن قنا خسرو بن تمام ابن كوهي إلخ من ولد يزدجرد آخر ملوك الفرس، ويلقب معز الدولة، وهو عم عضد الدولة وأحد ملوك الديلم. وكان صاحب العراق والأهواز، وكان يقال له الأقطع، لأنه كان مقطوع اليد اليسرى وبعض أصابع اليد اليمنى إثر حرب. دخل بغداد من طريق الأهواز متملكًا يوم السبت لإحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى سنة ٣٣٤هـ في خلافة المستكفي، وكانت مدة ملكه العراق إحدى وعشرين سنة وأحد عشر شهرًا، وتوفي يوم الاثنين ١٧ ربيع الآخر سنة ٣٥٦ هـ، ودفن في مشهد بني له في مقابر قريش، ومولده سنة ٣٠٣هـ، وكان عمره يوم توفي ٥٣ سنة، ولما توفي ملك موضعه ولده عز الدولة أبو النصر بختيار.

[٢٨] البداية والنهاية لابن كثير وتاريخ الإسلام للذهبي.

[٢٩] ابن أبي أصيبعة ج ١ ص ٣١٠.

[٣٠] عضد الدولة هو أبو شجاع قناخسرو بن ركن الدولة أبو علي الحسن بن بويه الديلمي، أحد ملوك الديلم صاحب العراق وملك بغداد. وهو أول من تسمى شاهنشاه ومعناه ملك الملوك، ولم يبلغ أحد من ملوك الديلم ما بلغه عضد الدولة من سعة الملك والاستيلاء على الملوك وممالكهم. وهو أول من خطب له ببغداد مع الخليفة، وكان ذا همة وصرامة وعزم، وقد جرى له من التعظيم من الخليفة ما لم يقع لأحد ممن كان قبله، واجتهد في عمارة بغداد والطرقات وأجرى النفقات والصدقات على المجاورين بالحرمين وأهل البيوتات، وحفر الأنهار وبنى المارستان العضدي، وكان عاقلًا فاضلًا شديد الهيبة، وكان يحب العلم والفضيلة، وقد امتدحه الشعراء بمدائح هائلة كالمتنبي وغيره فمن قول المتنبي فيه:

من الجانب الغربي من بغداد، كان من الذين جمعهم فيه من كل موضع وأمر الراتب منه أربعة وعشرون طبيبًا، وكان من جملتهم أبو الحسن علي بن إبراهيم بن بكس، وكان دأبه أن يدرس فيه الطب لأنه كان محجوبًا، وكان منهم أبو الحسن بن كشكرايا المعروف بتلميذ سنان، وأبو يعقوب الأهوازي وأبو عيسى بقية، ونظيف النفس الرومي، وبنو حسون وجماعة طبائعيون. قال عبيد الله: وكان والدي جبريل قد أصعد على عضد الدولة من شيراز، ورتب في جملة الطبائعيين في البيمارستان، وفي جملة الأطباء الخواص، قال: فكان في البيمارستان مع هؤلاء من الكحالين الفضلاء أبو النصر الدحني، ومن الجراحين أبو الخير وأبو الحسن بن تفاح وجماعة، ومن المجبرين المشار إليهم أبو الصلت. قال ابن خلكان:[٣١]

> والبيمارستان العضدي ببغداد هو في الجانب الغربي وغرم عليه مالًا عظيمًا، وليس في الدنيا مثل ترتيبه، وفرغ من بنائه سنة ٣٦٨هـ/٩٧٨م، وأعد له من الآلات ما يقصر الشرح عن وصفه.

هي الغرض الأقصى ورؤيتك المنى   ومنزلك الدنيا وأنت الخلائق

وقال أبو بكر أحمد الأرجاني:

لقيته فرأيت الناس في رجل   والدهر في ساعة والأرض في دار

وقد ذكر أن له شعرًا فمن قوله:

ليس شرب الكأس إلا في مطر   وغناء من جواري في السحر

إلى أن قال:

عضد الدولة وابن ركنها   ملك الأملاك غلاب القدر

فيقال إنه مذ قال (غلاب القدر) لم يفلح بعدها. ثم كانت وفاته بعد ذلك في شوال سنة ٣٧٢ بعلة الصرع عن سبع أو ثمان وأربعين سنة، وحمل إلى مشهد علي فدفن فيه وكان فيه تشيع.

[٣١] وفيات الأعيان ترجمة عضد الدولة.

وقال جمال الدين بن القفطي: «لما عمر عضد الدولة قناخسرو البيمارستان ببغداد جمع إليه من الأطباء من كل موضع، فاجتمع فيه أربعة وعشرون طبيبًا، وابن مندويه الأصفهاني واحد منهم، وفي سنة ٤٠٨[32] توفي الحاجب الكبير الشباسي أبو نصر مولى شرف الدولة بن بهاء الدولة ولقبه بهاء الدولة بن بويه بالسعيد، وكان كثير الصدقة والأوقاف على وجوه القربان، فمن ذلك أنه وقف ضياعًا على المارستان، وكانت تغل شيئًا كثيرًا من الزرع والثمار والخراج. وقال العيني:[33] «استهلت سنة ٤٤٩هـ والخليفة القائم بأمر الله والسلطان طغر لبك، في هذا الوقت نظر عميد الممالك في المارستان العضدي، وكان قد خلا من دواء وشراب، وكان المرضى على وجه الأرض، فوجد عند رأس المريض بصلة يشمها، وعطش بعضهم فقام بنفسه إلى حيث الماء فوجد فيه حمأة ودودًا. وكان أبو الحسين بن المهتدي ويعرف بابن العريق قد عرف أن يهوديًّا يعرف بالهاروني استولى عليه وأكل أوقافه، فاستخلصها من المتغلبين عليها وشرع في العمارة، وخلص المارستان من أيدي الطامعين، فهاب المتغلين بخمسة آلاف طابق وقيل بعشرة آلاف، وكان على بابه سوق فيه مائة دكان قد دثرت فأعادها، وجمع فيه من الأشربة والأدوية والعقاقير التي يعز وجودها شيئًا كثيرًا، وأقام الفرش واللحف للمرضى، والأراييح الطبية والأسرة والثلج والمستخدمين والأطباء والفراشين. وكان فيه ثمانية وعشرون طبيبًا ونساء طباخات وبوابون وحراس، والحمام، والبستان إلى جانبه فيه أنواع الثمار والبقول، والسفن على مائة تنقل الضعفاء والفقراء، والأطباء يتناوبونهم بكرة وعشية ويبيتون عندهم بالنوبة. وكان فيه عدة جباب (جمع جب وهو الخابية) فيها السكر الطبرزد والأبلوج واللوز والمشمش والخشخاش وسائر الحبوب، والبراني الصينية فيها العقاقير، وأربع قواصر فيها الإهليلج الأصفر والكابلي والهندي، وأربع قواصر تمر هندي وزنجبيل وعود وند ومسك وعنبر، والرواند الصيني في البراني والترياق الفاروقي وجميع الأفاويه، وصناديق فيها أكفان وقدور كبار وصغار وآلات وأربعة وعشرون فراشًا. وذكر ابن صابي أشياء ما يوجد في دور الخلفاء مثلها.

---

[32] البداية والنهاية لابن كثير ج ١١ ص ٨٨٦ حوادث هذه السنة.

[33] عقد الجمان حوادث سنة ٤٤٩هـ.

وفي سنة[٣٤] ٥٦٩هـ/١١٧٣م في رمضان كان الزمان ربيعًا فتوالت الأمطار في ديار بكر والجزيرة والموصل فدامت أربعين يومًا، فما رأينا الشمس فيها غير مرتين (هذا قول ابن الأثير) كل مرة مقدار لحظة، وخربت المساكن وغيرها وكثرة الهدم ومات تحته كثير من الناس، وزادت دجلة زيادة عظيمة، وكان أكثرها ببغداد، فإنها زادت على كل زيادة تقدمت منذ بنيت بغداد بذراع وكسر، وخاف الناس الغرق وفارقوا البلد وأقاموا على شاطئ دجلة خوفًا من انفتاح القورج (بمعنى السور أو السد) وغيره، وكانوا كلما انفتح موضع بادروا بسده، ونبع الماء في البلاليع وخرب كثير من الدور، ودخل الماء إلى المارستان العضدي، ودخلت السفن من الشبابيك التي له، فإنها كانت قد تقلعت، فمن الله على الناس بنقص الماء بعد أن أشرفوا على الغرق، وفي يوم ٣ صفر[٣٥] سنة ٥٨٠هـ (١٧ مايو سنة ١١٨٤م) دخل أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير بغداد سائحًا ونزل في محلة منها، وكل محلة منها مدينة مستقلة. ومعلوم أن محلاتها كلها في الجانب الغربي من نهر دجلة، أما الجانب الشرقي فكانت عمارته محدثة قال: وبين الشارع ومحلة باب البصرة سوق المارستان، وهي مدينة صغيرة فيها المارستان الشهير ببغداد وهو على دجلة، وتتفقده الأطباء كل يوم اثنين وخميس ويطالعون أحوال المرضى به، ويرتبون لهم أخذ ما يحتاجون إليه وبين أيديهم قومة يتناولون طبخ الأدوية وجميع مرافق المساكن الملوكية والماء يدخل إليه من دجلة. ومن الحوادث التاريخية العظيمة التي لها اتصال بهذا المارستان صلب محمد بن محمد ابن بقية وزير عز الدولة، قتله عضد الدولة بن بويه لما ملك بغداد بعد أخيه، لما كان يبلغه عنه من الأمور القبيحة، ثم صلبه بحضرة المارستان العضدي، وذلك يوم الجمعة لست خلت من شوال سنة ٣٦٧، ورثاه أبو الحسن محمد بن عمر بن يعقوب الأنباري بقصيدة مشهورة لم يرث مصلوب بأحسن منها وأولها:[٣٦]

علو في الحياة وفي الممات   بحقٍّ أنت إحدى المعجزات

[٣٤] ابن الأثير حوادث سنة ٥٦٩.

[٣٥] رحلة ابن جبير ص ٢٢٥ طبع ليدن.

[٣٦] الوافي بالوفيات للصلاح الصفدي ج ١ ص ١٠١ طبع اسطنبول.

كأن الناس حولك حين قاموا — وفـود نـداك أيـام الـصـلات
كـأنـك قـائـم فـيـهـم خـطـيبًا — وكـلـهـم قـيـام لـلـصـلاة
مددت يديك نحوهم احتفاء — كـمدهـمـا إلـيـهـم بـالـهـبـات
ولما ضاق بطن الأرض عن أن — يضم علاك من بعد الممات
أصاروا الجو قبرك واستنابوا — عن الأكفان ثوب السافيات
لعظمك في النفوس تبيت تُرعى — بـحـفـاظ وحـراس ثـقـات
وتشعل عندك النيران ليلًا — كـذلـك كـنـت أيـام الـحـيـاة

كتبها الشاعر المذكور ورمى بها نسخًا في شوارع بغداد، فتداولها الأدباء إلى أن وصل خبرها إلى عضد الدولة، وأنشدت بين يديه، فتمنى أن يكون هو المصلوب.

الأطباء الذين عملوا بالبيمارستان العضدي

الأطباء الذين عملوا بالبيمارستان العضدي كثيرون نذكر منهم:

(١) **جبريل بن عبيد الله بن بختيشوع:** تقدم ذكره في البيمارستان المقتدري.

(٢) **أبو الحسن علي بن إبراهيم بن بكس:** نقل كتبًا كثيرة إلى العربية ثم كف بصره وكان مع ذلك يحاول صناعة الطب، توفي سنة ٣٩٤هـ.

(٣) **أبو الحسن علي بن كشكرايا:** كان طبيبًا مشهورًا ببغداد، وكان في خدمة الأمير سيف الدولة بن حمدان، ولما بنى عضد الدولة البيمارستان استخدمه فيه.

(٤) **أبو يعقوب الأهوازي:** كان من جملة الأطباء الذين جعلهم عضد الدولة في البيمارستان الذي أنشأه ببغداد وجعله من جملة المرتبين فيه للطب.

(٥) **أبو عيسى بقية:** كان ضمن الأطباء الذين اختارهم عضد الدولة للعمل في البيمارستان.

(٦) **نظيف النفس الرومي:** كان خبيرًا باللغات، وكان ينقل عن اليوناني إلى العربي، وكان يعد من الفضلاء في صناعة الطب، استخدمه عضد الدولة في بيمارستانه وكان يتطير به.

(٧) **أبو الخير الجرائحي:** خبير قيم مشهور الصناعة ممن اختارهم عضد الدولة.

(٨) **أبو الحسن بن تفاح:** جراح مشهور اختاره عضد الدولة للبيمارستان.

(٩) **الصلت:** من المجبرين المشهورين الذين اختارهم عضد الدولة.

(١٠) **أبو نصر الدحني:** من الكحالين.
(١١) **بنو حسون:** من الأطباء الذين اختارهم عضد الدولة للبيمارستان عند إنشائه.
(١٢) **عبد الرحيم بن علي المرزبان:** أبو أحمد الطبيب المرزباني كان من أهل أصبهان عالمًا فاضلًا بعلم الشريعة وعلم الطبيعة، تقدم في الدولة البويهية، وكان قاضيًا بتستر وخوزستان، وكان إليه أمر البيمارستان بمدينة السلام، ولم يزل على ذلك إلى أن توفي بتستر في جمادى الأولى سنة ٣٩٦هـ.
(١٣) **أبو الفرج عبد الله بن الطيب** هو الفيلسوف الإمام العالم أبو الفرج عبد الله بن الطيب، اعتنى بشرح كتب كثيرة من كتب أرسطوطاليس في المنطق، وكتب جالينوس في الطب، وكان يقرئ صناعة الطب في البيمارستان العضدي ويعالج المرضى فيه، وكان معاصرًا للشيخ الرئيس ابن سينا، وتتلمذ له جماعة سادوا وأفادوا كالمختار بن الحسن المعروف بابن بطلان وابن بدروج والهروي وبنو حيون وعلي بن عيسى وأبو الحسن البصري وغيرهم، وتوفي سنة ٤٣٥هـ/١٠٤٣م.
(١٤) **أبو الحسن بن سنان** بن ثابت بن قرة الصابي: من البيت المشهور في الطب وهم آل سنان، وكان ساعور البيمارستان ببغداد وكان في حدود سنة ٤٣٩، ولم يكن بالمقصر في صناعة الطب عن مرتبة أسلافه من آبائه وأجداده ونسبائه.
(١٥) **هارون بن صاعد** بن هارون الصابي الطبيب أبو نصر: كان مقدم الأطباء وساعورهم في البيمارستان العضدي، توفي ليلة الخميس الثالث من رمضان سنة ٤٤٤هـ/١٠٥٢م.
(١٦) **أبو الحسن علي** بن هبة الله بن الحسن: من الأطباء المتميزين في صناعة الطب، كان في أيام المقتدي بأمر الله وخدمه بصناعة الطب، وخدم ولده المستظهر بالله، وكان يتولى مداواة المرضى في البيمارستان العضدي. ولد ليلة السبت في ٢٣ جمادى الآخرة سنة ٤٣٦هـ/١٠٤٤م، وتوفي ليلة الأحد سادس ربيع الأول ٤٩٥هـ/١١٠١م.
(١٧) **أمين الدولة** بن التلميذ هو موفق الملك أمين الدولة أبو الحسن هبة الله ابن أبي العلي صاعد بن إبراهيم بن التلميذ: كان والده أبو العلي صاعد طبيبًا مشهورًا، وكان جده لأمه الحكيم معتمد الملك أبو الفرج يحيى بن التلميذ، فلما توفي نسب إليه. خدم الخلفاء من بني العباس وارتفعت مكانته لديهم وانتهت إليه رياسة الصناعة ببغداد، وكان ساعور البيمارستان العضدي إلى حين وفاته، وكان خبيرًا باللسان السرياني والفارسي ومتبحرًا في اللغة العربية، عمر طويلًا وكان يحضر عند المقتفي كل أسبوع مرة فيجلسه لكبر سنه. وتوفي في صفر سنة ٥٦٠هـ/١١٦٤م وله من العمر ٩٤ سنة.

(١٨) **جمال الدين** بن أثردي هو أبو الغنايم سعيد بن هبة الله بن أثردي: من الأطباء المشهورين ببغداد، وكان ساعورًا للبيمارستان العضدي ومتقدمًا في أيام الإمام المقتفي لأمر الله.

(١٩) **ابن المارستانية** هو أبو بكر بن عبد الله بن أبي الفرج علي بن نصر بن حمزة عرف بابن المارستانية: كان فاضلًا في صناعة الطب وسمع شيئًا من الحديث، وكان عنده تمييز وأدب وتولى نظر البيمارستان العضدي. توفي في ذي الحجة سنة ٥٩٩هـ بموضع يقال له جرخ بند ودفن هناك.

(٢٠) **أبو علي بن أبي الخير** مسيحي بن العطار النصراني النيلي الأصل البغدادي المولد والمنشأ وهو ابن مسيحي بن أبي البقاء: تقدم في زمن أبيه بسمعته وجاهه وجعل ساعورًا للبيمارستان. وكان قليل التحفظ في أمر دينه ودنياه، وكان جاه أبيه يستره، فلما مات أبوه سنة ٦٠٨ زال من كان يحترمه لأجله.

(١١) بيمارستان محمد بن علي بن خلف ببغداد

قال الذهبي[٣٧] إن محمد بن علي بن خلف الوزير فخر الملك أبو غالب الصيرفي[٣٨] أنشأ بيمارستانًا ببغداد قل أن عمل مثله.

[٣٧] تاريخ الإسلام للذهبي حوادث سنة ٤٠١–٤١٦هـ.

[٣٨] هو محمد بن علي بن خلف الوزير فخر الملك أبو غالب بن الصيرفي، ولي وزارة بغداد في أيام القادر بالله، فعمر البلاد ونشر العدل والإحسان، ولد بواسط في ربيع الأول سنة ٣٥٤هـ، وكان أبوه صيرفيًا بديوان واسط، فنشأ في الديوان وتنقلت به الأحوال حتى ولي الوزارة، وناب لبهاء الدولة بفارس ثم ولي وزارة العراق سنة ٤٠١، فلم يزل حاكمًا عليها حتى قتله مخدومه سلطان الدولة بن السلطان بهاء الدوبة بن عضد الدولة بنواحي الأهواز في سنة ٤٠٧هـ، وكان طلق الوجه جوادًا، جمع بين الحلم والكرم وجمع بين الكتابة والكفاءة وكبر الهمة.

(١٢) بيمارستان واسط

في سنة ٤١٣هـ[٣٩] أنشأ مؤيد الملك أبو علي الحسن بن الحسن الرخجي[٤٠] وزير شرف الدولة بن بهاء الدولة مدبر دولة الخليفة القادر بالله في العراق جميعه، بيمارستانًا بواسط، وأكثر فيه من الأدوية والأشربة والعقاقير، ورتب له الخزان والأطباء وغير ذلك مما يحتاج إليه ووقف عليه الوقوف الكثيرة.

(١٣) البيمارستان الفارقي بميافارقين

قال ابن أبي أصيبعة:[٤١] إن زاهد العلماء هو الذي بنى بيمارستان ميافارقين[٤٢] وحدثني الشيخ سديد الدين بن رقيقة الطبيب: أن سبب بناء بيمارستان ميافارقين، هو أن نصير الدولة بن مروان صاحب ديار بكر في أيام الخليفة القائم بأمر الله (تولى الخلافة سنة ٤٢٢هـ) لما كان بميافارقين مرضت ابنة له وكان يرثي لها كثيرًا، فآلى على نفسه أنها متى برئت أن يتصدق بوزنها دراهم، فلما عالجها زاهد العلماء وصلحت أشار على نصير الدولة أن يجعل جملة هذه الدراهم التي يتصدق بها تكون في بناء بيمارستان ينتفع به الناس، ويكون له بذلك أجر عظيم وسمعة حسنة. قال: فأمر ببناء المارستان وأنفق عليه أموالًا كثيرة ووقف له أملاكًا تقوم بكفايته، وجعل فيه من الآلات وجميع ما يحتاج إليه شيئًا كثيرًا جدًّا، فجاء لا مزيد عليه في الجودة، وكان مقررًا في هذا البيمارستان مجلس للعلم يجيب فيه زاهد العلماء على المسائل والجوابات.

---

[٣٩] عقد الجمان للعيني حوادث سنة ٤١٣هـ و٤٣٠هـ وعيون التواريخ لمحمد بن شاكر الكتبي والبداية والنهاية لابن كثير حوادث سنة ٤١٣هـ.

[٤٠] هو مؤيد الملك أبو علي الحسن بن الحسن الرخجي، كان شرف الدولة بن بهاء الدولة قد استوزره في سنة ٤١٣هـ وامتدحه مهيار وغيره من الشعراء، واستمر في الوزارة سنتين ثم عزل، وكان عظيم الجاه في زمان عطلته، ومات سنة ٤٣٠هـ وقد قارب الثمانين.

[٤١] طبقات الأطباء ج ١ ص ٢٥٣.

[٤٢] ميافارقين أشهر مدينة بديار بكر واسمها فارسي أطلقه بعض أكاسرة الفرس وأصلها واسمها بالرومية Martyropolis.

(١٤) بيمارستان باب محول

ذكر العيني[٤٣] في حوادث سنة ٤٤٩هـ أنه كان مارستان في باب محول ولكنه دثر فلا عين ولا أثر، وباب محول محلة كبيرة كانت منفردة بجنب الكرخ ببغداد وكانت متصلة بالكرخ أولًا.

(١٥) بيمارستان الموصل

قال ابن كثير[٤٤] في سنة ٥٧٢هـ بنى الأمير مجاهد الدين قايماز[٤٥] نائب قلعة الموصل جامعًا (الجامع المجاهدي) حسنًا ورباطًا ومدرسة ومارستانًا متجاورات بظاهر مدينة الموصل على دجلة. وأوقف عليه الأوقاف. وذكر الصفدي في الوافي بالوفيات: أن الحسن بن علي بن سعيد بن عبد الله علم الدين أبو علي الشاقلاني كان يحب الحديث، فكان في كنف جمال الدين بن محمد بن علي بن أبي منصور وزير الموصل، كثير الأفضال عليه، فولاه البيمارستان بالموصل، وبعد وفاته وفد على نور الدين الشهيد فأكرمه إلى أن مات سنة ٥٧٢هـ، وفي سنة ٥٨٠هـ زار الموصل أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير[٤٦] الرحالة المغربي، فذكر أن أحد أمراء بلدة الموصل، وكان يعرف بمجاهد الدين، بنى جامعًا على شط دجلة وأمامه مارستان حفيل من بناء مجاهد الدين المذكور، وحوالي سنة ٧٢٨هـ دخل الرحالة ابن بطوطة مدينة الموصل، فوجد بها مارستانًا أمام مسجدها الجامع.

---

[٤٣] كتاب عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان حوادث سنة ٤٤٩هـ.

[٤٤] البداية والنهاية حوادث سنة ٥٧٢.

[٤٥] الأمير مجاهد الدين قايماز أبو منصور الرومي الزيني الخادم الأبيض كان لزين الدين صاحب أربل، فأعتقه وأمره. انتقل إلى الموصل سنة ٥٧١هـ وفوض إليه صاحب الموصل غازي بن مودود أمورها وامتدت أيامه، فلما وصلت السلطنة إلى أرسلان شاه قبض على فيمازشاه وسجنه إلى أن مات في السجن سنة ٥٩٥هـ، وكان دينًا صالحًا يتصدق كل يوم خارجًا عن الرواتب بمائة دينار، وكان يصوم في السنة ستة شهور، ومدحه ابن التعاويذي وغيره من الشعراء، وبنى بالموصل الجامع والمدرسة والرباط والمارستان (تاريخ الإسلام للذهبي وشذرات الذهب لابن العماد والبداية والنهاية).

[٤٦] الرحلة ص ٢٣٥ طبع ليدن.

(١٦) بيمارستان حران[٤٧]

ذكر أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير[٤٨] الرحالة المغربي في رحلته إلى المشرق حوالي سنة ٥٨٠هـ أن ببلدة حران مدرسة وبيمارستانًا.

(١٧) بيمارستان الرقة[٤٩]

لم نعرف عن هذا البيمارستان شيئًا سوى ما ذكره ابن أبي أصيبعة من أن الحكيم بدر الدين ابن قاضي بعلبك خدم بالرقة في البيمارستان الذي بها وصف مقالة حسنة في مزاج الرقة وأحوال أهويتها وما يغلب عليها وأقام بها سنين.

(١٨) بيمارستان نصيبين

قال ابن بطوطة الرحالة المغربي[٥٠] زرنا مدينة نصيبين حوالي سنة ٧٢٠هـ، وهي مدينة عتيقة متوسطة قد خرب أكثرها وهي بسيط أفيح. فيه المياه الجارية والبساتين الملتفة والأشجار المنتظمة والفواكه الكثيرة، وبها يصنع ماء الورد الذي لا نظير له في العطارة والطيب، ويدور بها نهر يعطف عليها انعطاف السوار، منبعه من عيون في جبل قريب منها، وينقسم انقسامًا فيتخلل بساتينها. ويدخل منه نهر إلى المدينة، فيجري في شوارعها ودونها صحن مسجدها الأعظم، وينصب في صهريجين أحدهما وسط الصحن والآخر عند الباب الشرقي، وبهذه المدينة مارستان ومدرستان وأهلها أهل صلاح ودين.

---

[٤٧] حران مدينة عظيمة قصبة ديار مضر بينها وبين الرها يوم، وبينها وين الرفة يومان، وهي على طريق الموصل والشام والروم، وكانت منازل الصابئة، وينسب إليها جماعة من أهل العلم فتحت في أيام عمر بن الخطاب وهي الآن بولاية حلب.

[٤٨] الرحلة ص ٢٤٧ طبع ليدن.

[٤٩] الرقة مدينة مشهورة من بلاد الجزيرة على الفرات بالقرب من حران، بينها وبين حران ثلاثة أيام لأنها من جانب الفرات الشرقي، وهي وحران تقعان شرقي حلب.

[٥٠] تحفة النظار في غرايب الأمصار وعجائب الأسفار ج ٢ ص ١٤٠.

الفصل الرابع

بيمارستانات الشام

(١) بيمارستان الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي

قال الشيخ أبو العباس أحمد القلقشندي:[١] إن أول من اتخذ البيمارستان بالشام للمرضى الوليد بن عبد الملك وهو سادس خلفاء بني أمية، تولى الخلافة سنة ٨٦هـ/٧٠٥م، وقال رشيد الدين ابن الوطواط:[٢] أول من عمل البيمارستان وأجرى الصدقات على الزمنى والمجذومين والعميان والمساكين واستخدم لهم الخدام الوليد بن عبد الملك. وقال تقي الدين المقريزي:[٣] أول من بنى البيمارستان في الإسلام ودار المرضى الوليد بن عبد الملك. وهو أيضًا أول من عمل دار الضيافة وذلك سنة ٨٨هـ ٧٦ م، وجعل في البيمارستان الأطباء وأجرى لهم الأرزاق، وأمر بحبس المجذمين لئلا يخرجوا، وأجرى عليهم وعلى العميان الأرزاق، ولم يصل إلينا أي علم أو إشارة عن المكان الذي أنشأ فيه الوليد البيمارستان.

[١] صبع الأعشى ج ١ ص ٤٣١.

[٢] غرر النقائض وغرر الخصائص الواضحة ص ٢٤٨ طبع بولاق.

[٣] الخطط والآثار ج ٢ ص ٤٠٥ طبع بولاق.

(٢) بيمارستان انطاكية

جاء في كتاب كنوز الذهب في تاريخ حلب[٤] عن المختار بن الحسن بن بطلان: أنه هو الذي بنى البيمارستان بأنطاكية وقال: وقفت على مقالة ابن بطلان في علة نقل الأطباء تدبير الأمراض التي كانت تعالج قديمًا بالأدوية الحارة إلى التدبير المبرد كالفالج واللقوة، ومخالفتهم في ذلك لمسطور القدماء، صنفها سنة ٤٥٥هـ ١٠٦٣م بأنطاكية قال في آخرها: قال المختار بن الحسن: صنفت هذه المقالة لصديق لي وأنا يومئذ مكدود الجسم منقسم الفكر في جميع الآلات لبناء بيمارستان أنطاكية.

وقال جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي[٥] في سياق كلامه عن أنطاكية ودخول ابن بطلان إليها نقلًا عن ابن بطلان نفسه: وفي البلد بيمارستان يراعي البطريرك المرضى فيه بنفسه. وكذلك قال ابن أبي أصيبعة[٦] عن مقالة ابن بطلان في علة نقل الأطباء: وصنف ابن بطلان هذه المقالة أيضًا بأنطاكية سنة ٤٥٥هـ، وكان في ذلك الوقت قد أهل لبناء بيمارستان بأنطاكية.

ابن بطلان

هو أبو الحسن المختار بن الحسن بن عبدون بن سعدون بن بطلان نصراني من أهل بغداد.

خرج من بغداد إلى مصر قصدًا منه إلى مشاهدة علي بن رضوان الطبيب، وكان دخوله إلى الفسطاط في مستهل جمادى الآخرة سنة ٤٤١هـ/ ١٠٤٩م وأقام بها ثلاث سنين وذلك في دولة المستنصر بالله الفاطمي، وجرت بينهما مناظرة ومنافرة، وألف ابن بطلان كتابًا تضمن كثيرًا مما وقع بينه وبين ابن رضوان، وسافر ابن بطلان إلى قسطنطينية وأقام بها سنة ثم ورد أنطاكية، وبنى بها البيمارستان، إلى أن توفي سنة ٤٥٥هـ وقيل ٤٥٨هـ.

---

[٤] كتاب كنوز الذهب لموفق الدين أبي ذر أحمد بن إبراهيم الشهير بسبط ابن العجمي الحلبي المتوفى سنة ٨٨٤هـ/١٤٣٩م، وهو ذيل لتاريخ حلب لابن العديم المتوفى سنة ٦٦٠ مخطوط.

[٥] تاريخ الحكماء ص ٢٩٧ طبع ليبسيك.

[٦] عيون الأدباء ج ١ ص ٢٤٣.

(٣) المارستان الصغير بدمشق

ذكر ابن العماد في شذرات الذهب:[٧] المارستان الصغير بدمشق أقدم من المارستان النوري وكان مكانه في قبلة مطهرة الجامع الأموي، وأول من عمره بيتًا وخرب رسوم المارستان منه أبو الفضل الأخناوي، ثم ملكه بعد أخوه البرهان الأخناوي، وهو تحت المئذنة الغربية بالجامع الأموي من جهة الغرب، وينسب إلى أنه عمارة معاوية أو ابنه.

(٤) البيمارستان الكبير النوري

ملك السلطان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي دمشق سنة ٥٤٩هـ ١١٥٤م، وكان قد أسر بنفسه[٨] في بعض الغزوات بعض ملوك الفرنج، فاستشار الأمراء فيه: هل يقتله أو يأخذ منه ما يبذله من المال في الفداء؛ فاختلفوا عليه ثم حسن له رأيه إطلاقه وأخذ الفداء. فحين جهز بعث الفداء مات ببلده فأعجب ذلك نور الدين وأصحابه، وابتنى نور الدين من ذلك المال البيمارستان الذي بني بدمشق، وهو أحسن ما بني من البيمارستانات بالبلاد، ومن شرطه: أنه على الفقراء والمساكين وإذا لم يوجد بعض الأدوية التي يعز وجودها إلا فيه فلا يمنع منه الأغنياء، ومن جاء إليه مستوصفًا فلا يمنع من شرابه. ولهذا جاء إليه نور الدين وشرب من شرابه رحمه الله. ويقول بعض الناس: إنه لم تخمد منه النار منذ بني إلى زماننا (أي زمان ابن كثير الذي ننقل عنه هذا الكلام وقد توفي سنة ٧٧٤هـ).

وقال ابن جبير،[٩] وقد دخل دمشق سنة ٥٨٠: وبها مارستان قديم وحديث والحديث أحفلهما وأكبرهما، وجرايته في اليوم نحو الخمسة عشر دينارًا، وله قومة وبأيديهم الأزمة المحتوية على أسماء المرضى وعلى النفقات التي يحتاجون إليها في الأدوية والأغذية وغير ذلك حسبما يليق بكل إنسان منهم، والأطباء يبكرون إليه في كل يوم، ويتفقدون المرضى ويأمرون بإعداد ما يصلحهم من الأدوية والأغذية. والمارستان الآخر على هذا الرسم، لكن الاحتفال في الجديد أكثر، وهذا المارستان القديم هو غربي

[٧] شذرات الذهب ج ٣ ص ٤٠٧.

[٨] البداية والنهاية لابن كثير حوادث سنة ٥٦٩ مخطوط.

[٩] الرحلة ص ٢٨٣ طبع ليدن.



شكل ٤-١: باب بيمارستان نور الدين منقولًا عن كارل ولزنجر وكار وتزنجر.

الجامع المكرم. وللمجانين المعتقلين أيضًا ضرب من العلاج وهم في سلاسل موثوقون. وهذه المارستانات مفخر عظيم من مفاخر الإسلام. وقال ابن أبي أصيبعة[١٠] لما أنشأ

[١٠] عيون الأنباء ج ٢ ص ١٥٥.

الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي[١١] البيمارستان الكبير، جعل أمر الطب فيه إلى أبي المجدين بن أبي الحكم بن عبيد الله بن المظفر بن عبد الله الباهلي، وأطلق له جامكية وجراية، وكان يتردد إليه ويعالج المرضى فيه، وكان أبو المجد بن أبي الحكم يدور عليهم ويتفقد أحوالهم ويعتبر أمورهم، وبين يديه المشارفون والقوام لخدمة المرضى، فكان جميع ما يكتبه لكل مريض من المداواة والتدبير لا يؤخر عنه ولا يتوانى في ذلك. ثم قال: وبعد فراغه من ذلك وطلوعه إلى القلعة وافتقاده المرضى من أعيان الدولة يأتي ويجلس في الإيوان الكبير الذي بالبيمارستان، وجميعه مفروش، ويحضر كتب الاشتغال. وكان نور الدين رحمه الله قد وقف على هذا البيمارستان جملة كتب من الكتب الطبية، وكانت في الخرستانين اللذين في صدر الإيوان، فكان جماعة من الأطباء والمشتغلين يأتون إليه ويقعدون بين يديه، ثم تجرى مباحث طبية ويقرئ التلاميذ، ولا يزال معهم في اشتغال ومباحثة ونظر في الكتب مقدار ثلاث ساعات. قال جمال الدين بن تغري بردي[١٢] في سنة ٥٩٧ جاءت في شعبان زلزلة من مصر امتدت إلى دمشق فرمت بعض المنارة الشرقية بجامع دمشق وأكثر الكلاسة والبيمارستان النوري.

---

[١١] هو أبو القاسم محمود بن عماد الدين زنكي بن آق سنقر الملقب بالملك العادل نور الدين، ولد يوم الأحد ١٧ شوال سنة ٥١١هـ ملك الشام وديار الجزيرة ومصر، وكان ملكًا عادلًا زاهدًا عابدًا ورعًا مائلًا إلى أهل الخير، كثير الصدقات. قال ابن الأثير: قد طالعت سير الملوك المتقدمين فلم أر فيها بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن من سيرته ولا أكثر تحريًا منه للعدل، وكان لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرف في الذي يخصه إلا من ملك كان له قد اشتراه من سهمه في الغنيمة ومن الأموال المرصدة لمصالح المسلمين. وكان عارفًا بالفقه وسمع الحديث وأسمعه طلبًا للأجر. وأما عدله فإنه لم يترك في بلاده على سعتها مكسًا ولا عشرًا، وكان يعظم الشريعة ويقف عند أحكامها، وقد حصن البلاد وبنى المدارس الكثيرة والجوامع والبيمارستانات والخانات في الطرق، والخانكاهات في جميع البلاد، وأوقف على الجميع الوقوف الكثيرة، وكان يكرم العلماء وأهل الدين ويعظمهم ولا يرد إليهم قولًا، وكان وقورًا مهيبًا مع تواضعه، وبالجملة فقد كان له من المفاخر والمآثر ما يستغرق الوصف، توفي يوم الأربعاء شوال سنة ٥٦٩هـ بقلعة دمشق ودفن بها في تربته بمدرسته التي أنشأها عند باب سوق الخواصين.

[١٢] النجوم الزاهرة ج ٦ ص ١٧٤.

وقال خليل بن شاهين الظاهري[١٣] بعد أن زار دمشق: وبها مارستان لم ير مثله في الدنيا قط، واتفقت نكتة أحببت أن أذكرها: وهي أني دخلت دمشق في سنة ٨٣١هـ/١٤٢٧م وكان بصحبتي رجل عجمي من أهل الفضل والذوق واللطافة، وكان قصد الحج في تلك السنة، فلما دخل البيمارستان المذكور ونظر ما فيه من المآكل والتحف واللطائف التي لا تحصى، قصد اختبار رجال البيمارستان المذكور فتضاعف [تمارض] وأقام به ثلاثة أيام، ورئيس الطب يتردد إليه ليختبر ضعفه، فلما جس نبضه وعلم حاله وصف له ما يناسبه من الأطعمة الحسنة والدجاج المسمنة والحلوى والأشربة والفواكه المتنوعة. ثم بعد ثلاثة أيام كتب له ورقة من معناها: أن الضيف لا يقيم فوق ثلاثة أيام. وهذا في غاية الحذاقة والظرافة. وقيل إن البيمارستان المذكور منذ عمر لم تنطفئ فيه النار. ولما أتى بدر الدين ابن قاضي بعلبك إلى دمشق ولاه الملك الجواد مظفر الدين يونس بن شمس الدين مودود بن الملك العادل بعد أن تملك دمشق في سنة ٦٣٥ الرياسة على جميع الأطباء والكحالين والجراحين، فلم يزل مجتهدًا حتى اشترى دورًا كثيرة ملاصقة للبيمارستان الكبير النوري، وتعب في ذلك تعبًا كثيرًا واجتهد بنفسه وماله حتى أضاف هذه الدور المشتراة إليه، وجعلها من جملته، وكبر بها قاعات كانت صغيرة وبناها أحسن البناء وشيدها وجعل الماء فيها جاريًا، فتكمل بها البيمارستان.[١٤] وذكر ابن الوردي:[١٥] أنه في سنة ٧٢٨هـ جاء سيل عظيم على عجلون (دمشق) خرب سوق التجار والمارستان والدباغة وبعض الجامع. وذكر ابن تغري بردي[١٦] أن شيخ الإسلام شهاب الدين الغزي المتوفى سنة ٨٢٢ تولى نظر البيمارستان النوري.

وذكر السخاوي:[١٧] أن الشيخ المؤرخ تقي الدين المقريزي كاتب التوقيع في ديوان الإنشاء بمصر والمتوفي سنة ٨٤٥هـ، كان قد دخل دمشق مرارًا وتولى بها نظر وقف

[١٣] زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك لغرس الدين خليل بن شاهين الظاهري طبع باريس سنة ١٨٩٤م.

[١٤] طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ج ٢ ص ٢٦٠.

[١٥] تاريخ ابن الوردي ص ٢٩٠.

[١٦] المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي مخطوط.

[١٧] التبر المسبوك في ذيل السلوك ص ٢٢.

القلانسي والبيمارستان الكبير النوري مع كون شرط نظره لقاضيها الشافعي، وهذا يشبه بالتمام نظر البيمارستان المنصوري بالقاهرة فإنه لقاضيها الشافعي. وقد كان للبيمارستان الكبير النوري من المكانة بحيث كان النظر عليه لنائب السلطنة بدمشق.[١٨] قال القلقشندي: ومن الوظائف الديوانية الكبيرة بدمشق نظر البيمارستان الكبير النوري، وقد صار معدوقًا بالنائب (أي نائب السلطان) يفوض التحدث فيه إلى من يختاره من أرباب الأقلام وكذلك يكون معه نظر الجامع الأموي بدمشق.

ولبيان حال هذا المارستان في العصور المتأخرة وما كان عليه من الأهمية والمكانة ننقل هنا ما ذكره المحبي[١٩] بصدده قال: «إن حسن باشا بن عبد الله الأمين المعروف بشوريزه حسن، أحد صدور دمشق وأعيانها، المتوفى سنة ١٠٢٧هـ، ولي وقف البيمارستان الكبير النوري فأقام شعائره بعد أن كانت اضمحلت وعمر أوقافه، وأتى فيه من حسن التنمية بما لا مزيد عليه.

وأخبرني العالم الجليل الأستاذ محمد كرد علي بك من أعلام دمشق حالًا: أن البيمارستان الكبير النوري ظل عامرًا يعالج فيه المرضى إلى سنة ١٢١٧هـ/١٨٩٩م، وكان أطباؤه وصيادلته لا يقلون عن العشرين حتى قامت بلدية دمشق في عهد ولاية حسين ناظم باشا والي سوريا سابقًا بإنشاء مستشفى للغرباء في الجانب الغربي من تكية السلطان سليمان، المطلة على المرج الأخضر، وجمعت له الإعانات بأساليب مختلفة، من واردات البلدية وأوقاف البيمارستان النوري لتنفق عليه، وسمي المستشفى الحميدي نسبة إلى السلطان العثماني عبد الحميد الذي بني المستشفى الجديد في عهده، وهكذا خلف المستشفى الحميدي البيمارستان النوري نفسه، فقد جعل مدرسة للبنات[٢٠] ولا تزال واجهته على حالها وبها بعض الحجرات والنوافذ من البناء القديم وسطت الأيام على بقية البيمارستان فعفا أثرها.

في رأس مصراعي باب البيمارستان النوري الكبير شكل ٤-٢ سطر دقيق محفور على النحاس يمتد طولًا كشف حديثًا هذا نصه:

---

[١٨] صبح الأعشى ج ٤ ص ١٨٤.

[١٩] خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر للمحبي ج ٢ ص ٢٥.

[٢٠] ثم اتخذ سنة ١٩٣٧ دارًا لمدرسة التجارة الرسمية. وهمة دار الآثار الآن مبذولة في إعادة معالمه كما كانت في القديم.

عز لمولانا الملك العادل العالم الزاهد المجاهد المرابط المؤيد المعظم المنصور نور الدين، ركن الإسلام والمسلمين، محيي العدل في العالمين، (ناصر) الحق بالبراهين، منصف المظلومين من الظالمين، قاتل الكفرة والمشركين، أبي القاسم محمود ابن زنكي بن آقسنقر ناصر أمير المؤمنين أدام الله أيامه.

وهذه صورة ما هو مكتوب على الباب الداخلي تحت القبة الظاهرة في الشكل (٤-٢) وفيه إشارة إلى من جدد بناءه:

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ﴾، وقال رسول الله ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: علم ينفع أو ولد صالح يدعو له أو صدقة جارية.» والمولى الشهيد السلطان الغازي في سبيل الله نور الدين أبو القاسم محمود بن زنكي قدس الله روحه من جمع الله سبحانه وتعالى لذاته وصف العالمين. ومن شرط وقفه الذي أشهد به على نفسه أنه وقف على البيمارستان المعروف (باسمه) وجعله مقرًّا لتداوي الفقراء والمنقطعين من ضعفة المسلمين الذين يرجى برؤهم، وهو يستعدي إلى الله تعالى على من يساعد في تغيير مصارف وقفه وإخراجها عما شرط حاكمه وتخاصمه بين يديه ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ۗ﴾ وجدد ما كان تهدم من بنائه وبناء أوقافه في الأيام السلطانية العادلة المنصورية الصالحة خلد الله سلطانها، بنظر الفقير إلى الله تعالى عمر بن أبي الطيب غفر الله له ولمن أعانه من البنائين على عمارة هذا الوقف المبارك، وكان الفراغ منه في العشر الأوسط من شهر ربيع الآخر.



شكل ٤-٢: وجه البيمارستان النوري بدمشق ويرى أعلاه قبة المدخل رممت حديثًا على الشكل الذي كانت عليه في القديم.

الأطباء الذين عملوا في البيمارستان الكبير النوري

(١) **مهذب الدين ابن النقاش:** هو الشيخ الإمام أبو الحسن علي بن أبي عبد الله عيسى بن هبة الله النقاش مولده ومنشؤه ببغداد، عالم بعلم العربية والأدب واشتغل

بصناعة الطب، وكان له مجلس علم للمشتغلين عليه. وتوجه إلى مصر وأقام بالقاهرة مدة ثم رجع إلى دمشق وخدم بصناعة الطب الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي، وكان يعاني كتابة الإنشاء وخدم في البيمارستان الكبير النوري، وكانت وفاته يوم السبت ١٢ محرم سنة ٥٧٤هـ/١١٧٨م.

(٢) **موفق الدين بن المطران:** هو الحكيم العالم موفق الدين أبو نصر أسعد بن أبي الفتح إلياس بن جرجس المطران: كان مولده ومنشؤه بدمشق وكان أبوه أيضًا طبيبًا. وخدم بصناعة الطب الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب وأسلم ابن المطران في أيامه. وكانت له همة عالية في تحصيل الكتب، ومات وفي خزانة كتبه ما يناهز عشرة آلاف من الكتب الطبية. وكان ابن المطران بالبيمارستان الكبير النوري يعالج المرضى المقيمين به، توفي في شهر ربيع الأول سنة ٥٨٧هـ/١١٩١م بدمشق.

(٣) **ابن حمدان الجرائحي:** كان من جملة أطباء البيمارستان الكبير النوري ومعاصرًا لموفق الدين بن المطران.

(٤) **أبو الفضل بن عبد الكريم المهندس:** هو مؤيد الدين أبو الفضل محمد بن عبد الكريم بن الرحمن الحارثي: مولده ومنشؤه بدمشق، وكان يعرف بالمهندس لجودة معرفته بالهندسة قبل أن يتحلى بمعرفة صناعة الطب، واشتغل أيضًا بصناعة النجوم وعمل الزيج، وكانت له جامكية لطبه في البيمارستان الكبير النوري، ويقي فيه إلى أن توفي سنة ٥٩٩هـ/١٢٠٢م بدمشق وعاش نحو السبعين.

(٥) **موفق الدين عبد العزيز:** هو الشيخ الإمام موفق الدين عبد العزيز بن عبد الجبار بن أبي محمد السلمي: كان كثير الخير شديد الشفقة على المرضى، وكان في أول الأمر فقيهًا ثم اشتغل بعد ذلك بصناعة الطب، وخدم في البيمارستان الكبير النوري، خدم الملك العادل أبا بكر بن أيوب وتوفي بدمشق في يوم الجمعة ٢٠ ذي القعدة سنة ٦٠٤هـ/١٢٠٧م وعمر نحو الستين سنة.

(٦) **كمال الدين الحمصي:** هو أبو منصور المفظر علي بن ناصر القرشي، اشتغل بصناعة الطب والأدب وكان محبًّا للتجارة وأكثر معيشته منها، ويكره التكسب بصناعة الطب، وبقي سنين يتردد إلى البيمارستان الكبير النوري ويعالج المرضى فيه احتسابًا، إلى أن توفي في يوم الثلاثاء ٩ من شعبان سنة ٦١٢هـ/١٢١٥م.

(٧) **رشيد الدين علي بن خليفة:** هو أبو الحسن علي بن خليفة بن يونس بن أبي القاسم بن خليفة بن الخزرج مولده بحلب سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م، ثم توجه إلى مصر

واشتغل بصناعة الطب، ولازم جمال الدين بن أبي الحوافر رئيس الأطباء بمصر، وملكها العزيز عثمان بن الملك الناصر صلاح الدين ولازم مشاهدة المرضى بالبيمارستان. وفي سنة ٥٩٣ انتقل إلى الشام وباشر المرضى في البيمارستان الكبير النوري، وجعل له مجلسًا لتدريس صناعة الطب، توفي يوم الاثنين في ١٧ شعبان سنة ٦١٦هـ.

(٨) **مهذب الدين عبد الرحيم بن علي:** هو الشيخ الإمام العالم مهذب الدين أبو محمد عبد الرحيم بن علي بن حامد ويعرف بالدخوار، مولده ومنشؤه دمشق، وكان أبوه كحالًا مشهورًا. وخدم مهذب الدين كحالًا بالبيمارستان الكبير النوري ثم اشتغل بصناعة الطب ثم توجه إلى الديار المصرية، وخدم الملك العادل أبا بكر ابن أيوب وولاه رياسة الطب بمصر والشام. ثم أقام بدمشق وتولى العلاج بالبيمارستان الكبير النوري، ثم شرع في تدريس صناعة الطب واجتمع إليه كثير من أعيان الأطباء، ووقف داره وجعلها مدرسة للطب ووقف لها ضياعًا وعدة أماكن، وتوفي ليلة الاثنين ١٥ شهر صفر ٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م.

(٩) **مهذب الدين أحمد بن الحاجب:** كان طبيبًا مشهورًا في الصناعة الطبية متقنًا للعلوم الرياضية معتنيًا بالأدب، مولده بدمشق ونشأ بها، وخدم بصناعة الطب البيمارستان الكبير النوري.

(١٠) **ابن اللبودي:** هو العالم شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عبدان بن عبد الواحد بن اللبودي: أتقن الحكمة وصناعة الطب وكان له مجلس لتدريس هذه الصناعة، وخدم الملك الظاهر غياث الدين غازي بن الملك الناصر. وأقام عنده بحلب، ثم أتى إلى دمشق وأقام بها يدرس الطب ويطب في البيمارستان الكبير النوري، وتوفي بدمشق في ٤ ذي القعدة سنة ٦٢٢هـ وله من العمر ٥١ سنة.

(١١) **عمران الإسرائيلي:** هو الحكيم أوحد الدين عمران بن صدقة، مولده بدمشق في سنة ٥٦١هـ، وكان أبوه طبيبًا مشهورًا، وكان الملك المعظم قد أطلق له جامكية ويتردد إلى البيمارستان الكبير النوري، وتوفي في حمص في شهر جمادى الأولى سنة ٦٣٧هـ/ ١٢٣٩م.

(١٢) **سديد الدين بن رقيقة:** هو أبو الثناء محمود بن عمر بن محمد بن إبراهيم بن شجاع الشيباني الحانوي ويعرف بابن رقيقة، كان مولده سنة ٥٦٤هـ بمدينة حيني

ونشأ بها، وكانت له معرفة بصناعة الكحل والجراحة، وحاول كثيرًا من أعمال الحديد[٢١] في مداواة أمراض العين وقدح الماء النازل في العين لجماعة وأنجب قدحه وأبصروا. وكان المقدح الذي يعانيه مجوفًا وله عطفة ليتمكن في وقت القدح من امتصاص الماء، ويكون العلاج أبلغ، وفي سنة ٦٣٢هـ وصل إلى دمشق إلى السلطان الأشرف، وأمر بأن يواظب على معالجة المرضى بالبيمارستان الكبير النوري، وتوفي في سنة ٦٣٥هـ وكان شاعرًا مجيدًا.

(١٣) **الجمال المحقق أحمد بن عبد الله بن الحسين الدمشقي**[٢٢] اشتغل بالفقه وبرع فيه، وكان فاضلًا في الطب، وقد ولي الدخوارية وعاد المرضى بالمارستان على قاعدة الأطباء، وكان مدرسًا للشافعية بالفرخشاهية ومعيدًا بعدة مدارس، وكان جيد الذهن مشاركًا في فنون كثيرة، توفي سنة ٦٤٩هـ.

(١٤) **سعد الدين بن عبد العزيز:** هو الحكيم العالي سعد الدين أبو إسحاق إبراهيم بن عبد العزيز بن عبد الجبار بن أبي محمد السلمي، ولد بدمشق سنة ٥٩٣هـ/١١٨٧م وخدم بصناعة الطب البيمارستان الكبير النوري إلى أن توفي في سنة ٦٤٤هـ /١٢٤٦م بدمشق.

(١٥) **رضي الدين الرحبي:** انظر ترجمته في البيمارستان الناصري ص ٧٩.

(١٦) **جمال الدين بن الرحبي:** هو جمال الدين عثمان بن يوسف بن حيدرة الرحبي أخو السابق، اشتغل بصناعة الطب على والده بدمشق، وخدم بالبيمارستان الكبير النوري وبقي به سنين، ولما وصل التتار إلى الشام سنة ٦٥٧هـ/١٢٥٨م توجه إلى مصر وأقام بها، وتوفي بالقاهرة سنة ٦٥٨هـ/١٢٥٩م.

(١٧) **شرف الدين بن الرحبي:** هو شرف الدين أبو الحسن علي بن يوسف بن حيدرة بن الحسن الرحبي. ولد بدمشق سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م واشتغل بصناعة الطب وخدم مدة في البيمارستان الكبير النوري ودرس بالمدرسة الدخوارية وتوفي سنة ٦٦٧هـ/١٢٦٨م.

(١٨) **شمس الدين محمد الكلي:** هو الحكيم العالم أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن أبي المحاسن، كان أبوه أندلسيًّا، وأتى إلى دمشق ونشأ شمس الدين بدمشق وقرأ

---

[٢١] أعمال الحديد تطابق في الاصطلاح الطبي العصري إجراء العمليات الجراحية.

[٢٢] عن البداية والنهاية لابن كثير وشذرات الذهب لابن العماد وتاريخ الإسلام للذهبي.

صناعة الطب، وحفظ كليات القانون حفظًا جيدًا، ولذلك قيل له الكلي. وخدم بصناعة الطب الملك الأشرف موسى بدمشق ثم في البيمارستان الكبير النوري.

(١٩) **عز الدين بن السويدي:** هو أبو إسحاق إبراهيم بن محمد، كان أبوه تاجرًا من السويداء بحوران، ولد بدمشق سنة ٦٠٠هـ/١٢٠٣م ونشأ بها واشتغل بصناعة الطب، وقرأ علم الأدب وأتقن العربية وأجاد الشعر، وخدم في البيمارستان الكبير النوري وفي بيمارستان باب البريد، وكان مدرسًا بالدخوارية.

(٢٠) **عماد الدين الدنيسري:** هو عماد الدين أبو عبد الله محمد ابن القاضي الخطيب تقي الدين عباس بن أحمد بن عبيد الربيعي، مولده بدنيسر في سنة ٦٠٥هـ ونشأ بها واشتغل بصناعة الطب وتميز في الأدب والفقه، خدم في البيمارستان الكبير النوري.

(٢١) **بدر الدين بن قاضي بعلبك:** هو الحكيم العالي بدر الدين المظفر ابن القاضي الإمام مجد الدين عبد الرحمن بن إبراهيم، نشأ بدمشق واشتغل بصناعة الطب وخدم في البيمارستان الذي بالرقة. وصنف مقالة في مزاج الرقة وأحوال أهويتها. ثم أتى إلى دمشق وخدم الملك الجواد مظفر الدين يونس بن شمس الدين مودود وذلك في سنة ٦٣٥هـ. وولي رياسة جميع الأطباء والكحالين والجراحين والبيمارستان الكبير النوري وقرأ الفقه والتفسير.

(٢٢) **جمال الدين بن عبد الله بن عبد السيد**[٢٣] أسلم مع والده الذبان، وكان من أطباء المارستان النوري بدمشق، توفي سنة ٧٣٥هـ ودفن في قبر أعده لنفسه.

(٢٣) **عبد الله بن عبد الحق:**[٢٤] بن إبراهيم بن محمد بن عبد الحق رئيس الجراحين جمال الدين ابن رئيس الأطباء شمس الدين القاهري ويعرف بابن عبد الحق: ولد قبل القرن ودخل في سفره مع أبيه الشام في خدمة الناصر فرج، وتميز في صناعة الطب وباشر رياسة الجراحين وقتًا، وتقدم في أيام الأشرف إينال ولم ينفك عن ملازمة البيمارستان كل يوم، مات في ربيع الأول سنة ٨٩١هـ ودفن بتربة ابن جماعة بالقرب من الصوفية.

---

[٢٣] تاريخ الإسلام لابن الوردي ج ٢ ص ٣١٠.

[٢٤] الضوء اللامع للسخاوي.

(٥) البيمارستان النوري أو العتيق بحلب

ذكر ابن القفطي[٢٥] أن المختار بن الحسن بن عبدون المعروف بابن بطلان خرج من بغداد في مستهل شهر رمضان سنة ٤٤٠هـ مصعدًا، فوصل إلى حلب فوجد فيها جامعًا وست بيع وبيمارستانًا صغيرًا. وروى صاحب كنوز الذهب في تاريخ حلب أن المختار بن الحسن بن عبدون المعروف بابن بطلان هو الذي وضع البيمارستان بحلب وجدد نور الدين محمود بن زنكي عمارته. وقال في الدر المنتخب:[٢٦] إن البيمارستان النوري بناه الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي بحلب داخل باب أنطاكية بالقرب من سوق الهواء في محلة الجلوم الكبرى في الزقاق المعروف الآن بزقاق البهرمة. ويقال: إن الملك العادل نور الدين تقدم إلى الأطباء أن يختاروا في حلب أصح بقعة صحيحة الهواء لبناء البيمارستان بها، فذبحوا خروفًا وقطعوه أربعة أرباع، وعلقوها بأرباع المدينة ليلًا، فلما أصبحوا وجدوا أحسنها رائحة الربع الذي كان في هذا القطر، فبنوا المارستان فيه. ووقفت عليه قرية معراتا، ونصف مزرعة وادي العسل من جبل سمعان، وخمسة أفدنة من مزرعة كفر تابا، وثلث مزرعة الخالدي، وطاحونًا من المطخ، وثمن طاحون ظاهر باب الجنان، وثمانية أفدنة من مزرعة أبو مرايا من غراز، وخمسة أفدنة من مزرعة الحميرة من المطخ، واثني عشر فدانًا من مزرعة الغرزل من المعرة، وثلث قرية بيت راعيل من العزبيات، وعشرة دكاكين بسوق الهواء، وهو الآن معروف بسوق الجمرك، منها ثلاثمائة تمام، والباقي شركة الجامع الكبير، وأحكار ظاهر باب أنطاكية، وباب الفرج وباب الجنان. ومكتوب على البيمارستان[٢٧] عند باب البهرمة: بسم الله الرحمن الرحيم أمر بعمله الملك العالم العامل المجاهد المرابط الأعز الكامل صلاح الدنيا والدين قسيم الدولة رضي الخلافة تابع الملوك والسلاطين، ناصر الحق بالبراهين، محيي العدل في العالمين، قامع الملحدين، قاتل الكفرة والمشركين، أبو القاسم محمود بن آق سنقر

[٢٥] تاريخ الحكماء ص ٣٩٥ طبع ليبسيك.

[٢٦] انظر كتاب أعلام النبلاء في تاريخ حلب الشهباء.

[٢٧] كتاب تحفة الأنباء في تاريخ حلب الشهباء تأليف بشوف الجرماني طبع بيروت سنة ١٨٨٠ ص ١٤٠.

ناصر أمير المؤمنين أدام الله دولته، بتولي العبد الفقير إلى رحمة مولاه، عقبة بن أسعد الموصلي وعلى بابه مكتوب[٢٨] عمره السلطان نور الدين بتولي ابن أبي الصعاليك.

وفي هذا المارستان قاعة للنساء مكتوب عليها: عمر هذا المكان في دولة صلاح الدين يوسف بن أيوب، بتولي أبي المعالي محمود بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم ابن العجمي الشافعي في شهر رمضان سنة ٦٥٥هـ/١٢٥٧م، وعلى إيوانه أنه عمر في أيام الأشرف شعبان، وأن هذا الإيوان وقاعة النساء الصيفية أنشأها صالح سبط ابن السفاح، وعلى الشباك الذي على بابه: أنه أحدث في سنة ٨٤٠هـ/١٤٣٦م على يد الحاج محمد البيمارستاني، وقاعة المنسلهين كانت سماوية فأسقفها القاضي شهاب الدين ابن الزهري. وهو بيمارستان مبارك يستشفى به، وهو نير شرح ومفروش من الرخام وبه بركتا ماء يأتي إليهما الماء الحلو من قناة حبلان.

وقال القلشندي[٢٩] عن حلب: وبها بيمارستان حسن لعلاج المرضى. وقال:[٣٠] من الوظائف الديوانية نظر البيمارستان، وقد تقدم الكلام على مدينة حلب أن بها بيمارستانين أحدهما يعرف بالعتيق والآخر بالجديد، ولكل منهما ناظر يخصه، وولاية كل منهما عن النائب بتوقيع كريم. ولعل العتيق منهما هو الذي أنشاه نور الدين محمود بن زنكي وهو هذا، والثاني منهما وهو الجديد هو الذي أنشأه الأمير أرغون الكاملي بحلب وسيأتي ذكره بعد.

قال صاحب أعلام النبلاء[٣١] وهو الآن خراب ولم يبق منه سوى بابه وجدران أطرافه تأوي إليه الفقراء من الغرباء. ومن الغريب أن معتمد إيطاليا أدولف صولا عمر فوق باب البيمارستان المذكور قنطرة وجعل طرفًا تحت أطراف قصر داره التي تجاه البيمارستان المذكور حفظًا للقصر، وذلك منذ خمسة عشر عامًا، وكان ذلك في ليلة واحدة ولم ينتطح لذلك عنزان، غايته أن المتولي على البيمارستان رفع الأمر إلى الحكومة وإلى المجلس البلدي فلم يلتفت إليه وكأن الحادثة لم تكن. وجاء في مجلة الدراسات

[٢٨] أعلام النبلاء.

[٢٩] صبح الأعشى ج ٤ ص ١١٧.

[٣٠] صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٢٠.

[٣١] أعلام النبلاء ج ٢ ص ٧٧ طبع بيروت سنة ١٨٨٠.

الإسلامية[٣٢] التي تصدر بالفرنسية عن سنة ١٩٣١م عن حال البيمارستان الحاضرة أنه: أسسه نور الدين في أواسط القرن الثاني عشر الميلادي وأجري فيه إصلاح في القرن الخامس عشر. وقد تغيرت معالمه بسبب تحويله إلى مساكن، ومع ذلك فإنه يجب المحافظة عليه مثالًا من الآثار التي يقل مثلها في العالم الإسلامي.

وباب الدخول إليه (انظر الصورة ٤-٣) لا يزال حافظًا لمصراعيه الأصليين وهو مزين بقطع مربعة من صفائح الخشب المنقوش، وداخل البيمارستان في حالة من الإهمال لا يمكن وصفها، والبوابة منفصلة عن مكانها، والواجهة مائلة إلى جهة الشارع، وأول شيء يجب عمله فيه هو أن يخلى من ساكنيه ثم يشرع في تنظيفه.

وممن عرف من الأطباء الذين خدموا بالبيمارستان النوري بحلب عدا ابن بطلان:

هاشم بن محمود[٣٣]: ابن السيد ناصر الدين السروجي الحسيني رئيس الأطباء بالمارستان النوري بحلب توفي سنة ٩٦٤هـ.

(٦) بيمارستان باب البريد

جاء ذكر هذا البيمارستان عرضًا في ترجمة عز الدين السويدي فإنه كان طبيبًا به وبالبيمارستان الكبير النوري، وباب البريد هذا اسم لأحد أبواب جامع دمشق وهو الغربي، وتجد ترجمة عز الدين السويدي ضمن أطباء البيمارستان الكبير النوري.

(٧) بيمارستان حماة

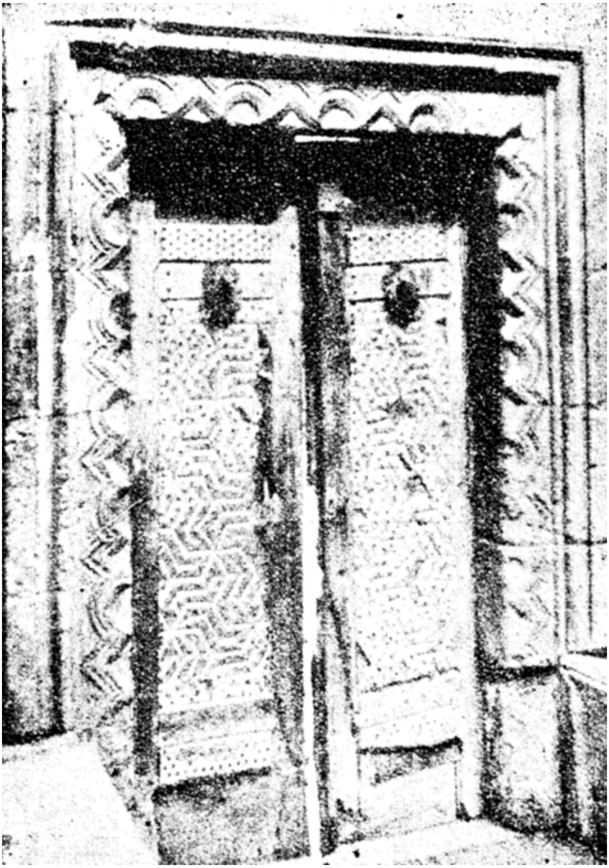
دخل ابن جبير في رحلة إلى المشرق مدينة حماة[٣٤] في الضحى الأعلى من يوم السبت في ١٩ ربيع الأول سنة ٥٨٠هـ، وبعد أن أسهب في وصفها قال: ولها جامع أكبر من الجامع الأسفل، ولها ثلاث مدارس ومارستان على شط النهر بإزاء الجامع الصغير.

---

[٣٢] Revue des etudes islamiques annee 1931. cahier 1: Inventaire des monuments musulmans de la ville d'Alep.

[٣٣] الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة للغزي.

[٣٤] الرحلة ص ٢٥٥ طبع ليبسيك.



شكل ٤-٣: باب البيمارستان النوري بحلب.

(٨) بيمارستان آخر بحلب

قال صاحب أعلام النبلاء:[٣٥] على باب الجامع الكبير الشمالي بحلب بيمارستان وله بوابة عظيمة ينسب لابن خرخار والآن قد أغلق بابه، ثم قال: وقد رأيته.

(٩) بيمارستان القدس

رحل السلطان صلاح الدين إلى القدس في اليوم الرابع عشر من شهر رمضان سنة ٥٨٣هـ، وأمر بتشييد أسواره وزاد في وقف المدرسة التي عملها بالقدس، وهذه المدرسة كانت قبل الإسلام تعرف بصند حنه (Sainte anne) يذكرون أن بها قبر حنة أم مريم عليها السلام، ثم صارت في الإسلام دار علم قبل أن يملك الإفرنج القدس. ثم لما ملك الإفرنج القدس سنة ٤٩٢م أعادوها كنيسة كما كانت قبل الإسلام، ولما فتح السلطان صلاح الدين القدس أعادها مدرسة، وفوض تدريسها إلى القاضي بهاء الدين بن شداد، وأمر بأن تجعل الكنيسة المجاورة لدار الاشبيتار بقرب حمامه مارستانًا للمرضى. ووقف عليها[٣٦] مواضع وشهر أدوية وعقاقير غزيرة، وفوض القضاء والنظر في هذه الوقوف إلى القاضي بهاء الدين يوسف بن رافع أبي تميم. وقال النويري:[٣٧] قد عزم السلطان صلاح الدين على الحج ثم عاد إلى القدس ورتب أحواله وعين الكنيسة التي في شارع قمامة البيمارستان ونقل إليه العقاقير والأدوية.

وأشار ابن القفطي[٣٨] إلى بيمارستان القدس بقوله: إن يعقوب ابن صقلاب النصراني أقام على حالته بالقدس في مباشرة البيمارستان إلى أن ملكه المعظم عيسى ابن الملك العادل أبي بكر ابن أيوب سنة ٦١٥هـ.

وقد كتب إلي الأستاذ العالم عادل جبر بك مدير المتحف الإسلامي ودار الكتب بالقدس الشريف، عن هذا المارستان فقال: إن بالقدس حارة تسمى الدباغة، والمشهور المتداول على ألسنة الناس أن البيمارستان الصلاحي كان في هذه الجهة ثم أدركه الخراب

[٣٥] طبع بيروت سنة ١٨٨٠.

[٣٦] عقد الجمان للعيني في دخول صلاح الدين للقدس.

[٣٧] نهاية الأرب في فنون الأدب حوادث سنة ٥٨٨.

[٣٨] اطلب ترجمة يعقوب بن صقلاب.

كما أدرك غيره من الآثار، ثم حدثت زلزلة في سنة ٨٦٢هـ/١٤٥٨م فجعلته أثرًا بعد عين، فعفيت آثاره واختلست أرضه وتصرف فيه الحكام وغيرهم من الناس بالبيع والهبة، فوهب السلطان عبد الحميد قسمًا من خراباته إلى الدولة الألمانية لمناسبة زيارة ولي عهدها للقدس الشريف سنة ١٨٩٦، فبنى فيه الألمان كنيسة افتتحها الإمبراطور غليوم الثاني سنة ١٨٩٨ وقال: إنهم عثروا في خراباته على حجارة مكتوبة ناطقة باسم صلاح الدين وخلفائه من بعده.

الأطباء الذين خدموا بصناعة الطب في مارستان القدس

(١) **يعقوب ابن صقلاب النصراني** المقدسي المشرقي الملكي مولده بالقدس الشريف، قرأ الحكمة والطب وأقام بالقدس في مباشرة البيمارستان، إلى أن ملكه الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل فنقله إلى دمشق، فاختص به وارتفعت عنده حاله وأدركه نقرس ووجع مفاصل فأقعده عن الحركة، حتى قيل إن الملك المعظم إذا احتاج إليه في أمر مرضه استدعاه في محفة تحمل بين الرجال، وتوفي يعقوب في حدود سنة ٦٢٦هـ.

(٢) **رشيد الدين الصوري:** هو أبو المنصور بن أبي الفضل بن علي الصوري، كان أوحد زمانه في معرفة الأدوية المفردة وماهياتها واختلاف أسمائها وصفاتها وتحقيق خواصها، مولده في سنة ٥٧٣هـ بمدينة صور ونشأ بها ثم انتقل عنها، واشتغل بصناعة الطب على الشيخ عبد اللطيف البغدادي، وأقام بالقدس وكان يطب في البيمارستان الذي كان فيه، وخدم الملك العادل ثم الملك المعظم عيسى ثم ولده الملك الناصر داوود، وكان له بدمشق مجلس للطب والجماعة يترددون إليه ويشتغلون بالصناعة عليه، وتوفي يوم الأحد أول شهر رجب سنة ٦٣٩هـ (١٢٤٢م).

(١٠) بيمارستان عكا

في سنة ٥٨٣هـ بعد أن فتح السلطان صلاح الدين بيت المقدس[٣٩] واستنقذه من أيدي الصليبيين، انصرف إلى دمشق واجتاز في طريقه إلى عكا، ولما وصل إليها نزل بقلعتها

[٣٩] عقد الجمان للعيني حوادث سنة ٥٨٤ والبداية والنهاية لابن كثير حوادث سنة ٥٨٣هـ.

ووكل بعمارتها وتجديد محاسنها بهاء الدين قراقوش، ووقف دار الإشبتار نصفين على الفقراء والفقهاء، وجعل دار الأسقف مارستانًا ووقف على ذلك كله أوقافًا دارة، وولى نظر ذلك لقاضيها جمال الدين ابن الشيخ أبي النجيب وعاد إلى دمشق مؤيدًا منصورًا.

(١١) بيمارستان صفد

ذكر ابن حجر[٤٠] أن في صفد بيمارستانًا عمره الأمير تنكز نائب الشام في زمن السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون. وقال محمد بن شاكر الكتبي:[٤١] إن الأمير الكبير سيف الدين تنكز[٤٢] نائب السلطنة بالشام عمر بصفد البيمارستان المعروف باسمه.

(١٢) بيمارستان الصالحية أو القيمري

البيمارستان القيمري أو مارستان الصالحية أنشأه وأوقفه الأمير الكبير سيف الدين أبو الحسن[٤٣] علي بن يوسف بن أبي الفوارس ابن موسك القيمري الكندي: أكبر أمراء القيامرة ومن أبطالهم المذكورين وصلحائهم المشهورين، وهو ابن أخت صاحب قيمر[٤٤] كانوا يقفون بين يديه كما تعامل الملوك. ومن أكبر حسناته وقفه المارستان الذي بسفح قاسيون بالصالحية، وكانت وفاته سنة ٦٥٣هـ ودفن بالسفح في قبته التي تجاه

[٤٠] الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة.

[٤١] فوات الوفيات ج ١ ص ٩٢ طبع بولاق.

[٤٢] هو الأمير سيف الدين تنكز بن عبد الله الحسامي التامري نائب الشام، جلبه إلى مصر الخواجه علاء الدين السيواسي واشتراه الأمير لاشين، فلما قتل لاشين صار من خاصية السلطان. سمع تنكز الحديث وحدث وقرأ عليه المقريزي، وأمره الملك الناصر محمد بن قلاوون وولاه نيابة دمشق سنة ٧١٢هـ فأقام بها ٢٨ سنة، وهو الذي عمر دمشق وأقام شعائر المساجد بعد التتار وبنى بها جامعًا، وجدد بصفد بيمارستانًا مليحًا للشفا. ثم قبض عليه الملك الناصر وأرسله إلى القاهرة سنة ٧٤١هـ، وتوفي تنكز بحبس الإسكندرية في يوم الثلاثاء النصف من المحرم سنة ٧٤١ وقد جاوز السبعين. وفي سنة ٧٤٤ حضر تابوته من الإسكندرية إلى دمشق ودفن في تربته بجوار جامعه، وكان ملكًا جليلًا محترمًا مهابًا عفيفًا حسن المعاشرة (المنهل الصافي والبداية).

[٤٣] البداية والنهاية لابن كثير حوادث سنة ٦٥٤ وشذرات الذهب لابن العماد ج ٣ ص ٣١٣.

[٤٤] قيمر هي قلعة في الجبال بين الموصل وخلاط ينسب إليها جماعة من أعيان الأمراء بالموصل وخلاط، وهم أكراد، ويقال لصاحبها أبو الفوارس (ياقوت).

المارستان، وكان ذا مال وثروة. وفي سنة ٦٩٦هـ في يوم السبت[٤٥] النصف من ربيع الآخر شرعت التتار في نهب الصالحية وأخربوا أماكن كثيرة ومنها المارستان بالصالحية، وقال ابن العماد:[٤٦] إنه في سنة ٨٥٦هـ توفي الشيخ زين الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن داوود الحنبلي، وكان المتكلم على البيمارستان القيمري، فحصل به النفع من عمارة جهاته وعمل مصالحه ورغب الناس في نفع الفقراء بكل ممكن.

وذكر المحبي:[٤٧] أن حسن باشا بن عبد الله الأمين المعروف بشوريزه أحد صدور دمشق وأعيانها المتوفى سنة ١٠٢٧ كان قد ولي وقف البيمارستان الكبير النوري، فأقام شعائره وعمر أوقافه وأتى فيه من حسن التنمية بما لا مزيد عليه، فاستدعاه المولى مصطفى كوجك قاضي القضاة بدمشق لولاية البيمارستان القيمري فأبى، حتى أبرم عليه هو ورئيس الأطباء بدمشق الشيخ شرف الدين لاضمحلال حاله، ثم قبله على شريطة أن لا يتناول فيه رئيس الأطباء بعض أشياء عينها، ولا يخالط أموره بسوى القدر الفلاني من علوفته؛ فإنه بسبب تجاوزه وتجاوز أمثاله خرب الوقف، فقبل القاضي والرئيس شرطه وعمره ونمّى وقفه.

وهذه صورة ما هو منحوت على وجه المستشفى القيمري في الصالحية بدمشق:

السطر الأول

«هذا ما أوقفه وحبسه وأبده الأمير سيف الدين القيمري رحمه الله تعالى على هذا البيمارستان: فمن المرج نصف قرية (البحدلية)، وكذلك قرية (المسعودية) بكمالها، وأيضًا قرية (المعضادية)، وأيضًا من قرية (بالا) تسعة قراريط ونصف الحصص من الأصقاع الجولانية، ودير أيوب عليه السلام بكمالها.»

---

[٤٥] البداية والنهاية حوادث سنة ٦٥٦.

[٤٦] شذرات الذهب لابن العماد ج ٤ ص ٣١٤.

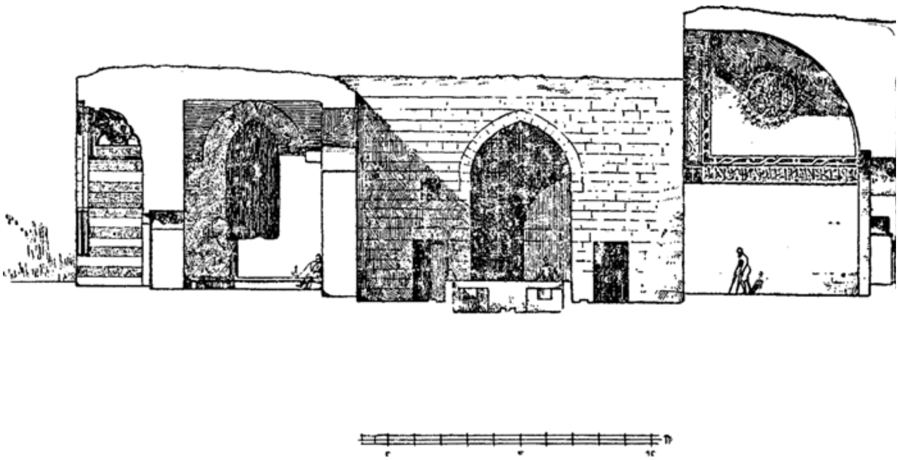
[٤٧] خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر ج ٢ ص ٢٥.



شكل ٤-٤: وجه البيمارستان القيمري وتظهر فيه حجة الوقف والعمل جار في إصلاحه وإعادته كما كان من قبل مصلحة الآثار السورية.

السطر الثاني

«ودير الهرير وطواحينها بكمالها ودير السوج بطواحينها.. والربع منها، ومن قرية عترا الربع، ومن قرية (فادا) النصف والثمن، [ومن تل] سرية ثلاث قراريط ونصف من المسقف من حصة بن مخشي بقيسارية قيراطين،

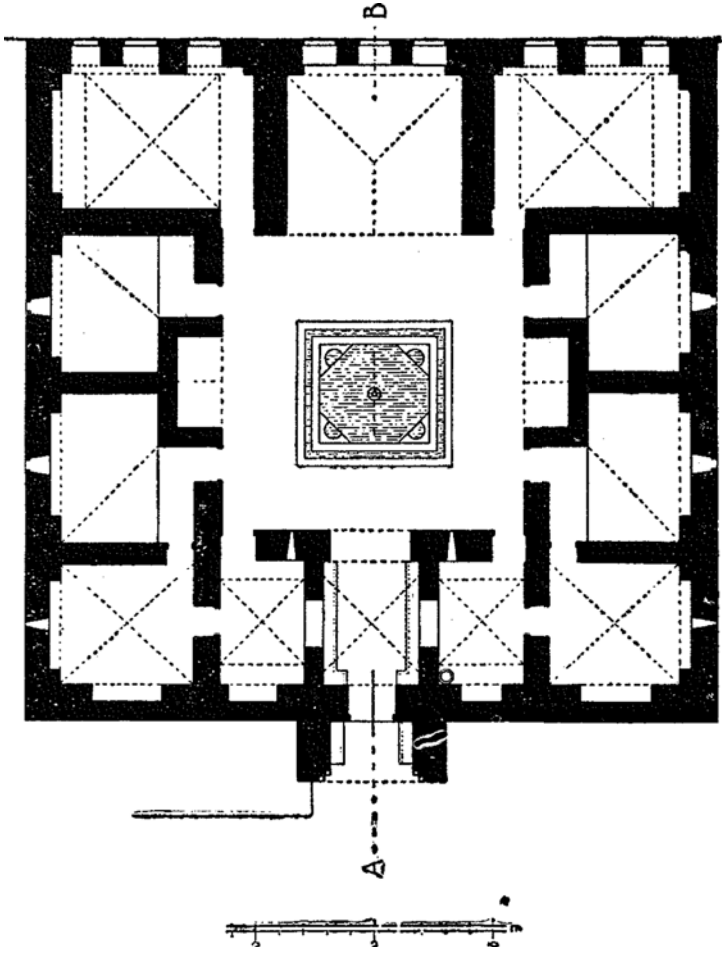


شكل ٤-٥: البيمارستان القيمري بالصالحية منقولا عن كارل ولزنجر وكارل وتزنجر.

وحانوت بالفسقار مضمون برسم الشوي و[في] صفة نوح سبعة عشر حانوت ... والحصة من الدار؟ ربع قيراط.»

سطر علوي مفرق

«وخان التوتة بحد السماق بكماله وحصة بطاحونة باب توما أربع قراريط، وخان شمالي المارستان يشتمل على بيوت جملة وقاعة بشرقي المارستان حوانيت ومصاغ باب المارستان سبعة عشر حانوت قاعة وحجرة وإصطبل تحتها وقف أمين الدين بدال بالقصاعين. ا.هـ.» وتحت ذلك:

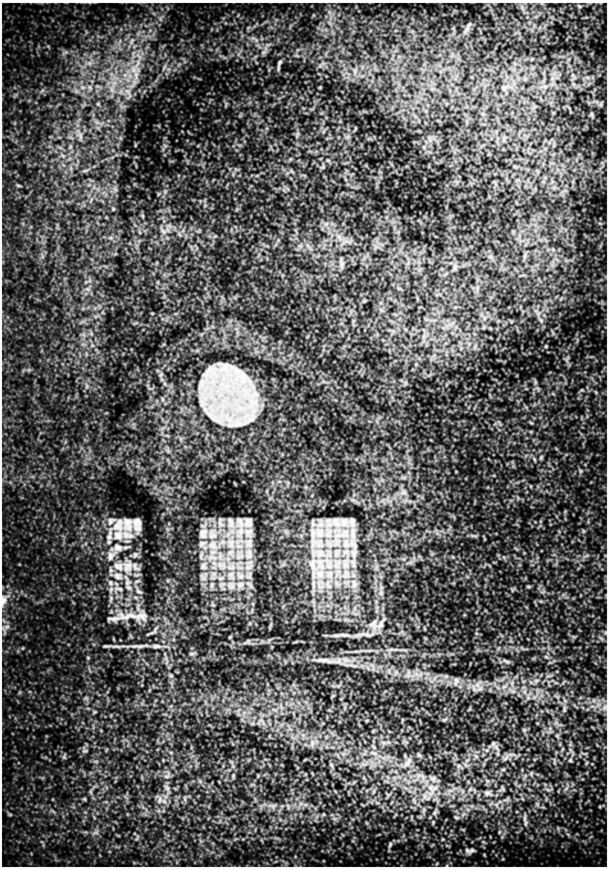


شكل ٤-٦: تخطيط أساسات البيمارستان القيمري عن كارل ولزنجر وكارل وتزنجر.

السطر الأول

«بسم الله الرحمن الرحيم. أمر ببناء هذا المارستان المبارك العبد الفقير الراجي رحمة ربه الكريم الأمير الأجل الكبير» والغازي

المجاهد المؤيد المظفر المنصور سيف الدين ملك الأمراء نصرة الغزاة والمجاهدين عضد الملوك والسلاطين نصير أمير المؤمنين أبو الحسن الإمام عز الدين يوسف ابن المظفر ضياء الدين أبي الفوارس القيمري.



شكل ٤-٧: البيمارستان القيمري من الداخل عن كارل ولزنجر وكارل وتزنجر.

السطر الثاني

«طلب ثواب الله تعالى وابتغاء مرضاته يوم يجزي الله المصدقين ولا يضيع أجر المحسنين في أيام مولانا السلطان الملك الناصر صلاح الدين ابن مولانا السلطان الملك العزيز خلد الله ملكه وسلطانه، من نعمة مولانا السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل محمد قدس الله روحهما وجعل النظر ....»[٤٨]

السطر الثالث

«جميع الأماكن الموقوفة على هذا المكان المبارك إلى الأمير الكبير ناصر الدين ملك الأمراء والمقدمين مشد دار الملوك والسلاطين ظهير أمير المؤمنين، لينظر فيه ناظرًا وحاكمًا بموجب الشرع العزيز ومقتضاه على ما هو مذكور في كتاب الوقف ...[٤٩] الله منشئه وأثاب الناظر فيه، وبعد ذلك جعل له النظر (على) المدرسة وأناب[٥٠] ﴿فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾. ا.هـ.

وجاء في خطط الشام ج ٦ ص ١٦٣ ما يأتي:

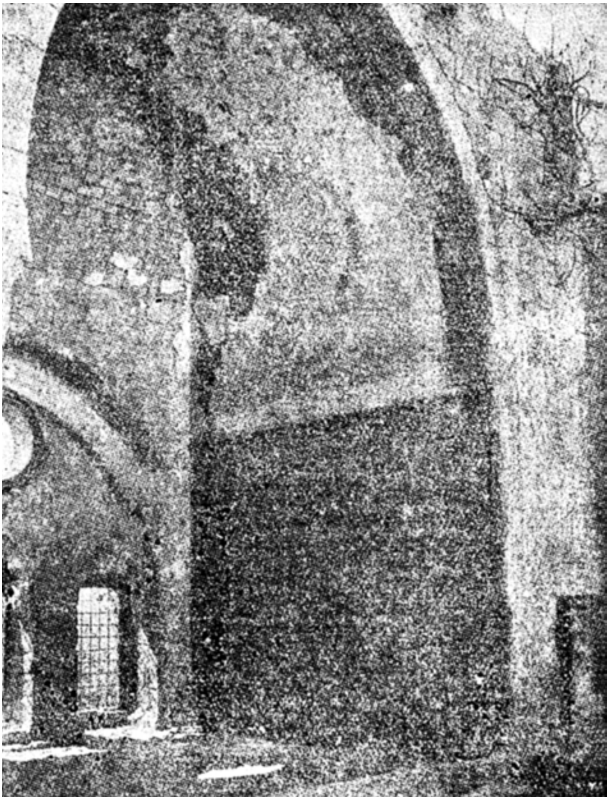
قرأت في كتاب الجوامع والمدارس صورة وقف البيمارستان القيمري فإذا فيه: هذا وقف أبي الحسن بن أبي الفوارس القيمري على بيمارستانه في الصالحية على معالجة المرضى والمعاجين والأشربة، وأجرة الطبيب يصرف إلى الطبيب في كل شهر: لواحد سبعون درهمًا ونصف غرارة من قمح، والأدنى ستون درهمًا ونصف غرارة قمح، وللمشارف في كل شهر أربعون درهمًا ونصف غرارة قمح، وللكحال في كل شهر خمسة وأربعون درهمًا ونصف غرارة قمح،

---

[٤٨] الكلمة مطموسة وظاهر أن المراد وجعل النظر عليه وعلى جميع الأماكن.

[٤٩] الذي على الحجر كلمة تشبه: بقا من الله ولعلها كلمة بمعنى عفا الله عن منشئه.

[٥٠] كلمة مطموسة قريبة من (القيم) أو (النعيم).



شكل ٤-٨: البيمارستان القيمري من الداخل عن كارل ولزنجر وكارل وتزنجر.

وللحوائج في كل شهر ثلاثة عشر درهمًا وربع غرارة قمح، وإلى ثلاثة رجال يقدم لكل من الرجال في كل شهر ثلاثة عشر درهمًا وسدس غرارة قمح، ولمن يقوم بمريضات النساء والمجنونات في كل شهر لكل واحدة عشرة دراهم وسدس غرارة قمح، وإلى الشراب وبائعه لعمل الأشربة والمعاجين في كل شهر ستة وعشرون درهمًا وثلث غرارة قمح، ولأمين المشارفين والمتولين في الوقف إلى كل واحد في كل شهر ستون درهمًا وغرارة قمح وغرارة شعير، وللإمام في

كل شهر أربعون درهمًا وثلث غرارة قمح، وللمعمار المرتب لعمارته في كل شهر ثلاثة عشر درهمًا وسدس غرارة قمح، ويكون بوابًا، وللحوائج في كل شهر ثمانية دراهم وسدس غرارة، وللناظر العشر عن المغل وريع الوقف، ويصرف إلى رجلين اثنين بخدمة البيمارستان عن ثمن قدور ونحاس وفرش ولحف ومخدة، وفي كل شهر إلى قيمه والمؤذن بالمسجد بقرب البيمارستان خمسة وعشرون درهمًا، فإن فضل يصرف إلى فكاك الأسارى من الكفار، وبعد ذلك عاد وقفًا على الفقراء، وتاريخ الوقفية سنة ٦٥٢، وتاريخ المسجد سنة ٨٨٠، ثم ذكر القرى والبساتين والحوانيت والطواحين التي وقفها على بيمارستانه.

وممن ولي النظر على البيمارستان القيمري محمد بن قباد المعروف بالسكوني الدمشقي الحنفي مفتي الشام، وكانت وفاته سنة ١٠٥٣هـ، وممن خدم من الأطباء في البيمارستان القيمري بالصالحية:

(١) **إبراهيم**[٥١] **بن إسماعيل** بن القاسم بن هبة الله بن المقداد القيسي، كان طبيبًا بالبيمارستان بالصالحية وتوفي في جمادى الأولى سنة ٧٤١هـ.

(١٣) بيمارستان الجبل

كان بقرية نيرب وهي قرية على نصف فرسخ من دمشق بيمارستان يسمى بيمارستان الجبل ولم يعرف شيء عن هذا البيمارستان، ولا عمن أنشأه والزمن الذي أنشئ فيه، غير أن ابن شاكر الكتبي في فوات الوفيات، والذهبي في تاريخ الإسلام قد ذكرا بعض الذين خدموا في هذا البيمارستان من الأطباء وعينا زمنهم، فعلمنا بذلك عصره بوجه التقريب، وذكر الذهبي في تاريخه أيضًا أن التتار لما دخلوا دمشق في سنة ٦٦٩هـ في ١٨ جمادى الأولى أحرقوا ومعهم الكرج والأرمن مارستان الجبل وعدة مدارس وأماكن في غاية الحسن والكثرة.

---

[٥١] الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة.

ومن الأطباء الذين خدموا في هذا البيمارستان:

(١) **عبد الوهاب بن أحمد** بن سحنون الحكيم الخطيب الطبيب البارع مجد الدين خطيب النيرب، له شعر وأدب وفضائل، وكان من فضلاء الحنفية، درس بالدماغية وعاش خمسًا وسبعين سنة، وكان طبيب مارستان النيرب، وفي تاريخ الإسلام للذهبي طبيب مارستان الجبل.

(٢) **أحمد بن أبي بكر** محمد بن حمزة بن منصور الطبيب نجم الدين أبو العباس الهمداني ثم الدمشقي المعروف بالجيلي: طبيب مارستان الجيل ولد سنة خمس أو ست وستمائة ومات في رمضان بدوير أحمد، ولي مشارفة الجامع في هذه السنة بعد أخيه لأم الشمس الجيلي توفي سنة ٦٩٥هـ.

(١٤) بيمارستان غزة

لما توفي السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون وتولى الملك الصالح إسماعيل، رسم للأمير علم الدين سنجر الجاولي الفقيه الشافعي بنيابة غزة، فحضر إليها وأقام بها مدة شرع في أثنائها في عمارة الجامع بغزة، وعمر حمامًا هائلًا ومدرسة للشافعية، وعمر خانًا للسبيل، وبنى بغزة مارستانًا ووقف عليه عن الملك الناصر أوقافًا جليلة، وجعل النظر فيها لنواب غزة، وتوفي في ٩ رمضان سنة ٧٤٥ ودفن الأمير سنجر في تربته التي على جبل الكبش ظاهر القاهرة.[٥٢]

(١٥) بيمارستان الكرك

هذا البيمارستان أنشأه الأمير علم الدين سنجر الجاولي أبو سعيد المتقدم ذكره والذي أنشأ أيضًا مارستان غزة. ولد الأمير سنجر[٥٣] سنة ٦٥٣ بآمد ثم صار لأمير يقال له جاول في سلطنة الظاهر بيبرس فنسب إليه، ثم انتقل بعده إلى بيت السلطان، وأخرج في أيام الأشرف خليل إلى الكرك، ثم عمل إستادار صحبة الناصر محمد نيابة عن بيبرس

٥٢ أعيان العصر للصلاح الصفدي ج ٣ مخطوط.

٥٣ الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلاني.

الجاشنكير، واستنابه الناصر محمد بعد مجيئه من الكرك سنة ٧١١، فعمر بها قصرًا للنيابة وهو أول من مدنها، فبنى فيها القصر والجامع والحمام والمدرسة للشافعية وخان السبيل والمارستان والميدان، ثم قدم إلى مصر ليكون نائبًا للحوائج خاناه، ثم ولي نيابة غزة وصار من أكبر أمراء مصر، وتوفي في تاسع شهر رمضان سنة ٧٤٥.

(١٦) مارستان حصن الأكراد

أنشأ هذا المارستان أحد المماليك بهذا الحصن ووجد مكتوبًا على عتبة هذا المكان ما يأتي:[٥٤]

> بسم الله الرحمن الرحيم، أنشأ هذا البيمارستان المبارك العبد الفقير إلى الله تعالى بكتمر بن عبد الله الأشرفي، نائب السلطنة المعظمة بحصن الأكراد، أثابه الله تعالى وأوقفه على مرضى المسلمين المقيمين والواردين وذلك في شهور سنة ٧١٩هـ/ ١٣١٩م.

وهذا المارستان لم يبق من آثاره إلا هذه الكتابة وبعض الأحجار المستعملة الآن في بناء بعض المنازل الصغيرة المجاورة للبيمارستان، وقد أرصد بكتمر بعض الأوقاف للصرف على هذا المارستان. قال ناقل هذه الكتابة: وقد وجدت في بعض البيوت المتخربة قطعة من نص وقفية بكتمر على البيمارستان وهذا نصها:

> ... وبسوق البز وجميع الدار المجاورة للبيمارستان من جهة الشمال والربع والثمن من الحانوت بسوق السمانين، ومن شروطه أن يبدأ من ريع ذلك بعمارة المارستان وما هو موقوف عليه، أثابه الله تعالى.

ووجدت وقفية أخرى مكتوبة فوق حجر في جدار أحد المنازل الصغيرة مقابلة للكتابة السابقة وهذه صورتها ونصها:

---

[٥٤] Max Van Berechem: materiavx pour un corpus inscriptiunum arabiearum: Syrie du nord par maritz Sobernheim tome XXv; memories de l'Instilut francais d'archeologie oriental.



شكل ٤-٩: ما هو مكتوب على باب بيمارستان حصن الأكراد منقولة عن فان برشم.

«أوقفت الحاجة مريم زوجة ابن المسروري أثابها الله تعالى على هذا الوقف المبارك أربعة عشر سهمًا من البستان بقرية السحارة (الآن خراب وتبعد بمقدار ساعة ونصف عن حصن الأكراد).»

وحصن الأكراد في السهل المسمى البقاعية يحده من الجنوب جبل عكار وجبل لبنان ومن الشمال جبال النصيرية. وسبب تسميته بحصن الأكراد أن أحد أمراء المرداسيين، وهو شبل الدولة نصر بن مرداس صاحب حمص، أسكن فيه جماعة من الأكراد الذين أقاموا به وأولادهم لحماية الطريق، وذلك سنة ٤٢٢هـ فنسب إليهم، وكان من قبل يسمى حصن الصفح، وقد استولى عليه الصليبيون وبقي في أيديهم إلى سنة ٦٦٩هـ/١٢٧١م ثم استرده منهم الملك بيبرس قسيم أمير المؤمنين.



شكل ٤-١٠: صورة وقف بيمارستان حصن الأكراد منقولة عن فان برشم.

(١٧) البيمارستان الجديد بحلب

أو بيمارستان أرغون الكاملي

أنشأ الأمير سيف الدين أرغون[٥٥] الكاملي في سنة ٧٥٥ عمارة البيمارستان المنسوب إليه بحلب داخل باب قنسرين، واجتهد في أمره ورفل في أثواب ثوابه وأجره، وشيد بنيانه، ومهد مجالسه وإيوانه، ورفع قواعده، وهيأ بيوته ومراقده، وأعد له الآلات والخدم. ورتب لحفظ الصحة فيه أرباب الحكم وأباحه للضعيف والسقيم، وفتح بابه للراحل والمقيم، ورواه بالمياه الكثيرة وأنفق عليه أموالًا غزيرة، وأجرى عيون معلومه وجرايته، ووقف للقيام بمصالحه ما يزيد على كفايته. وقال في ذلك ابن كثير:

قـولا لأرغـون الـذي مـعـروفـه   بالعرف قد أحيا النفوس والأَرَج

[٥٥] البداية والنهاية لابن كثير حوادث سنة ٧٥٥.

أنـزلـك الـرحـمـن خـيـر مـنـزلٍ　　رحبٍ ورقاك إلى أعلى الدرج
بـنـيـت دارًا لـلـنـجـاة ولـلـشـفـا　　ليس بها على المريض من حرج

وتوفي الأمير أرغون الكاملي بالقدس الشريف يوم الخميس السادس والعشرين من شوال سنة ٧٥٨هـ، ودفن بتربة أنشأها غربي المسجد بشمال. وكان قد ناب بدمشق مدة ثم صار إلى نيابة حلب ثم سجن بالإسكندرية مدة، ثم أفرج عنه، فقام في القدس الشريف إلى أن كانت وفاته، وكان سلطان مصر إذ ذاك الملك الناصر حسن ابن الملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون.

وهذا البيمارستان[٥٦] هو من البيمارستانات الإسلامية الموجودة إلى اليوم في سوريا ومصر التي حفظت آثارها، فجميع نظامه بتفاصيله لا يزال سليمًا وله بوابة عظيمة ذات نخاريب، ودهليز ذو أعمدة وإيوانات، وبهو يشتمل على خلوات للمرضى. وبوجهته شقوق وحالة القبة من الداخل رديئة. وأول شيء يجب إجراؤه إخلاؤه من ساكنيه الذين أزالوا من أخشابه القديمة الشيء الكثير، ثم إصلاحه وترميمه وإصلاح بابه وتكميل ما نقص من قطعه. ومكتوب على باب البيمارستان عند باب قنسرين:[٥٧]

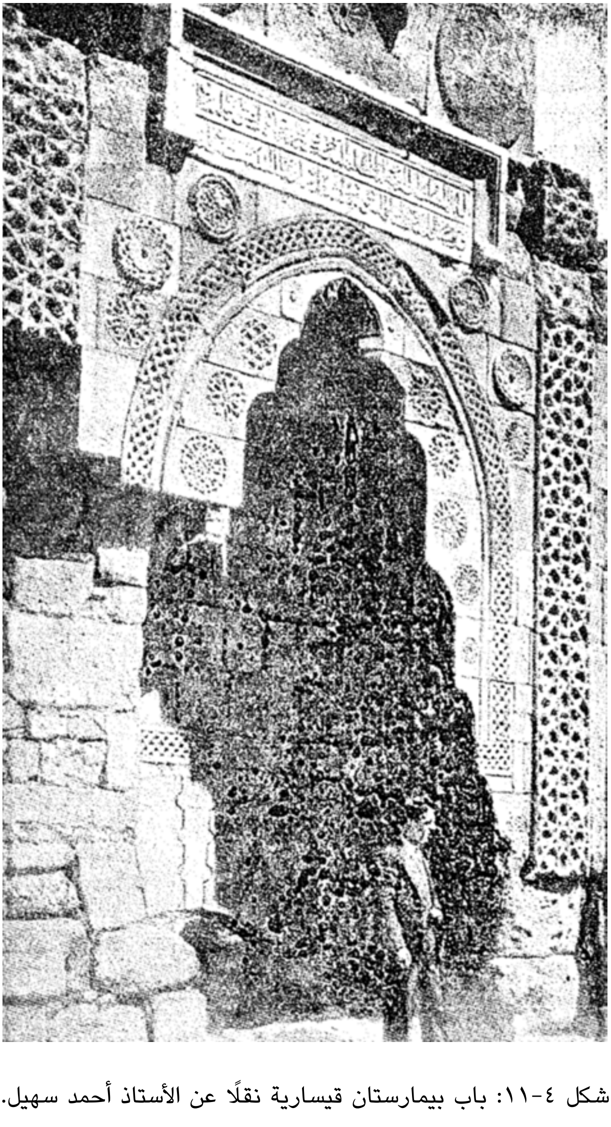
> بسم الله الرحمن الرحيم، أمر بإنشاء هذا البيمارستان الملك الناصر مولانا السلطان الملك الصالح ابن السلطان الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون خلد ملكه الله، والفقير إلى ربه أرغون الكاملي نائب السلطنة المعظمة بحلب المحروسة، غفر الله له وأثابه الجنة في شهور سنة ٧٥٥هـ/ ١٣٥٤م.

وفي أعلام النبلاء: أن محلة هذا البيمارستان كانت بيتًا لأمير فتوصل إليه بطريق شرعي، ولم يغير بوابة تلك الدار عن حالها، وإنما كتب عليها وهي معمورة، وهذا المارستان له أوقاف مبرورة، منها قرية بنش من عمل سرمين وغيرها، وكتاب وقفه موجود وقد رتب فيه القراء يقرءون القرآن طرفي النهار، وخبزًا يتصدق به، ورتب له جميع ما يحتاج إليه من أشربة وكحل ومراهم ودجاج وجميع الملطفات، وكان هذا

---

٥٦ Revue des etudes islamiques annee 1931. cahier 1: Jnventaire des monuments musulmans de la ville d'Alep.

٥٧ كتاب تحف الأنباء في تاريخ حلب الشهباء ص ١٤٠ طبع بيروت سنة ١٨٨٠.



شكل ٤-١١: باب بيمارستان قيسارية نقلًا عن الأستاذ أحمد سهيل.

المارستان بكفالة تفري برمس على أتم الوجوه، وشرط واقفه أن يكون النظر فيه لمن يكون كافل حلب، ولما تولى جانم الأشرفي كفالة حلب جعل إمامه متكلمًا على هذا البيمارستان، فصنع له سحابة على إيوانه القبلي على قاعدة بيمارستان القاهرة، إذ في هذه السحابة منفعة للضعفاء تقيهم الحر والبرد.

ولما كان بتاريخ ربيع الأول سنة ٨٢٥هـ اطلع مولانا المقر الأشرف السيفي المالكي الصالحي[٥٨] مولانا الملك الآمر عز نصره، وهو الناظر الشرعي على البيمارستان السيفي أرغون الكاملي بحلب المحروسة على ما شرط الواقف أثابه الله في كتاب وقفه، فمنع من هو بغير شرط الواقف.

ونأتي هنا على وصف مسهب لهذا البيمارستان كما ذكره صاحب أعلام النبلاء قال:

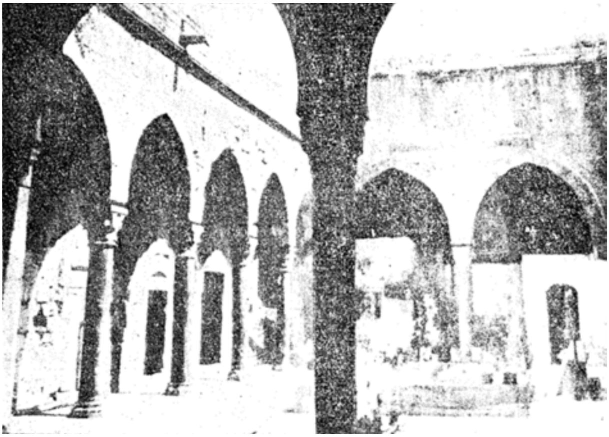
> تدخل إلى البيمارستان فتجد عن يمينك حجرة هي الآن خربة ثم تدخل الباب الثاني فتجد عن يمينك حجرة أخرى، كانت هاتان الحجرتان لقعود الأطباء ووضع ما يحتاجون إليه من الأدوية والأشربة، ثم تجد صحنًا واسعًا يحيط بطرفيه الجنوبي والشمالي رواقان ضيقان مرفوعان على أعمدة عظيمة، وراءهما حجرة صغيرة هي محل حبس المجانين فيها. ثم تدخل من الجهة الشمالية في دهليز وبعد خطوات تجد دهليزين: الذي على اليمين يأخذ إلى باب آخر للمارستان تخرج منه إلى بوابة صغيرة وهو معلق الآن، والدهليز الذي على اليسار يأخذك إلى صحنين حولهما حجرة صغيرة وهي معدة أيضًا لحبس المجانين. وهناك يأخذك الهول ويدخل قلبك الروع للظلمة المخيمة على هذه الأمكنة ولا منافذ لها، وروائح العفونة والأقذار منتشرة فيها.

> ثم قال:

> وقد بلغنا أنه كان في أطراف الصحن الخارجي وعلى أطراف الحوض الذي في وسطه أنواع الرياحين ليناظرها المجانين، وكانوا يأتون بآلات الطرب وبالمغنين

---

[٥٨] هو الملك الصالح ناصر الدين محمد بن ططر من ملوك الشراكسة، وكان سلطان مصر والبلاد الشامية سنة ٨٢٥ في أيام الخليفة المعتضد بالله.



شكل ٤-١٢: بيمارستان أرغون الكاملي بحلب.

فيداوون المجانين بها أيضًا. وكان أمره جاريًا على الانتظام إلى أواخر القرن العاشر، ومن ذلك الحين أهمل أمره وزالت تلك الأوضاع منه. وكان بلاط الصحن متوهنًا جدًّا فاهتم جميل باشا سنة ١٣٠٢هـ بتبليطه وتجديد حوضه وترميمه. وكان يسكن في إيوانه الغربي رجل يقال له أبو حيدرة هو وأسرته، فكانوا يحافظون على هؤلاء المجانين ويطعمونهم ويرفعون الأقذار من عندهم. ومنذ نحو عشر سنوات أو أزيد بقليل أخذ من كان فيه من المجانين، وكانوا نحو عشرين شخصًا، إلى الأستانة، وهو آخر العهد بهم. والآن يسكنه بعض الفقراء، وقد كان لبابه حلقتان كبيرتان جميلتا الشكل من النحاس الأصفر، قلعتا منه منذ خمس عشرة سنة وأخذتا إلى متحف الأستانة، ولا ندري أوصلتا إليه أم لا، ويعد هذا البيمارستان من جملة الآثار القديمة الباقية في حلب، غير أنه إذا بقي مهملًا على حالته الحاضرة أدى ذلك إلى تداعيه وخرابه. وأما واردات البيمارستان من قرية بنش فإنها حولت سنة ١٢٨٤هـ/١٨٦٧م إلى أوقاف الجامع الكبير.

(١٨) البيمارستان الدقاني

منسوب إلى دقان بن تتش السلجوقي أحد حكام دمشق في عصر السلاجقة قال ابن كثير:[٥٩] في ليلة الجمعة الحادي والعشرين من صفر سنة ٧٦٤ عملت خيمة حافلة بالبيمارستان الدقاني جوار الجامع بدمشق بسبب تكامل تجديده قريب السقف مبنيًا باللبن حتى قناطره الأربع بالحجارة البلق، وجعل في أعاليه قمريات كبار مضيئة وفتق في قبلته إيوانًا حسنًا زاد في أعماقه أضعاف ما كان، وبيضه بالجص الحسن المليح، وجددت فيه خزائن ومصالح وفرش ولحف جدد وأشياء حسنة، فأثابه الله وأحسن جزاءه، وحضر الخيمة جماعات من الناس من الخواص والعوام، ولما كانت الجمعة الأخرى دخله نائب السلطنة بعد الصلاة فأعجبه ما شاهده من العمارة، وأخبره عما كان حاله قبل هذه العمارة، فاستجاد ذلك من صنيع الناظر وهو الصاحب تقي الدين[٦٠] بن مراجل وذلك في سنة ٧٦٤هـ والسلطان بالديار المصرية والشامية والحجازية الملك المنصور صلاح الدين محمد بن الملك المظفر حاجي ابن الملك الناصر محمد ابن الملك المنصور قلاوون الصالحي، ومدبر الممالك بين يديه وأتابك العساكر الأمير سيف الدين يلبغا الخاصكي، ودخله السلطان يوم الجمعة الثاني والعشرين من المحرم بعد العصر خوفًا من المطر.

(١٩) بيمارستان الرملة

[٥٩] البداية والنهاية حوادث سنة ٧٦٤.

[٦٠] في يوم الثلاثاء ١٨ ذي القعدة سنة ٧٦٤ توفي الصاحب تقي الدين ابن مراجل ناظر الجامع الأموي وغيره، وكانت له همة ويثيب إلى أمانة وصرامة ومباشرة مشكورة ودفن بتربة أنشأها تجاه داره بالقبيبات وقد جاوز الثمانين.

(٢٠) بيمارستان نابلس

ذكر ابن حجر العسقلاني[٦١] أن محمد بن فضل الله القبطي فخر الدين ناظر الجيش كان قد أسلم وتسمى محمدًا وحج عشر مرات وزار القدس، وأحرم مرة من القدس إلى مكة، وكانت صدقته في كل يوم ألف درهم، وبنى عدة مساجد وعدة أحواض لسقي الماء في الطرقات، وله مارستان بالرملة وآخر بنابلس من أعمال فلسطين، اتصل بخدمة الناصر محمد ومات في رجب سنة ٧٣٢.

[٦١] الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة.

الفصل الخامس

بيمارستانات الجزيرة العربية

(١) بيمارستان مكة

قال تقي الدين أبو الطيب محمد بن أحمد بن علي:[١] وبمكة أوقاف كثيرة على جهات من القربات غالبها الآن غير معروف لتوالي الأيدي عليها. ومن المعروف منها البيمارستان المستنصري العباسي[٢] بالجانب الشمالي من المسجد الحرام، وتاريخ وقفه سنة ٦٢٨هـ، وعمرها في عصرنا الشريف حسن بن عجلان صاحب مكة عمارته التي هو عليها الآن، وزاد فيه على ما كان عليه أولًا إيوانين أحدهما في جهته الشمالية والآخر في جهته الغربية، وأحدث فيه صهريجًا ورواقًا فوق الإيوانين اللذين أحدثهما، وفوق الإيوان الشرقي الذي كان فيه من قبل وجدد هو عمارته، وفوق الموضع الذي به الشباكان المشرفان على المسجد الحرام، وأدخل فيه البئر التي كان يستقى منها للميضأة الصرغتمشية، ووقف جميع ما بناه وما يستحق منافعه في الموضع المذكور المدة التي يستحقها على الضعفاء والمجانين، ووقف عليه منافع الدار المعروفة بدار الإمارة عند باب شيبة بعد عمارته لها حين تخربت بالحريق الذي وقع في آخر ذي القعدة من سنة ٨١٤هـ. وذلك بعد استيجاره واستيجاره للبيمارستان المذكور لتخربها من القاضي الشافعي بمكة مدة مائة سنة، وأذن له في صرف أجرة الموضعين في عمارتهما، وكان استيجاره لذلك في شهر ربيع الأول سنة ٨١٥هـ، وفيها شرع في عمارتهما، وكان وقفه لذلك في صفر

[١] كتاب شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام لتقي الدين أبي الطيب محمد بن أحمد بن علي الحسني الفاسي المكي قاضي المالكية بالحرم الشريف ص ١١٥ طبع ليبزيغ (ولد بمكة سنة ٧٧٥هـ).

[٢] هو المستنصر بالله جعفر ابن الظاهر بويع عام ٦٢٣هـ.

سنة ٧١٨، ووقف المنافع يتمشى على رأي بعض متأخري المالكية وحكم به بعض طلبة المالكية ليثبت أمره، وإن كان بعض المعتبرين من المالكية لا يرى جوازه. وقال الشيخ قطب الدين النهروالي[٣] المكي: وفي سنة ٨١٦هـ عمر شريف مكة يومئذ وهو الشريف حسن بن عجلان بن رميثة جد سيدنا ومولانا شريف مكة الآن سنة (٩٧٩هـ) السيد الشريف حسن بن أبي نمي بن بركات بن محمد بن بركات بن حسن بن عجلان أدام الله تعالى دولته وسعادته بالجانب الشمالي من المسجد الحرام البيمارستان، الذي كان وقفًا للمستنصر العباسي فخرب ودثر، فاستأجره من قاضي القضاة بمكة يومئذ القاضي جمال الدين بن ظهيرة الشافعي إجارة طويلة مائة عام بأربعين ألف درهم بوزن مصر، وأذن القاضي جمال الدين السيد حسن بن عجلان أن يصرف الأجرة المذكورة في عمارة ما تخرب من البيمارستان المذكور، وأن يهدم ما يحتاج إلى الهدم ويرمم يما يحتاج إلى ترميم، وأن ينتفع به مدة إجارته، فشرع السيد حسن في عمارة البيمارستان المذكورة عمارة حسنة، وجدد به ما يحصل به النفع للفقراء، وجدد به إيوانًا وصهريجًا، ووقف جميع ذلك مما عمره ومما يستحق الانتفاع به على الفقراء والمساكين والمرضى والمنقطعين، يأوون إليه علوًا وسفلًا وينتفعون بالإقامة والسكن فيه، لا يزعجهم أحد ولا يخرجهم، بل يستمرون إلى أن يحصل لهم الشفاء والعافية فيخرجون باختيارهم، فإذا خلا البيمارستان من المرضى عاد الانتفاع لهم، وكتب بذلك كتاب وقف على الصورة المشروحة، وجعل النظر على ذلك لولديه بركات وأحمد، ثم من بعدهما للأرشد فالأرشد من ذرية الذكور دون الإناث من ولد الظهر لا البطن. وثبت ذلك وحكم بصحته القاضي السيد رضي الدين أبو حامد محمد بن عبد الرحمن الفاسي الحسني المالكي في يوم الجمعة لعشر مضين من صفر سنة ٨١٦، وإنما استحكم فيه المالكي لأن متأخريهم أجازوا وقف المنافع، وهو خلاف رأي أبي حنيفة والشافعي. واستمر إلى أن خرب ودثر فاستبدل مرارًا آخر ذلك في أواخر دولة المرحوم المقدس السلطان سليمان خان بن سليم خان سقى الله عهده صوب الرحمة والرضوان.

وقال الشيخ قطب الدين:[٤] إن المدرسة الحنفية التي أنشأها سلطان الهند السلطان أحمد شاه الكشراني بجانب البيمارستان، كانت بيده هي والبيمارستان المستنصري

[٣] الإعلام بأعلام بيت الله الحرام ص ٢٠٢ طبع ليبسيك سنة ١٨٧٥ ولد الشيخ قطب الدين النهرواني بمكة سنة ٩٣٠ وتوفي سنة ٩٨٨ وقيل سنة ٩٩٠.

[٤] الإعلام بأعلام بيت الله الحرام ص ٣٥١ و٣٥٣.

وكذلك أوقاف السلطان الملك المؤيد شيخ المحمودي. قال الشيخ قطب الدين: وأقرأت فيها درسًا في الطب ودرسًا في الحديث. وفي أوائل القرن التاسع الهجري أوقف الجمال محمد بن الشهاب أحمد البوني[٥] من أهل بونه Boune من أعمال تونس بالمغرب الذي سافر إلى مكة وقطن الحجاز على البيمارستان المكي بعض الأماكن. وكان إبراهيم بن محمد برهان الدين الكردي[٦] نزيل الحرمين متوليًا مشيخة البيمارستان بمكة بعد موت الشمس البلوي، وجدد في أوقافه المكان المجاور لأحد أبوابه، اشتراه من ريعه في سنة ٨٤٦هـ. وأوقف محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن الجمال محمد بن الشهاب أحمد بن أحمد في مرض موته على البيمارستان المكي بعض الأماكن، وكان قد قدم جده من المغرب وهو فقير جدًّا، فقطن الحجاز وترقى ابنه بخدمة الشريف بركات بن أبي نمي صاحب مكة، وكان فيه خير بحت، وتوفي بمكة عام ١٠١٧هـ ودفن بالمعلاة.

(٢) بيمارستان المدينة

قال النويري[٧] في سنة ٦٦٣هـ جهز الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحي، الأخشاب والحديد والرصاص والآلات والصناع، فكانوا ثلاثة وخمسين رجلًا لإتمام عمارة الحرم الشريف النبوي، وأنفق فيه الأموال وجهز معهم المؤنة، وندب لذلك الطواشي شهاب الدين محسن الصالحي ورضي الدين أبا بكر والأمير شهاب الدين الغازي ابن الفضل اليعمري مشدًا ومحيي الدين أحمد بن أبي الحسين ابن تمام طبيبًا إلى البيمارستان الذي بالمدينة، ومعه أدوية وأشربة ومعاجين ومراهم وسكر لأجل من يعتريه من الجماعة مرض. وكان خروجهم من القاهرة في سابع عشر شهر رجب ووصل إلى المدينة في ثاني شوال. وقال ابن شاكر الكتبي[٨] تمم الملك الظاهر بيبرس عمارة حرم رسول الله ﷺ وعمل منبره وأحاط بالضريح درابزين، وذهب سقفه وبيضه، وجدد

---

[٥] الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع للسخاوي.

[٦] الضوء اللامع.

[٧] نهاية الأرب في فنون الأدب حوادث سنة ٦٦٣.

[٨] فوات الوفيات ترجمة الظاهر بيبرس.

البيمارستان ونقل إليه سائر المعاجين والأكحال والأشربة، وبعث إليه طبيبًا من الديار المصرية. وتوفي الملك الظاهر يوم الخميس ١٨ محرم سنة ٧٦٧هـ.

الفصل السادس

بيمارستانات إيران

(١) بيمارستان الري

قال ياقوت في كلامه عن مدينة الري: أنشأ المسلمون في هذه المدينة بيمارستانًا. ولم أهتد إلى من أنشأه. وقال ابن القفطي[1] ذكر ابن جلجل الأندلسي في كتابه قال: أبو بكر محمد بن زكريا الرازي مسلم النحلة، أديب طبيب مارستاني دبر مارستان الري ثم مارستان بغداد.

وقال سليمان بن حسان:[2] إن الرازي كان متوليًا لتدبير بيمارستان الري زمانًا قبل مزاولته وتصرفه في البيمارستان العضدي ببغداد.

ومدينة الري كانت مدينة عامرة بينها وبين قزوين على بحر الخزر نحو سبعة وعشرين فرسخًا، افتتحها المسلمون سنة ٢٠هـ. قال ياقوت: كانت الري مدينة عظيمة خرب أكثرها، واتفق أني اجتزت في خرابها في سنة ٦١٧هـ وأنا منهزم من التتار، فرأيت حيطان خرائبها قائمة ومنابرها باقية وتزاويق الحيطان بحالها لقرب عهدها بالخراب، إلا أنها خاوية على عروشها وحكى الإصطخري أنها كانت أكبر من أصبهان وليس بعد بغداد بالمشرق أعمر منها.

[1] تاريخ الحكماء.

[2] طبقات الأطباء ج ٢ ص ٣١٠.

(٢) بيمارستان أصبهان

ذكر ابن أبي أصيبعة:[٣] أن ابن مندويه الأصبهاني من الأطباء المذكورين ببلاد العجم، وكانت له أعمال مشهورة في صناعة الطب ألف رسالة إلى المتقلدين علاج المرضى ببيمارستان أصبهان، ولم أقف على أكثر من ذلك.

(٣) بيمارستان شيراز

ذكر ابن تغري بردي:[٤] أن محمود بن مسعود بن مصلح العلامة قطب الدين أبو الثناء الفارسي الشيرازي المولود بشيراز سنة ٦٢٤هـ رتب طبيبًا بالبيمارستان وهو حدث، ثم سافر إلى النصير الطوسي ولازمه وقرأ عليه الهيئة والرياضي واجتمع بهولاكو وأبغا ومات سنة ٧١٠هـ

(٤) دار المرضى بنيسابور

ذكر العيني:[٥] أن عبد الملك بن أبي عثمان محمد بن إبراهيم أبا سعيد النيسابوري المعروف بالخركوش، تفقه وتزهد وجاور بمكة وسمع الحديث، ثم انصرف إلى وطنه نيسابور فعمر القناطر والجسور والحياض، وبنى المساجد ودار المرضى، ووقف عليها الأوقاف، وله خزانة كتب كبيرة موقوفة وصنف الكتب، وتوفي بنيسابور في جمادى الأولى سنة ٤٠٧هـ. وذكر ابن الملقن الأندلسي[٦] أن الحسن بن علي بن إسحاق الوزير نظام الملك من وزراء السلجوقية بنى بيمارستانًا بنيسابور، ويقال إنه كان يتصدق في بكرة كل يوم بألف دينار، وتوفي في رمضان سنة ٤٨٥هـ.

[٣] طبقات الأطباء ج ٣ ص ٢٢.

[٤] المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ص ٣٥٠.

[٥] عقد الجمان حوادث سنة ٤٠٧ وتاريخ الإسلام للذهبي من سنة ٤٠١–٤١٦هـ.

[٦] طبقات الشافعية ص ١٣٢.

(٥) بيمارستان زَرَنْج

ذكر الإصطخري[٧] أن عمرو بن الليث الصقال بنى بزرنج سوق عمرو، ووقفه على المسجد الجامع والبيمارستان والمسجد الحرام، وغلة هذا السوق في كل يوم نحو ألف درهم، ومدينة زرنج هي قصبة سجستان وأسواقها على غاية من العمارة.

(٦) بيمارستان تبريز

بنى رشيد الدين فضل الله[٨] وزير السلطان اولجايتو دار شفاء بتبريز في أوائل القرن الثامن الهجري أي نحو سنة ٧١٠هـ أو أزيد قليلًا.

(٧) بيمارستان مرو

قال ابن البيطار في مفرداته: قال عيسى بن ماسه:[٩] أما نحن في بيمارستان مرو فإنا نستعمل الحرمل ... إلخ فثبت أنه كان بمرو بيمارستان، وكان عيسى بن ماسه من المشتغلين فيه.

(٨) بيمارستان خوارزم

في أواخر سنة ٧٣٣ دخل ابن بطوطه[١٠] خوارزم سائحًا فقال في رحلته: وبخوارزم مارستان له طبيب شامي يعرف بالصهيوني نسبة إلى صهيون من بلاد الشام، ولم أر في الدنيا أحسن أخلاقًا من أهل خوارزم. وخوارزم هذه ولاية متسعة في شمال خراسان زارها ياقوت الحموي في سنة ٦١٦هـ، فوجد بها العمار منتشرًا وأهلها علماء فقهاء أذكياء. وقد وردها التتار سنة ٦١٨هـ وخربوها وقتلوا أهلها وتركوها تلالًا.

---

[٧] المسالك والممالك ص ٢٤١ طبع ليدن.

[٨] الأخية — الإخوان التركية.

[٩] الجامع للمفردات ج ٢ ص ١٥.

[١٠] خرج ابن بطوطه سائحًا من طنجة سنة ٧٢٥هـ وبعد رجوعه من رحلته أملى رحلته سنة ٧٥٦هـ.

الفصل السابع

بيمارستانات بلاد الروم (أي الأناضول)

(١) بيمارستان قيسارية أو دار الشفا

دار الشفاء بقيسارية منسوبة إلى كوهي خاتون[١] وكان بناؤها سنة ٦٠٢هـ وهذه الخاتون المباركة كانت ابنة قليج أرسلان السلجوقي، وهذه الدار تسمى أيضًا مدرسة شفائية غياثية لأنها بنيت على وصية هذه السيدة بأمر غياث الدين كيخسرو ابن قليج أرسلان وهو أخوها.

وعلى هذه الدار بالخط السلجوقي ما يأتي: أيام السلطان المعظم غياث الدنيا والدين كيخسروا بن قليج أرسلان دامت ... اتفق بناء هذا المارستان وصية عن الملكة عصمة الدنيا والدين كوهي نسيبة ابن قليج أرسلان سنة ٦٠٢هـ.

ولم يعثر على كتاب وقف هذا المارستان، والكتابات المعمارية والتاريخية لهذا الأثر في كتاب «الكتابات القيسارية لخليل أدهم» مدير متحف الآثار القديمة سابقًا طبع استنبول سنة ١٣٣٤هـ، وقال الأستاذ الدكتور أحمد سهيل التركي في المؤتمر التاسع لتاريخ الطب المنعقد في بوخارست في ١١ سبتمبر سنة ١٩٣٢: إن مارستان قيسارية لا يزال موجودًا يؤدي خدمته بعد أن أصلح على النظم الحديثة.

وقيسارية مدينة عظيمة من بلاد الروم كانت تابعة لصاحب العراق واسمها القديم Caesaria وكانت عاصمة بني سلجوق ملوك الروم أولاد قليج أرسلان افتتحها ألب أرسلان سنة ١٠٦٦م.

[١] ذيل على فضل الأخية — الفتيان التركية في كتاب الرحلة لابن بطوطه تأليف م. جودت طبع استنبول سنة ١٣٥٠هـ/١٩٣٢م.

(٢) المدرسة الشفائية بسيواس

بناها كيكاورس بن كيخسرو السلجوقي بن قليج أرسلان سنة ٦١٤هـ/١٢١٧م ومكتوب عليها: أمر بعمارة هذه الدار لرضاء الله تعالى السلطان الغالب بأمر الله عز الدنيا والدين ركن الإسلام والمسلمين سلطان البر والبحر تاج آل سلجوق أبو الفتوح كيكاوس بن كيخسرو برهان أمير المؤمنين سنة ٦١٤هـ.

وكتاب الوقف محفوظ بدار الأوقاف[٢] ننقل خلاصته وهي: وقف الواقف المذكور المبرور سقاه الله تعالى شآبيب الرحمة والرضوان، وكساه جلابيب العفو والغفران: الضياع الخمس والحوانيت المائة والأشقاص السبعة والمبقلة والرحى والهري والإسطبل، المذكورة المحدودة الموصوفة في هذا الذكر بجميع حدودها وحقوقها ومرافقها وتخومها ومصالحها ورسومها كلها، أرضها وبناءها ونقضها وسماءها وعلوها وسفلها وبيوتاتها ومنازلها ومعالفها وأصايلها وأواخيرها ومنابدها ومراعيها ومساكنها وأشجارها وكرومها، وأفراخها وبساتينها ومستأجرها ومروجها ومقاصها ومحاسنها ومحاطبها ومبقالها، وأنهارها وسواقيها وآبارها ورياضها وغياضها وغدرانها وحياضها وعيونها، ووهادها وتلالها وقيعانها وجبالها، وحق شربها المعلوم، وملقى ذيلها المرسوم، وعامرها وغامرها، وكل حق هو لها داخل فيها وخارج عنها، ومتصل بها ومنفصل عنها، ومعروف بها ومعلوم لها، ومعزى إليها ومعدود منها بأسرها وحذافيرها على «دار الشفاء» ومأوى المرضى والأعلاء، التي رسم بإنشائها وأمر ببنائها الكائن موضعها ظاهر كورة سيولس، حماها الله تعالى وحرسها، على فوهة جادة توقات حيث عن الآفات؟ المشتملة عليها حدود أربعة: أولًا ... (صرفنا النظر عن ذكره اجتنابًا للتطويل) وثانيًا ... وثالثًا ... ورابعًا ... وقفًا مؤبدًا صحيحًا شرعيًّا وتصدقًا سرمدًا صريحًا سمعيًّا ونحبيًا جائزًا قطعيًّا بتًّا بتلًا فضلًا جاريًا على منهج الشرع، حاويًا مقتضى الحكم، خاليًا عن الموانع الفادحة، جامعًا لشرائط الصحة لاتباع هذه الأوقاف المذكورة، ولا يوهب ولا يرهن ولا يورث ولا يملك ولا يتلف ولا يهلك ولا يخلف لوجه من الوجوه وسبب من الأسباب، بل يجري على أصلها المؤيد، وتقام على شرائطها المؤكد [كذا]، لا

[٢] الأخية الفتيان التركية تأليف م. جودت طبع استنبول سنة ١٣٥٠هـ/١٩٣٢م نقلنا الوقفية كما هي بأغلاطها اللغوية.

ينقصها مرور الأيام، ولا ينقضها كرور الشهو والأعوام ... وجعل الأمير الأجل الكبير المبجل الأمير العاقل العالم العادل الكافي الكامل المظفر المؤيد المنصور المشيد؟ جمال الدين، جلال الإسلام والمسلمين عمدة الملوك والسلاطين في الممالك، أستاذ الدار فرخ بن عبد الله الخازن الخاص دام توفيقه متوليًا الأوقاف المذكورة في هذه الوثيقة ... وناظرًا فيها يتولى بنفسه ويستنيب من ينوبه [كذا] ويوكل إلى من يشاء، ويفوض إلى من آثر واختار، ويوكل فيها من أراد، ويعزل عن الوكالة أنى أحب ومتى شاء، لا اعتراض لأحد من الناس كائنًا من كان فيها عليه، فهو المعول عليه في تقدير واردات الأطباء الحاذقين والمترفقين الفائقين المجربين المهذبين الغير المتحذلقين، والكحالين الفاضلين والجراحين المصلحين الشفيقين الرفيقين القاضين بها، وترتيب غير التعبير؟ لتحصيل الأدوية والعقاقير وتمشية أحوال المستخدمين من الملازمين على تباين درجاتهم وتفاوت طبقاتهم، فما أفاد الله تعالى من فوائد ربيع مستغلها يصرف في عمارة الأوقاف المذكورة، وبناء ما انهدم، وإصلاح مرماتها واستزادة غلاتها، فما فضل عنها يصرف إلى نفسه منها كل سنة من القراطيس البيض بالفضة السلطانية الرائجة ببلاد الروم في معاملات أهلها أربعة آلاف درهم قرطاس فضي من النقد المذكور، النصف منها كلها تأكيدًا لها ألفا قرطاس فضة من الغلة النقية ألف مد (بن براتي) النصف من ذلك خمسمائة مد حسب المحرر، ويختزن الفاضل في خزانة دار الشفاء المذكور إذن لتنفق شراء أعلى من العقارات، ونفائس المستغلات حصلها بالمبايعة، وأضافها على الأوقاف المذكورة ردمًا لازيادها. وشرط الواقف المذكور على المتولي المذكور والناظر في أوقافه المذكورة وكل متولي بعده أن لا يؤجر شيئًا منها عند مسيس الحاجة في الإجارة أكثر من ثلاث سنين متوليات، ثم لا يعقد عليه عقد إجارة أخرى حتى تنقضي هذه الإجارة المعقود عليها الأولى، ولا يؤجر من ظالم أو طامع ولا متغلب ولا متعد، ولا من يخشى غائلته، فإن انطمست دار الشفاء المذكورة عياذًا بالله واستحال استجراؤها وتعذر السكون إليها وعدم الانتفاع بها صارت الفوائد الحاصلة من الأوقاف المذكورة إلى فقراء المسلمين ومحاويج الموحدين ومساكين المسلمين ... إلخ.

قال الدكتور أحمد سهيل في مؤتمر تاريخ الطب ببوخارست: هذا المارستان لا يزال موجودًا.

(٣) مارستان قوتلوغ توركان بإيران

مآثر قوتلوغ توركان[٣] خاتون بن ملكات قره خطائية الحاكمة بإيران جديرة بأن تذكر في ساحة الفتوة والكرم، وهذه الملكة جلست على كرسي السلطنة بعد السلطان قطب الدين بإيران سنة ٦٧٠هـ وسيرتها مضبوطة في تاريخ آل سلجوق بمكتبة أيا صوفيا (رقم ٣٠١٩ ورقة ٨٨ و٨٩)، يذكر فيها أنها وقفت تلك الآثار مدرسة وسائر بقاع خيراز رباطات ومساجد ودار شفاء وقناطر وخانقاهات وسائر أبواب الخير.

(٤) بيمارستان أماصيه

أنشأت إيلدوز من خاتون زوجة السلطان أولجايتو دار الشفا محتمشة بأماصيا سنة ٧٠٨هـ/١٣٠٨م ولا تزال موجودة.

(٥) بيمارستان ديوركي

أنشأت توران خاتون زوجة أحمد شاه الرانشمندي دار الشفاء بمدينة ديوركي في سنة ٦١٤هـ/١٢٢٨م ولا تزال موجودة.

(٦) بيمارستان محمد الفاتح

في سنة ١٤٧٠م أنشأ السلطان محمد الفاتح مارستانًا بقسطنطينية ومن الأطباء الذين عملوا فيه:

(١) **المولى محمود بن الكمال**[٤] الملقب بأخي جان المشتهر بأخي جلبي، كان أبوه في بلدة تبريز ثم أتى إلى بلاد الروم ونزل قسطنطينة، وعانى فيها الطب، وتعين طبيبًا لدار السلطنة ورئيسًا للأطباء في المارستان الذي بناه السلطان محمد خان بمدينة القسطنطينية وتوفي سنة ٩٠٣هـ.

---

[٣] ذيل على فصل الأخية الفتيان التركية تأليف م. جودت طبع استنبول سنة ١٣٥٠هـ/١٩٣٢م.

[٤] الشقائق النعمانية ج٢ ص ٢٤ والسنا الباهر للشبلي.

(٧) بيمارستان السلطان سليمان

السلطان سليمان[٥] ابن السلطان سليم خان عاشر سلاطين آل عثمان والمتوفى في ٢٢ صفر سنة ٩٧٤هـ، بنى بالقسطنطينية بيمارستانًا لمداواة المرضى وتربية المجانبين بأنواع الأشربة والأطعمة والمعاجين.

(٨) بيمارستان أدرنة

أنشأ هذا المارستان أحد سلاطين آل عثمان، ولم أتحقق من هو، ويغلب أن يكون إنشاؤه قبل عهد السلطان سليم، ولعل السلطان بايزيد الثاني هو الذي أنشأه، ويفهم ذلك من ترجمة أحد الأطباء الذين عملوا في هذا المارستان وهو:

(١) **الحكيم شهاب الدين يوسف**[٦] قرأ في أول عمره على علماء عصره ثم رغب في الطب، وقرأ على الحكيم محي الدين، ثم نصب طبيبًا في مارستان أدرنة ومارستان قسطنطينية، ثم جعل طبيبًا للسلطان سليم خان وهو أمير على بلده طرابوزان، ولما جلس السلطان سليم خان على سرير المملكة جعله طبيبًا لدار السلطنة ثم جعله رئيسًا للأطباء، ودام على ذلك إلى أن توفي في سنة ٩٥١هـ وكانت سنه مائة سنة أو أكثر، وكان رحمه الله عالمًا صالحًا عابدًا سليم الطبع حليم النفس معرضًا عن أحوال الدنيا.

(٩) بيمارستانات أخرى ببلاد الروم (الأناضول)

وقد أنشئت في بلاد الروم بيمارستانات أخرى لم نقف على تاريخها بالشرح الكافي، ونكتفي بذكر أسمائها وتواريخها، وقد ذكرها الدكتور أحمد سهيل في مؤتمر تاريخ الطب ببوخارست:

(أ) بيمارستان قصطاموني أو بيمارستان علي فريانه أنشئ سنة ١٢٧٢م.
(ب) بيمارستان علاء الدين قيقباد بقونيه أنشئ سنة ١٢١٩م.

---

[٥] العقد المنظوم في ذكر أفاضل الروم ج ٢ ص ٢٩٤.

[٦] الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية والسنا الباهر للشبلي.

(جـ) دار الطب ببروسه أنشئت سنة ١٣٣٩م.

(د) بيمارستان للجذام بأدرنة أنشئ سنة ١٤٣١م.

(هـ) بيمارستان بايزيد الثاني بأدرنة أنشئ سنة ١٤٨٥م ولعله البيمارستان السابق ذكره.

(و) بيمارستان خاصكي سلطان باستنبول أنشئ سنة ١٥٣٩م.

(ز) بيمارستان والده سلطان بمغنيزيه أنشئ سنة ١٥٥٤م.

(ح) بيمارستان السلطان أحمد باستنبول أنشئ سنة ١٦١٦م.

الفصل الثامن

بيمارستانات المغرب

(١) بيمارستان تونس

في تونس مارستان[١] بالقرب من سيدي محرز لا يزال موجودًا ولكنه قد تغيرت معالمه. ويرجع تاريخه إلى القرن الثالث عشر الميلادي. وذكر الفقيه العلامة الشيخ أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللؤلؤي المعروف بالزركشي:[٢] أن أمير المؤمنين أبا فارس عبد العزيز بن السلطان أبي العباس، أحمد بن أبي عبد الله محمد بن السلطان أبي يحيى بن أبي بكر، أحد ملوك الدولة الحفصية، تولى تونس بعد وفاة والده الخليفة السلطان أبي العباس أحمد في يوم الأربعاء ثالث شعبان سنة ٧٩٦، فأخذ بالحزم في أموره، وجعل في كل خطة من يصلح بها، فاستقامت الأمور بتونس وفي أيامه كلها أحسن استقامة، وأحدث في أيامه بتونس حسنات دائمة فمنها … ومنها إقامة الخزانة بجوفي جامع الزيتونة، وحبس ما فيها وفي غيرها من الكتب في العلوم الشرعية والعربية واللغة والطب والحساب والتاريخ والأدبيات وغير ذلك، ومنها إحداث المارستان بتونس للضعفاء والغرباء وذوي العاهات من المسلمين، وأوقف على ذلك أوقافًا كثيرة تقوم به.

[١] Manuel d’Art musulman. Par H. saladin p. 200.

[٢] تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ص ٩٩، ١٠٠، ١٠٢ طبع تونس سنة ١٢٨٩.

ومن الأطباء الذين عملوا ببيمارستان تونس:

(١) **محمد الشريف الحسني الزكراوي:**[٣] نسبه إلى جده أبو زكريا الفاسي نزيل تونس وبها توفي سنة ٨٧٤هـ وقد جاوز الخمسين، وكان أديبًا طبيبًا لبيبًا، ولي البيمارستان بتونس وقرأ العقليات مع مشاركة في الفقه واعتناء بالتاريخ.

(٢) بيمارستان مراكش

أو بيمارستان أمير المؤمنين المنصور أبي يوسف

قال عبد الواحد المراكشي[٤] في سياق كلامه عن أبي يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي بن علوي الكومي من ملوك الموحدين بالمغرب: وبنى بمدينة مراكش بيمارستانًا ما أظن أن في الدنيا مثله، وذلك أنه تخير ساحة فسيحة بأعدل موضع في البلد، وأمر البنائين بإتقانه على أحسن الوجوه، وأتقنوا فيه من النقوش البديعة والزخارف المحكمة ما زاد على الاقتراح، وأمر أن يغرس فيه مع ذلك من جميع الأشجار والمشمومات والمأكولات، وأجرى فيه مياهًا كثيرة تدور على جميع البيوت، زيادة على أربع برك في وسط إحداها رخام أبيض، ثم أمر له من الفرش النفيسة من أنواع الصوف والكتان والحرير والأديم وغيره بما يزيد عن الوصف ويأتي فوق النعت، وأجرى له ثلاثين دينارًا في كل يوم برسم الطعام، وما ينفق عليه خاصًّا خارجًا عما جلب إليه من الأدوية، وأقام فيه من الصيادلة لعمل الأشربة والأدهان والأكحال، وأعد فيه للمرضى ثياب ليل ونهار للنوم من جهاز الصيف والشتاء، فإذا نقه المريض فإن كان فقيرًا أمر له عند خروجه بمال يعيش به ريثما يستقل، وإن كان غنيًّا دفع إليه ماله وتركته وسببه، ولم يقصره على الفقراء دون الأغنياء، بل كل من مرض بمراكش من غريب حمل إليه وعولج إلا أن يستريح أو يموت. وكان في كل جمعة بعد صلاته يركب ويدخله يعود المرضى ويسأل عن أهل بيت أهل بيت ويقول: كيف حالكم؟ وكيف القومة عليكم؟ إلى غير ذلك من السؤال، ثم يخرج، لم يزل مستمرًّا على هذا إلى أن مات رحمه الله في شهر صفر سنة ٥٩٥هـ وله من العمر ٤٨ سنة، ومدة ولايته ١٦ سنة وثمانية شهور.

---

[٣] الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع لابن حجر العسقلاني.

[٤] المعجب في تلخيص أخبار المغرب.

الأطباء الذين خدموا في هذا المارستان

(١) **أبو إسحاق إبراهيم الداني:** كانت له عناية بالغة بصناعة الطب وأصله من بجاية ونقل إلى الحضرة، وكان أمين البيمارستان وطبيبه بالحضرة وكذلك ولداه، وتوفي الداني في مراكش دولة المستنصر بن الناصر.[٥]

(٢) **محمد بن قاسم:**[٦] بن أبي بكر القرشي المالقي نزيل غرناطة، قال ابن الخطيب: كان بارع الكتابة والنظم حسن النادرة عارفًا بالطب، ولي النظر على البيمارستان بفاس ومات وسط سنة ٧٥٧هـ وله ٥٤ سنة.

(٣) بيمارستان سلا

لما قدم أبو العباس أحمد بن محمد بن عمر بن عاشر الأنصاري الأندلسي من بلاد الأندلس جعل إقامته بسلا، وذلك في النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادي بعد أن تنقل في بلاد المغرب مثل فاس ومكناسة وشالة، وأخذ ابن عاشر يعالج المرضى واشتهر اسمه بسيدي ابن عاشر الطبيب، وأنشئ بالقرب من قبره مارستان، وتوفي ابن عاشر سنة ٧٦٤هـ أو سنة ٧٦٥. ودفن في القرية المسماة باسمه، وقبته من أكبر القباب في كل من سلا ورباط، وفي سنة ١٢٤٧هـ/١٨٤٦م جدد[٧] السلطان مولاي عبد الرحمن بناء هذا المارستان.

وسلا مدينة بالمغرب الأقصى على ساحل المحيط الأطلنطي وقد اختارها ابن الخطيب[٨] مقامًا له، وقد وصفها في مقاماته بقوله: «العقيلة المفضلة، والبطيحة المخضلة، والقاعدة المؤصلة، والسورة المفصلة ذات الوسامة والنظارة، والجامعة بين البداوة والحضارة، معدن القطن والكتان والمدرسة والمارستان.»

٥ عيون الأدباء في طبقات الأطباء ج ٢ ص ٧٩.

٦ الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلاني.

٧ أخبرني بذلك المسيو رينو Renaud مدير المعهد الفرنسي للتاريخ والعلوم بمراكش.

٨ الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى ج ٢ ص ١١٣ طبع مصر.



شكل ٨-١: بيمارستان سيدي ابن عاشر بسلا.

(٤) بيمارستان سيدي فرج بفاس

جاء في كتاب سلوة الأنفس:[٩] أنه بالقرب من سوق العطارين وسوق الحنا بفاس، مكان يقيم به المرضى الذين بعقولهم مرض، وهم المجانين، ويسمى ذلك المكان سيدي فرج على أنه لم يدفن به أي شخص كان يسمى بهذا الاسم، وليس به قبر، وإنما بنى هذا المكان أحد السلاطين ليضم مرضى المسلمين الذين لا ملجأ لهم أو مأوى يأوون إليه، وسمي باب الفرج لأن المرضى كانوا يجدون فيها ما يفرج كربهم، وقد حبست عليه الحبوس التي كانت تصرف غلتها عليه.[١٠]

وقد جلا الدكتور دومازل Dr. Du Mazel[١١] وصف هذا البيمارستان فقال: بناؤه قديم يرجع تأسيسه إلى عهد سلاطين بني مرين، وهم في أوج عزهم وعظمتهم يعاونون

[٩] سلوة الأنفس ج ٢ ص ٢٧٦.

[١٠] Michaux-Bellaire: description de la ville. De Fez. Paris 1907.

[١١] Publications du service de la sante et de l'hygiene publique, editees a l'occasion de l'exposition calomole de Marseille on 1922 par Dr. Du Mazel.



شكل ٨-٢: بيمارستان سيدي فرج بفاس.

على نشر العلوم وتجميل المدن. وبنى أحدهم، وهو أبو يعقوب يوسف بن يعقوب بن عبد الحق، هذا المارستان لما تولى الملك سنة ٦٨٥هـ/١٢٨٦م، وعهد مؤسسه إدارته إلى أشهر الأطباء، وأوقف عليه الحبوس الكثيرة من العقار للصرف عليه وحفظه، ولما عظم أمر البيمارستان واتسعت أعماله أدخل عليه السلطان أبو عنان الذي تولى الملك ٧٦٦هـ زيادات عظيمة.

وفي سنة ٩٠٠هـ اتخذ أهل الأندلس من المسلمين إقامتهم في فاس، فتولى رياسته طبيب من بني الأحمر يسمى فرج الخزرجي، ولذلك سمي بيمارستان فرج، فأصلح فيه وجعل الموسيقاريين يلحنون أمام المرضى. وليس في مدخل البيمارستان شيء يستوقف النظر، وهو في سوق الحنا، ويحيط به جدار أبيض وعليه باب عال مغطى بالحديد شأنه كسائر أبواب المدينة مقفل على الدوام ولا يفتح إلا قليلًا.

الفصل التاسع

بيمارستانات الأندلس

(١) بيمارستان غرناطة

قال الوزير لسان الدين بن الخطيب[١] في كلامه عن أمير المسلمين بالأندلس محمد بن يوسف بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن فرج بن يوسف بن نصر، الذي تولى الملك بعد وفاة أبيه في عام ٧٥٥هـ: ومن مواقف الصدقة والإحسان من خارق جهاد النفس بناء البيمارستان الأعظم، حسنة هذه التخوم القصوى، ومزية المدينة الفضلى، لم يهتد إليه غيره من الفتح الأول مع تقرير الضرورة وظهور الحاجة، فأغرى به همة الدين ونفس التقوى فأبرزه موقف الأحداق ورحلة[٢] الأندلس، ومدرك الحسنات، فخامة بيت، وتعدد مساكن، ورحب ساحة، ودرور مياه، وصحة هواء، ونقد خزائن، ومتوضئات، وانطلاق خيرات، وحسن ترتيب، أبر على مارستان مصر بالساحة العريضة والأهوية الطيبة، وتدفق المياه من فورات الرمل وسود الصخر، وتمرج البحر وانسدال الاشجار. وقال سلادين:[٣] إن هذا الأثر المربع الزوايا لا يبلغ من الاتساع والإحكام في البناء مبلغ مارستان قلاوون بالقاهرة، ولكنه كان مرتبًا في بساطته أنيقًا في تفاصيله، وكانت قاعاته البسيطة تدور حول باحة داخلية، في وسطها حوض عميق لقبول الماء من عينين كل عين منها عبارة عن أسد جاث. ولما انتزعت غرناطة من يد العرب سنة

[١] الإحاطة في أخبار غرناطة ج ٢ ص ٢٩.

[٢] كذا ولعلها «حلة الأندلس.»

[٣] Saladin: manuel d’art musuleman p 200.

١٤٩٢م حول هذا البناء الصغير إلى دار ضرب السكة، ثم أدخلت عليه تغييرات مختلفة شوهت معالمه ثم تهدم معظمه.

وذكر مارشيه[٤] كذلك: أن مارستان غرناطة حول إلى دار ضرب بعد سقوط غرناطة، وحدثت فيه تغييرت مرات عديدة وتهدم ثلاثة أرباعه، ولكنه في مظهره أبسط من معاصره بيمارستان قلاوون، ففي وجهته بعض النوافذ، وفيها أقواس مزدوجة وفي الوسط باب وأسكفة يعلوهما كتابة تشبه أشرعة الفلك، ويدخل من الباب إلى ردهة مربعة الزوايا مستطيلة، وفي وسطها حوض فيه أسدان جاثيان يشبهان مثيليهما في قصر الحمراء وينبغ منهما الماء، وحول الردهة أربعة أروقة ينفتح فيها أبواب طويلة ذات انحناء على شكل نعل الفرس، وفي الزوايا سلاليم يدخل منها إلى الطابق الأول.

ونقل ليفي بروفنسال[٥] نص ذكرى بناء السلطان محمد الخامس للبيمارستان سنة ٧٦٧–٧٦٨هـ، وهو لوح من الرخام على شكل الباب، مقنطر مركب من قطعتين ملتصقتين التصاقًا تامًّا محفوظ منذ سنة ١٨٥٠م في جناح من بستان قصر الحمراء، نقل إليه من أحد بيوت غرناطة، وعلى أحد وجهي هذا اللوح كتابة في غاية الحفظ تملأ هذا الوجه، وهي مكونة من ٢٦ سطرًا بالخط العادي الأندلسي (شكل ٢٢) وهذه الكتابة:

> تخليد ذكرى مارستان بناه السلطان محمد الخامس من بني نصر الغني بالله خاصًّا بمرضى غرناطة الوطنيين.
>
> وهذا هو النص:
>
> الحمد لله، أمر ببناء هذا المارستان رحمة واسعة لضعفاء مرضى المسلمين، وقربة نافعة إن شاء الله لرب العالمين، وخلد حسنة ناطقة باللسان المبين، وأجرى صدقة على مر الأعوام وتوالي السنين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين، المولى الإمام السلطان الهمام الكبير الشهير الطاهر الظاهر، أسعد قومه دولة، وأمضاهم في سبيل الله صولة، صاحب الفتوح والصنع

---

[٤] Y. Macrais: manuel d'art musuleman p. 559.

[٥] Inscription arabe d'Espagne par Levy Provencal p. 164. 1931.



شكل ٩-١: ذكرى إنشاء بيمارستان غرناطة.

الممنوح، والصدر المشروح، المؤيد بالملائكة والروح ناصر السنة، كهف الملة، أمير المسلمين الغني بالله، أبو عبد الله محمد بن المولى الكبير الشهير السلطان الجلل الرفيع المجاهد العادل الحافل السعيد الشهير المقدس أمير المسلمين أبي الحجاج، ابن المولى السلطان الجليل الشهير المعظم المنصور، هازم المشركين

وقامع الكفرة المعتدين، السعيد الشهيد الوليد بن نصر الأنصاري الخزرجي، أنجح الله في مرضاته أعماله، وبلغه من فضله العميم وثوابه الجسيم آماله، فاخترع به حسنة لم يسبق إليها من لدن دخل الإسلام هذه البلاد، واختص بها طراز فخر على عاتق حلة الجهاد. وقد أراد وجه الله بابتغاء الأجر والله ذو الفضل العظيم، وقدم نورًا يسعى بين يديه ومن خلفه ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾. فكان ابتداء بنائه في العشر الوسط من شهر المحرم من عام سبع وستين وسبعمائة ٧٦٧هـ، وتم ما قصد إليه ووقف الأوقاف عليه في العشر الوسط من شوال من عام ثمانية وستين وسبعمائة ٧٦٨هـ، والله لا يضيع أجر العاملين، ولا يخيب سعي المحسنين، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وآله وأصحابه أجمعين.